
عبد الحميد جودة السحار
صدى السنين

مطبوعات مكتبة مصر

صدى السنين

تاليف

عبد الحميد جوده السحار

الناشر :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

صدى السنين

دخلت مكتبى ، وأمسكت بالقلم ، وحاولت أن أكتب . ولكن لم تكن نفسى متفتحة للكتابة ؛ كنت أحس كأن حملا ثقيلا حط على رأسى ، فعطل تفكيرى ، فألقيت القلم ، وقعدت ساكنا أتلفت حولى فى خمول ، فوقعت عيناى على كتاب كنت اشتريته وأبقيته لساعات فراغى ، فمددت يدى وتناولته ، وفتحته ورحت أقرؤه ، ولكن ما إن قرأت بضعة أسطر حتى عافت نفسى القراءة ، فرميت بالكتاب ، وقمت كوسنان يداعب النوم جفنيه ، وسرت إلى غرفة أخرى حتى بلغت مقعدا وثيرا ، فارتميت فيه ، وأرخيت جسمى ، ورحت أنعم بالكسل اللذيذ .

وتقلبت فى رقدتى ، فرأيت على نضد قريب (ألبوماً) للصور ، فخطر لى أن أتسلى بتقليب صفحاته ، فتناولته وفتحته ، فرأيت صورة زميل من زملائى فى المدرسة الثانوية ؛ كان شابا صغيرا ، فى وجهه صفاء ، وفى عينيه ذكاء ، فأخذت أتأمل الصورة مليا . فتزاحمت الأفكار فى رأسى ، وعادت بى الذكريات سنين طوالا ، فشخصت ببصرى إلى السقف ، وجعلت أعرض حوادث تلك الأيام فى شغف وحنين .

كنا صديقين قلما نفترق ، وكنا فى الفصل متجاورين ، فإذا انتهى اليوم الدراسى انطلق معى إلى بيتنا ، أو انطلقت معه إلى بيتهم الرحب العتيق ، وكان فى حى قديم من أحياء قاهرة المعز ، قريبا من ضريح من أضرحة القاهرة

الشهيرة ، التى يفد إليها الفلاحون من أقاصى البلاد للتبرك والزيارة ، فكنا نشق طريقنا بين جموع زاخرة من الفلاحين والفلاحات ، والشحاذيسن والمجذوبين ، وبائعى المسابح ، وحاملى قدور العرقسوس . وأوانى الخروب ، ونخترق صفوفا من عربات اليد الصغيرة المصطفة على جانبى الطريق ، محملة بأساور من زجاج أخضر وأحمر وأزرق وأصفر . أو بأكداس الترمس التى حفت بها قلل رشق فى أفواهها الفل والزهر . أو بأكوام اللادن أو الجوافة الضامرة التى دب فيها الفساد ، وكنا نستنشق الهواء يعبق بدخان المباخر الممزوج بالدخان المنبعث من الصينيات التى تحمر فيها الأكباد والقلوب ، وكانت الأصوات المتنافرة الصادرة من هنا وهناك تصك آذاننا ، فنغذ السير ، لنفر من تلك الضوضاء الذى يدير الرءوس .

وكنا إذا بلغنا دارهم نلج من باب هائل كبير ، صنع من خشب متين ، وحصن بأزرار من حديد ، دقت فيه فى صفوف ، وما إن ننطلق خطوات فى ممر قصير حتى نجد بابا آخر يوصل إلى فناء الدار الواسع ، الذى صفت فيه ارائك خشبية عالية من طراز عربى قديم ، فكنا نجلس على أريكة من تلك الأرائك نستذكر دروسنا أو نتجاذب أطراف الحديث ، حتى إذا جن الليل انصرف كل منا إلى أهله .

وقابلت أهله وعرفتهم ، وأمضيت معهم أوقاتا طويلة . وكنت أقابل أباه فأحييه فى إجلال ، فقد كان رجلا وقورا ؛ كان مدرسا للكيمياء فى مدرسة من المدارس الثانوية ، وكان شيخ طريقة من الطرق الصوفية ، فكان قليل الكلام ، فى وجهة مهابة . وكان الأتباع يفدون إلى داره لتقديم فروض الولاء ، فكان يقابلهم فى منظرة رحبة ، يصغى إليهم فى تواضع ، ويقبل عليهم فى بشاشة ، ويحدثهم حديث الدين فى طلاقة ، فيقومون من عنده يتغنون بكريم خلقه ، وإيمانه الصحيح .

وفى يوم من الأيام قال لى صديقى : إنهم يحتفلون الليلة فى دارهم احتفالا دينيا

كبيرا ، يحضره الأتباع من كل البقاع ، وأنه يدعونى لمشاهدة ذلك الاحتفال الرائع ، فاعتذرت إليه ، وقلت له : إن والدى لا يوافق على سهرى خارج البيت ، فقال لى إنه سيذهب معى إلى والدى تستأذنه فى حضور ذلك الاحتفال ؛ وأنه على ثقة من أن والدى لن يمانع فى أن أحضر جفلا دينيا جليلا . وانطلقنا إلى والدى ، وتقدم منه صديقى ، والتمس منه أن يأذن لى الليلة بالسهر عندهم ، فوافق و لم يبد اعتراضا ، ولعله قد سره أن يندمج ابنه فى زمرة رجال الدين .

وذهبت إلى دارهم نشوان ، وجعلت أغدو واروح فى فناء الدار الكبير الذى جهز لاستقبال الوفود وأنا أحس اغتباطا ، ودوت فى القضاء أصوات دفوف وطبول وصنوج ، وجاء صديقى وجذبنى ، لنخرج لاستقبال طلائع الناس ، فانطلقنا حتى وقفنا على وصيد الباب ننظر ، فرأيت رجالا فى ثياب قذرة ، أرخوا لحاهم ، يحملون رايات نصل لونها ، وراحوا يقفزون ويتمايلون على دق الدفوف . وأناسا يسيرون فى صفين طويلين وقد تشابكت أيديهم ، وراحوا يذكرون الله وهم يقصرون ويطولون ، ويتمايلون ويترنحون ، ورءوسهم فوق صدورهم تدور ، فشعرت بشعور غريب ، كان دق الدفوف ينزل الرهبة بقلبى ، ومنظر الرجال وهم يتمايلون يخز روحى ويجعلنى أحس تضاؤلا وأسى عميقا ، وانطلقت الزغاريد من وراء الشبابيك ؛ وأقبل شيخ وقور فى ثياب سود ، وعلى رأسه عمامة خضراء كبيرة ، يتهادى على بغلة مطهمة تحت الرايات التى عقدت فوق رأسه ، ودنا الركب منى ، فتفرست فى وجه الشيخ ، فإذا به والد صديقى ، مدرس الكيمياء فى المدارس الثانويه .

وتدفق الركب إلى فناء الدار ، واشتد دق الطبول ، وارتفعت أنغام الناى

حلوة عذبه تهز القلوب ، وانسابت أصوات الصفارات ، فراح الرجال يذكرون الله فى حرارة ، ويتمايلون فى سرعة وتوافق ، فجعلت أرصد ما يجرى أمامى كالمأخوذ .

ودوى المكان دوى النحل ، واستمر الطبل والزمر ، واختفى الشيخ من جوف داره ، وراح الوقت يمر والناس يتمايلون مطبقى الجفون ، كأنهم قد غابوا عن الوجود ، وأقبل خدم شداد ، يحملون طناجير الثريد . فخفتت الأصوات وتعلقت العيون بقطع اللحم التى كانت تخفى وجوه الطناجير ، ووضعت على الأرض ، فتحلق الناس حولها خفافا ، ولم تمتد إليها يد ، وتطلعت الأنظار إلى باب صغير ، وما انقضى كثير وقت حتى انفرج الباب عن الشيخ فى جبة زاهية ، وفى يده عصا طويلة ، وتقدم الشيخ فى وقار ، وهو يتمتم بكلمات خافتة ، ومد العصا ولمس طرف طنجير من الطناجير ، فانبعث لهب أخضر ، فهلل الناس وكبروا ، ودار على الطناجير كلها يلمسها بعصاه ، فانبعث منها ضياء ، فزاد التهليل ، وارتفع التكبير ، حتى شق عنان السماء .

وخفتت الأصوات ، وراحت الأيدى تتسابق إلى القصاع ، وتلقى فى الأفواه المفتوحة ما تصل إليه ، واستمر الناس فى ازدراد الطعام الذى باركه الشيخ ، وبقيت واقفا أنظر وقد ارتسمت الحيرة على وجهى ، فقد حيرنى ما فعله مدرس الكيمياء ، لانبعاث ذلك الضياء !

وتلفت حولى ، فرأيت صديقى ينظر إلىّ وقد رفت على شفتيه ابتسامة فأردت أن أبتسم ، ولكنى لم أستطع ، كان ذلك الضياء يحيرنى ، فاتجهت إلى صديقى ، وجذبته من يده ، حتى إذا ابتعدنا عن الحشد المنهمك فى طناجير الثريد قلت له :

ــ ماذا فعل أبوك ؟ .

فقال فى بساطة :

ــ لم يفعل شيئا .

ــ وما هذه النار التى بعثها من الطناجير ؟

فقال مى خبث :

ــ بركة من بركاته .

فدفعته فى كتفه فى رفق ، وقلت له :

ــ لا تضحك على ، فلست من أتباع أبيك .

ــ هذا سر الأسرة .

ــ لن أنافسكم فى مشيخة الطريقة يوما .

فقال فى همس :

ــ أقول لك على ألاتبوح بسرنا ؟

ــ أفعل .

ــ لقد ثبت فى كعب العصا قطعة من الفسفور ، فإذا ما لامست نحاس الطناجير انبعث ذلك الضياء .

وعدنا إلى حيث كان الناس ، ونظرت إلى مدرس الكيمياء الوقور فى ثيابه الزاهية ، وعمامته الخضراء الكبيرة ، وتطلعت إلى وجهه الهادئ الذى ينم عن التقوى والصلاح ، فأحسست قهقهة ساخرة تدوى فى جوفى دويا .

وقلبت صفحة فى (الألبوم) ، فرأيت صورة ما إن وقعت عليها عيناى حتى اضطربت ، كانت صورة فتاة واسعة العينين . باسمة الثغر ، فى خديها غمازتان زادتا فى فتنتها ، وقرأت الإهداء .

« إلى عزيزتى التى أنساها ما حييت ، ذكرى ساعات حبيبة ، لن تمحوها

يد السنين » . فخفق قلبى ، وسرى فى صدرى إحساس غامض لذيذ ، ولفتنى الحيرة التى طالما دثرتنى كلما قرأت ذلك الإهداء . لم أكن أدرى أكتبته لزوجتى أم كتبته لى .

كان ذلك من عدة سنوات . يوم كنت أذهب عصر كل خميس لأمضى بعض الوقت مع أبناء عمى ، ثم أهبط . أنا وابن عمى الذى كان فى مثل سنى نقطع الوقت فى الطواف فى الشوارع القريبة من دارهم ، حتى إذا وفد الليل عاد كل منا إلى داره .

وفى ذات يوم ، قابلت عندهم درية ، كانت شابة فى السابعة عشرة ، حلوة كالبدر ، نديه كالفجر ، يزين وجهها الجميل عينان واسعتان آسرتان ، وغمازتان بديعتان فى وجنتيها ، وفم حلو صغير ، يغرى من يراه بلثمه وتقبيله . وجلست قبالتها ، ورحت أسترق النظر إليها فى نشوة ، وخفق قلبى فى فرح ، والتقت عيناى بعينيها مرات ، فعبث بأوتار فؤادى ذلك البريق الخاطف المنبعث من مقلتيها ، وهامت روحى تحلق فى سماء صافية من الحب والوداد ، وتقضى الوقت وأنا نشوان ، وأقبل الليل فانصرفت ، ولو طاوعت قلبى ما غادرت المكان .

وسرت فى الطريق مطرقا أفكر ، وما كنت وحيدا ، فقد كان طيف درية يرافقنى فى طريقى . فكرت فى تلك الفتاة الفتانة التى قطنت دار عمى حديثا ، فغمرتنى نشوة لذيذة ، سأراها كلما زرت عمى ، وسأنعم بالإصغاء إلى حديثها الشهى الذى كان يدغدغ حواسى .

ومرت الأيام بطيئة ، وصورة درية تحتل ذهنى ، وخطر لى أكثر من مرة أن أنطلق فى أثناء الأسبوع إلى دار عمى ، لأرى من هفت النفس إليها ، وتعلق القلب بها ، ولكنى أحجمت على مضض فقد كنت معتادا أن أذهب إلى هناك

يوم الخميس ، وخشيت أن يفطنوا إلى ما اعترانى من تغيير !

وجاء يوم الخميس ، فانطلقت إلى دار عمى ، وقد ارتديت حلة بديعة ، وزينت شعرى ، ورحت أغذ السير ، وقلبى فى صدرى نشوان ، ودنوت من البيت ، ورفعت عينى ، فقفز قلبى فى جنون ، وسرى فى بدنى تيار كهربى ، كانت درية تطل من شرفتها ، وخيل إلى أن ثغرها قد افتر عن ابتسامة حلوة لما لمحتنى .

وصعدت فى الدرج خفيفا كالطيف ، تدثرنى الغبطة ، ويلفنى السرور ، ورأيتها تفتح باب شقتها ، فاضطربت واعترانى ارتباك ، ولكن ذلك الإشراق الساحر الذى ارتسم على وجهها . والبريق اللطيف المنبعث من عينيها ، وتلك الابتسامة الحلوة التى رفت على شفتيها ، أفرخ بها روعى ، فحنيت لها رأسى محييا ، فردت على تحيتى ، وصعدنا معا فى الدرج ، كانت لحظة سعيدة لن أنساها .

وجلسنا فى شقة عمى ، وراحت تتحدث ، وأنا أصغى إليها كالمأخوذ ، كان حديثها يخلبنى ، ويستولى على لبى ، أو يسلبنى تفكيرى .. ورحت أرقبها ، كانت حركاتها تستهوينى ، وسكناتها ترضينى ، كنت أراها بعين الحب التى ما كانت تقع إلا على الروعة والجمال .

وأخذت درية ترصد مقدمى كل خميس ، فإذا لمحتنى مقبلا من شرفتها هرعت إلى الدرج تستقبلنى ، وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب ، ثم نصعد معا إلى شقة عمى ، نمضى الساعات الهنية التى كانت تمر كلمح البصر ، ويا طالما اجتررت حديث تلك الساعات فى الليالى والأيام !

وفى يوم من الأيام ، أخذنا أنا ودرية نرتقى الدرج ، لنصل إلى شقة عمى ، وقد لمس كتفى كتفها ، فخفق قلبى فى جوفى ، وتحركت إحساسات

الحب . وراحت تنساب فى صدرى ، فالتفت إليها ، فرأيت فى عينيها بريقا هز كيانى ، وجعلنى أهفو لأنفرد بها وحدىْ . وبلغنا شقة عمى ، ولكننى لم أعرج عليها لأدق الجرس ، بل وجدت نفسى أنساب فى الدرج كالمأخوذ ، وأجذب درية من يدها فى رفق فتنساب خلفى ، كأنما ألقت إلى مقاليد أمرها .

وبلغنا سطح الدار ، فوقفنا برهة ننظر إلى الأفق البعيد ، لا ينبس أحدنا بكلمة ، ورواح قلبى يقفز ليغوص ، ثم يغوص ليقفز ، وأخذ الدم يتدفق حارا إلى رأسى ، واعترتنى رهبة واستولى على ارتباك ، وأخيرا وجدت لسانى فرحت أشرح لها حبى ، وأبثها وجدى ، وكانت تلك اللحظات أشهى لحظات حياتى ، التى عشت أنعم بذكراها سنين .

وأخذنا نتلاقى فوق سطح الدار ، وبعيدا عن العيون ، نسعد بحبنا ، ولكن لم يدم لنا الصفاء ، ففى يوم من الأيام هرعت إلى السطح لأقابلها ، فألفيتها مطرقة ، فدنوت منها ، ونفخت فى وجهها الهواء . ظلت فى عبوسها ، فقلت لها فى حنان :

ــ ماذا يا درية ؟

فرفعت وجهها ، فانخلع قلبى ؛ كانت الدموع تترقرق فى عينيها الساحرتين ، فقلت فى صوت مخنوق :

ــ ماذا جرى ؟

فقالت فى نبرات متهدجة :

ــ لن نتقابل بعد اليوم .

وشعرت بخنجر يمزق قلبى ، وبنار تشوى كبدى ، وبمطرقة هائلة تهوى على رأسى ، فقلت فى فزع :



ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ انتهى كل شيء بيننا .

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ خطبت ، وسيكتب العقد يوم الخميس القادم .

وأطرقت ، ولم أنبس بكلمة وإن كانت النار تحرق جوفى . ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئا ؛ وكنت لا أزال طالبا ، وكان أمامى خمس سنوات لأتم دراستى العالية ، وما كان من المعقول أن أتقدم لخطبتها ، وأطلب منها أن تنتظر هذه السنوات .

ونهضت درية تودعنى ، وفى عينيها دموع ، وفى جهها أسى ، فأحسست يدا قوية تضغط على رقبتى ، وجفافا فى حلقى ، وخطر لى أن اضمها إلى صدرى ، وأمسح دموعها بشفتى . ولكنى أحجمت ، فقد انتهى كل ما كان بيننا كحلم قصير ، وتقضت لحظات الهناء ، ولم يبق إلا الضنى والعذاب .

وهبطت درية ، وبقيت وحدى فريسة للعذاب ، ثم هبطت فى الدرج وفى جوفى لوعة ، وعزمت على أن أعود إلى بيتى لأنزوى بعيدا ، حتى لا يفطن أحد إلى ما أكابد من كرب وهموم ، ولكنى وجدت باب شقة عمى مفتوحا ، فلم أجرؤ على متابعة النزول خشية أن يلمحنى أحد ، فدخلت وجلست صامتا لا أنطلق بشيء . وجاءت درية وأمها ، ودعت الأم زوج عمى وأبناءها لتشريف الحفل المقام ، بمناسبة كتابة عقد زواج درية ، ودعتنى الأم لتشريفهم فى ذلك اليوم ، فوعدتها بأنى سأفعل مسرورا ، وقمت لأنصرف ، فهمست درية لى بأنه يسرها أن أجيء ، فاربد وجهى ولم أستطع أن أدارى ما بى ، وانطلقت وفى صدرى ثورة ، ورحت أهبط فى الدرج كمجنون لا يلوى على شيء .

وجاء اليوم الموعود ، ففكرت فى أن أذهب إرضاء لدرية ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، فقد ثار وتمرد ، فبقيت فى حجرتى مطرقا مهموما . ومر الوقت بطيئا ، فرحت أذرع الغرفة صاعدا هابطا ، لأطرد صورة درية التى راحت تلاحقنى ، وتحتل تفكيرى ، وتعذبنى وتضنينى ، وسمعت طرقا على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدت خادم عمى الصغيرة تقدم لى لفافة ، فقلت لها :

ـــ ماهذا ؟

ـــ إنه من درية هانم .

دوى قلبى دويا شديدا ، وفارت دمائى فى عروقى ، وتناولت اللفافة وقد سرت فى بدنى رعدة ، وتفككت مفاصلى ، وأغلقت الباب خلفى ، وأخذت أفض اللفافة على عجل ، وانتابنى قلق ، ووقعت عيناى على ما أرسلته لى درية ، فانقبضت ، يا للسخرية ! كانت أول هدية بعثت بها إلى « علبة ملبس » ليلة كتابة عقد زواجها ، ورفعت يدى ، وهممت بتطويح هديتها من النافذة ، ولكنى لم أفعل . إنها من درية ، وما كان لى أن أحطم آخر ما جاءنى منها .

ومرت عشر سنين ، وزوجت من ابنة عمى التى كانت طفلة فى تلك الأيام ، وجلسنا يوما ننسق « ألبوم » الصور ، فقدمت إلى صورة درية فارتبكت ، وقرأت الإهداء ، فزاد ارتباكى . ترى أكتبته لى ؟! وخطر لى أن أستفسر من زوجتى متى أهدت إليها هذه الصورة ، فقلت :

ـــ أظن هذه الصورة قديمة .

ـــ لا ، إنها أهدتها إلى قريبا .

وبقت حيرتى ، ترى أتوطدت الصداقة بين زوجتى وبين درية حتى لنها تكتب إليها : « إلى عزيزتى التى لن أنساها ما حييت ، ذكرى ساعات حبيبة

لن تمحوها يد السنين » أم أنها ما زالت تذكر تلك اللحظات السعيدة التى قضيناها معا فى شرخ الشباب ؟!

والله إن هذا يحيرنى كلما نظرت إلى صورة درية ، وقرأت إهداءها العجيب .

وقلبت صفحة « الألبوم » فرأيت صورة أشاعت البهجة فى نفسى . إنها صورة شاب بارز الفكين ، ذى شارب أصفر قصير فى وجهه طيبة وبساطة ، عرفته فى المصلحة ، وعطفت عليه لما رأيت من اضطهاد رئيسه له ، لا لذنب إلا أن ذلك الرئيس يعتقد أن واجب الرؤساء الأول اضطهاد المرءوسين ، وكان من سوء حظه أن رئيسه فى الدرجة السابعة إذ كان هو على أعتاب الدرجة الثامنة ، وإنه لبون شاسع وفرق كبير .

وأحس الشاب عطفى ، فأحبنى ووثق بى ، حتى إنه كان يعرض على مشاكله ، ويستشيرنى فى أموره ، وفى يوم من الأيام جاءنى على استحياء ، وقال لى :

ــ سأطلب منك طلبا أخشى أن ترفضه .

ــ لن أرفض لك طلبا إذا كان فى مقدورى أن أحققه .

فقال وقد تضرج وجهه بحمرة الخجل :

ــ سأتزوج ..

ــ مبارك .

ــ وستذهب معى لتطلب لى يد من سأتزوجها .

ــ أنا ؟ وما دخلى فى ذلك ؟ إننى آخر من يصلح لمثل هذه المهمة .

ــ لا أطمئن إلى أحد غيرك .

ــ أرجو منك أن ..

ـــ والله لن أذهب إلا معك .

فقلت فى استسلام :

ـــ أمرى إلى الله .

ـــ سنسافر يوم الجمعة .

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى بلدة قريبة من طنطا .

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة كنا فى طريقنا إلى طنطا ، وراح يقص على قصة الفتاة التى يريد أن يتزوجها : إنها تعمل مدرسة مع شقيقته فى إحدى مدارس القاهرة ، وقد رآها فى بيتهم فأعجب بها ، ولم يزد على ذلك شيئا .

وغادرنا القطار فى طنطا ، وذهبنا إلى السكة الحديدية الضيقة ، لتحملنا إلى بلد المحبوب . قعدنا فى مكان مكشوف فقد كان الجو صحوا جميلا ، وكانت الخضرة الزاهية التى تكسو الأراضى المترامية على مدى البصر ، تهفو إليها النفوس ، وتشيع البهجة فى الصدور .

وزأر القطار ، وهاج وماج ، ثم زحف زحْفَ السلحفاة . إنه قطار عجيب ، يتهادى فى وقار الشيوخ ، لا يحفل بالزمن ، ولا يخضع لنظام ، يسير كما يشاء ، ويقف حيثما يحلو له . وظل القطار فى تسكعه ، ونحن فى سمر شهى ، وخطر لى أن أتمشى قليلا فى ذلك الجو البديع ، فهبطت من القطار وهو يسير ، ومشيت فى خطوات ثابتة أملأ رئتى بالهواء المنعش ، وأحسست نشاطا يدب فى جسمى ، فأغذدت السير ، وبعد مدة تلفت خلفى فألفيت القطار مقبلا نحوى بضجيجه وزئيره ، فانتظرته حتى وصل إلى ، فركبته ثانية ، وجلست إلى جوار صديقى ، ليحملنا إلى بلد ما كنا بالغيه إلا بشق الأنفس !

وغادرنا القطار فى وسط المزارع ، ثم سرنا على شريط مرتفع من الأرض

ينساب على جانبيه جدولان ، فرحنا نسير وقد رفعنا أذرعنا فى الهواء لنحفظ توازننا ، كأنما كنا نسير على الصراط المستقيم . وانطلقنا حتى بلغنا حانوتا متواضعا بنى بالطين ، فتقدم زميلى إلى من فيه ، وحدثهم قليلا ثم صافحهم فى حرارة ، وجاءنى مشرق الوجه يدعونى لمقابلة أهل عروسه . فذهبت معه إلى الحانوت ، وصافحت من فيه .

ودعينا للذهاب إلى الدار ، فسار أمامنا شاب يهدينا الطريق ، فرحنا ننساب فى دروب ضيقة ملتوية حتى بلغنا الدار المنشودة . فدلفنا إلى منظرة رحبة ، صغت بها الأنضاد والأرائك ، وكانت الآية الوحيدة التى تكشف عن أن أصحاب هذه الدار زاروا القاهرة ، تلك الصور الشعبية التى تباع فى الموالد لأبى زيد الهلالى وهو ينكل بأعدائه ، والإمام علىّ على صهوة فرسه يطعن الشيطان طعنة نجلاء يسقط على أثرها مضرجا بدمه ، وكانت فى إطارات بسيطة ، معلقة على الجدران فى ذوق سقيم .

وفتح الباب ، وأقبل علينا رجل يرتدى طربوشا وجلبابا من الصوف الداكن ، وصافحنا فى تحفظ ، وجلس إلى جوارنا يردد ألفاظ الترحيب ، وينظر إلينا فى استغراب ، ففطنت إلى أنه لم يكن ينتظر قدومنا . وصمت الرجل فساد المكان سكون ثقيل .. رأيت أن أقطع ذلك الصمت ، وأن أرفع تلك الوحشة التى رانت علينا ، بأن أذكر سبب زيارتنا ، فالتفت إلى الرجل ، وقلت :

— جئنا نخطب ابنتك .

فنظر الرجل إلىّ فى دهش وقال :

— ابنتى أنا ؟!

فقلت فى توكيد :

ـــ أجل .

فنهض الرجل ، وغادر المكان ، وظل صديقى صامتا لا يتكلم ، حتى أقبل الرجل وفى يده فتاة فى السابعة من عمرها ، وقال :

ـــ هذه كبرى بناتى .

فأرتج على ، ولم أجد لسانى ، ولم أدر ما أقول ، وصعد الدم حارا إلى وجهى ، وبلغ مسامعى صوت صديقى الخافت وهو يقول :

ـــ جئنا نطلب أختك .

فرنوت إلى صديقى رنوة عتاب ، ولكنى فطنت إلى أنه لم يكن يدرى ذلك قبل الساعة . وتحدث صديقى قليلا عن الصلة التى تربطه بهم ، وحسنا فعل ، زال عنى ذلك الانفعال الذى استولى على ، واستجمعت خيوط نفسى التى ذهبت شعاعا عقب تلك المفاجأة التى لم أكن أنتظرها ، وابتدأت أستأنف حديثى ، فقلت للرجل :

ـــ لا أحب أن أخدعك ، فأقول لك إن صديقى ينتظره مستقبل عظيم ، إننى أقول فى صراحة إنه لن يكون رئيسا للوزارة ، أو مدير المصلحة ، إنه يضع قدمه الآن على أول درجة من درجات الوظائف ، وإنه سيرقى فى سلم الدرجات كما يرقى غيره ، وسيكون قادرا على أن يعيش هو وزوجه حياة متوسطة كما يعيش آلاف من الموظفين أمثاله . إنه شاب طيب ، وإنى أزكيه .

ورن فى أذنى « إنى » « أزكيه » رنينا غريبا ، فالرجل لا يعرفنى حتى يقبل تزكيتى ، وأحسست أنى جاوزت حدى فبدأت أنكمش ، ولكن كم كانت دهشتى عظيمة . لما رأيت الرجل يقبل على ويحدثنى متفتح النفس ، ثم ينهى حديثه بقوله :

ـــ إنى سأزوجها له إكراما لك !

(صدى السنين)

وانتهت زيارتنا ، واستأذنا وانصرفنا ، وما ابتعدنا عن الدار حتى احتضنني صديقي ، وراح يقبلني فى سرور ، وفهمت منه أن أخته خطبتها له قبل ذلك ، ولكنه رفضوا ، وأن الرجل لم يكن مجاملا لما قال إنه سيزوجها له إكراما لى . وخطر لى خاطر ، ترى لو قابلني الآن بعد أن كابد الحياة الزوجية أكان يهرع إلى ليقبلني ؟! .

وقلبت صفحة « الألبوم » ونظرت ، فانقبض صدرى ، وران على نفسى الحزن العميق ، وأحسست غصة فى حلقى ، وناراً تحرق كبدى ، كانت صورة أخى العزيز الذى أحببته لقلبه الكبير ، الذى كان يتسع لحب الناس جميعا ، وعادت بى الذكريات إلى شهور قريبة ، إلى يوم انطبعت فى نفسى ذكراه الأليمة ، يوم أغبر لن يمحو ما خلفه فى من أسى.. مر الليالى وكر السنين .

كان الليل قد أقبل ، وكانت زوجى تشكو وعكة خفيفة . فهبط من شقته إلى شقتنا ليعودنا ، وجلسنا نتحدث ، فراح يقنعنى أن نسافر فى الصباح مع النادى إلى الإسماعيلية ، ولما كنت أنفر بطبعى من الناس الذين لا تربطنى بهم صداقة متينة ، رفضت ، فأخذ يثنينى عن عزمى ، ولكننى أصررت على الرفض ، فأقسم أن يأخذنى معه برغم أنفى لأروح عن نفسى ، ويا طالما أخذنى معه قسرا إلى رحلات رائعة بهيجة .

واسترسلنا فى الحديث ، ولاحظت احتقان وجهه ، فسألته عما فعله ، فقال لى إنه أخذ قبل عودته حقنة لعلاج ضغط الدم ، وصفها له أحد أصدقائه ، وأردت أن أنهاه عن ذلك ، ولكنى لم أتكلم ، فقد كنت أعلم ألا فائدة من تحذيره ، فقد كان يستعمل أى دواء يسمع به ، أو يصفه له صديق ، أو حتى عابر طريق ، كأنما جسمه حقل تجارب للأدوية والعقاقير .

وقام بعد أن قال لى إننى ذاهب معه إلى الإسماعيلية فى الصباح ، وجلست

أتحدث مع أمى التى كانت ستقضى الليلة معنا ، لتعتنى بزوجى التى كانت تشكو وعكة خفيفة ، ثم دخلت فراشى لأنام ، وما إن وضعت رأسى على الوسادة حتى سمعت جرس الباب يرن رنينا متواصلا ، فنهضت وفتحت الباب ، فألفيت زوجة أخى تقول فى اضطراب :

ـــ تعالوا ، إنه يغط غطيطا مفزعا ، وقد ناديته ولكنه لم يرد على .

فهرعت إليه ، وإذا بأمى تسبقنى فى الدرج ، تولول فى صوت خافت مفزوع ، كأنما حزر قلبها كل شىء ، ورحنا نهزه فى رفق ، ولكنه ظل فى غطيطه ، فأسرعت أمى إلى قلة الماء وصبتها على وجهه ، ثم حملناه وأقعدناه ، ففتح عينيه ، وراح ينظر إلينا وقد ترقرق الدمع فى مقلتيه ، وقال فى صوت لا يكاد يبين :

ـــ انتهيت .. الأولاد .

ثم أشار بيده إلى نصفه الذى ما كان يستطيع أن يحركه ، ورنا إلينا فى أسى ، فأحسست سكاكين تمزق أحشائى ، ونارا تندلع فى جوفى ، وأسرعنا إلى التليفون ، وطلبنا طبيبا من أصدقائنا ، وانتظرنا مقدمه فى قلق رهيب .

وجاء الطبيب ، وما أن فحص عنه حتى اربد وجهه ، وبان فيه الحزن ، فتناول التليفون ، واستدعى طبيبا آخر ، وراح ينتظره صامتا لا ينبس بكلمة.

فرحنا نذهب ونجىء فى الغرف حيارى وقد لفتنا الرهبة ، ونزل بنا الهم الثقيل ، وأقبل الطبيب الآخر ، ومرت اللحظات التى غابها فى غرفة أخى رهيبة موحشة ، ثم خرج من عنده منكس الرأس ، فهبط قلبى من الخوف ، وأسرعنا إليه ، واستفسرنا منه عما وجد ، فقال فى صوت خافض أقرب إلى الهمس :

ـــ نزيف فى المخ ..

وغادرنا الطبيبان وقد خلفا فى القلب لوعة ، وفى الجوف نارا ، وجلسنا مطرقين ، مرهفى الأعصاب ، نحس مرور الثوانى واللحظات ، وراحت أمى تغدو وتروح شاحبة الوجه ، شاخصة البصر ، تدق صدرها فى لوعة وحزن ، وانقضت الليلة كأسوا ما تكون ليلة مرت على إنسان .

وأصبح الصباح ، واستدعينا طبيبا آخر ، فحجمه ، وأمر ألا يدخل عنده أحد ، ورحت أغدو وأروح فى الردهة ، ثم اتجهت إلى باب غرفته وفتحته ، حتى إذا انفرج قليلا نظرت إلى أخى المسجى على الفراش ، فغاص قلبى ، وأحسست جافا وحرقة فى حلقى ، ودثرنى الحزن العميق ، فقد كانت رؤية أخى الذى كان يملأ الدنيا حياة وهو راقد لا يستطيع أن يرفع ذراعا تفتت كبدى .

وانقضى النهار ، ونحن نترجح بين اليأس والرجاء ، وفى المساء جاء الطبيب وفحص عنه . وقال إنه لو أمضى ليلته هادئا . فقد يجتاز الأزمة بسلام . وتعلقنا بأهداب الأمل ، ومددنا فى حبل الرجاء ، فرحنا نذكر من نعرفهم ومن سمعنا عنهم ، ممن حدث لهم ما حدث لأخى ، ونجوا مما أصابهم ، واطمأننا إلى ذلك الحديث ، فاسترسلنا فيه ، فشاعت فى النفوس الآمال .

وانقضت الليلة هادئة ، وانتصف النهار وهو على حاله ، فرحنا نذكر ما سنفعله بعد إبلاله من مرضه ، ولكن ما إن وفدت طلائع الليل حتى ارتفعت درجة حرارته ، واحتقن وجهه بالدم ، فاستدعينا الطبيب ، فقال إن تلك الليلة فاصلة ، ولم يضف إلى ذلك شيئا ، وتركنا فريسة للهموم والأفكار .

وقعدنا محزونين ، نعد الثوانى واللحظات ، ونبتهل إلى الله فى حرارة أن يعفو عنه . وانتصف الليل أو كاد ، فتحطمت أعصابى ، ونال منى التعب ، فذهبت إلى فراشى لأستريح قليلا ، وما إن وضعت رأسى على الوسادة حتى

استغرقت فى النوم ، ورأيت أبى الراحل بوجهه الأبيض ، وشاربه الأصفر ، يناولنى قطعة من الذهب ، فأطبقت عليها وأنا فرحان ، ولكن لم يدم فرحى طويلا إذ وفد عملاق هائل ، بشع الصورة ، مفتول العضلات ، ولف ذراعه القوية حول عنقى ، وأخذ يضغط فى قوة ليكتم أنفاسى ، فشعرت بأنى أموت من الاختناق ، ومد يده إلى يدى ، وحاول أن يغتصب منى قطعة الذهب ، ولكننى جعلت أجاهد وأحاول أن أتملص منه دون جدوى ، واشتد الضغط على عنقى ، فأرخيت يدى ، فأخذ منى الذهب الذى أعطانيه أبى ، وهببت من نومى مرعوبا مفزوعا ، وإذا بصوت الجرس يرن فى أذنى رنينا موحشا. مقبضا ، خلع قلبى وفك مفاصلى ، وقمت أعدو نحو الباب ، شاخص البصر ، مبهور الأنفاس ، أكاد أنهار من الإعياء ، وفتحت الباب وقلبى يغوص فى جوفى ، فألفيت من يدعونى للصعود ، فصعدت قلقا مضطربا أشعر بغثيان . دخلت على أخى المسجى ، فألفيته يجود بآخر أنفاسه . فأحسست ألما هائلا يحز فى نفسى ، ولم أطق أن أراه وهو فى نزعه الأخير ، فخرجت من الغرفة أبكى أحر بكاء ، وشق سكون الليل صوت أمى الثكلى معلنا أن أخى الحبيب قد انتهى وأصبح ذكرى من الذكريات ، فلم أستطع أن أكبت ما بى ، أو أتغلب على النار التى راحت تحرق جوفى ، فرحت ألتدم كما تلتدم النساء .

ونظرت من خلل دموعى إلى الألبوم ، فوجدت عبراتى تتساقط على صورة أخى الذى تقضت أيامه كحلم قصير ، فأغلقت « الألبوم » فى حزن ، وشعرت بأنى أكاد أختنق ، فنهضت وذهبت إلى الشرفة لأريح أعصابى التى هيجتها الذكريات ، ولأستنشق هواء جديدا ، لعله يطفئ تلك النار المتأججة بين الضلوع .

صديقي جيمس

نمت تلك الليلة غرارا ، فما يكاد النوم يمس أجفانى ، وما تكاد عيناى تغمضان ، حتى أهب من نومى ، وأتطلع إلى الأفق الشرقى من خلل النافذة القريبة من فراشى ، فقد كنت أرصد طلوع النهار ، وأخشى أن يأخذنى النوم ، فأستيقظ متأخرا كما اعتدت ذلك منذ سنين .

ولاح لعينى بصيص نور يولد فى الأفق ، فتركت فراشى ، وارتديت ملابسى ، ثم ضغطت على الزر الكهربى ، فبدد النور ظلمة المكان ، فرحت أعدل هندامى ، ثم دسست يدى فى جيبى ، وأخرجت رسالة مطوية نشرتها أمام عينى ، وجعلت أقرؤها فى نشوة ، لأول مرة فى ذلك الصباح ، وللمرة المائة على الأقل منذ تسلمتها من الوزارة قبل ذلك بيوم .

كانت رسالة من الوزارة إلى مصلحة من المصالح التابعة لها ، الضاربة فى الصحراء المترامية بأرباض القاهرة ، وقد جاء فيها أنى عينت مترجما ، وعلى المصلحة أن تسند إلىّ عملى ، وأن تبعث إلى الوزارة بقرار تسلمى ذلك العمل ، وطويت الرسالة فى رفق ، ثم دسستها فى جيبى فى حذر ، وانطلقت إلى العمل وأنا جذلان .

ولفح وجهى نسيم الصباح ، فأحسست راحة ، وأخذت أستنشق الهواء منشرحا ، وكنت أحس فى نفسى خفة ، فطويت الطريق التى تفصل بين الدار ومحطة الترام فى لحظات قصار ، وأخذت أدير عينى فيما حولى ، فبدا

كل شيء جميلا ، فما رأيت الطريق من قبل اليوم هادئة ساكنة هدوء اليوم الأخاذ ، وأقبل الترام ، فقفزت فيه ، وجعلت أتطلع إلى الركاب ، وأمد إليهم بصرى وأنا نشوان ، وخامرنى شعور لذيذ ، فقد اتسع قلبى لهم جميعا ، فأحسست نحوهم حبا ، كأنما كانوا رفاقا من رفاق الكلية ، أو صحابا من صحاب الطفولة والشباب .

وأحسست رغبة فى الكلام ، كنت أود أن أحدث أيا كان ، فالتفت إلى الجالس بجوارى ، وهممت بالحديث ، ولكن عقد الخجل لسانى ، وماتت الكلمات على شفتى ، فسكت على مضض ، وانطلق الترام ، ورحت أتلفت وأطل من النافذة على الطريق الجديدة ، التى ستصبح من ذلك اليوم طريقى ، أضرب فيها كل يوم وأنا فرحان .

وخيل إلى أنى بلغت المكان الذى ينبغى أن أترك عنده الترام ، فهبطت ، وأدرت عينى فيما حولى ، فلم أهتد إلى ما أفعل ، ووقفت لا أدرى إلى أين أتوجه ولمحت جنديا من جنود الجيش بالقرب منى ، فذهبت إليه ، وسألته عن المصلحة التى عينت فيها ، فأرشدنى إلى طريق يجرى كشريان فى بطن الصحراء ، فسألته :

ـــ مسافة طويلة ؟

فقال فى ثقة :

ـــ بضع دقائق .

وسرت حتى قطعت الطريق الممهدة ، ثم طفقت قدماى تغوصان فى الرمال ، ولاح لعينى فضاء عريض ، يسيطر عليه سكون جليل ، فأخذت أملأ صدرى بالهواء ، وأزفر فى هدوء ، ورحت أصفر فى نشاط ، وأدندن فى سرور ، وتوهج قرص الشمس ، فجعلت أرقب الألوان القرمزية والذهبية

التى انداحت فى رقعة السماء فى روعة وجمال ، فربا سرورى ، وأحسست برغبة فى القفز والعدو لأنفس عن الإحساسات العذبة المذخورة فى صدرى ، فانطلقت أعدو ، فلما انبهرت أنفاسى ، توقفت حتى أستريح ، ثم رحت أعدو فى الفضاء .

وبعثت الشمس أشعتها الأولى إلى الأرض ، فبدت الصحراء كأنما فرشت ببساط من النور ، ولاح لى على البعد بناية قائمة فى جوف الصحراء ، فجعلتها هدفى ، ورحت أطوى الأرض ، وتصرمت ساعة وبعض ساعة ، وما بلغت الهدف . وتذكرت ذلك الجندى وهو يقول : « بضع دقائق » فابتسمت ، فما كان فى الوجود من شيء يعكر صفوى فى تلك اللحظة .

وصك أذنى نباح كلب ، فأحسست راحة ، أيقنت أنى دنوت من هدفى ، ولكن سرعان ما فرت تلك الطمأنينة ، وحل رعب وفزع ، فقد لمحت كلبين كبيرين قذرين يعدوان نحوى ، وينبحان فى زمجرة وغضب ، فانخلع قلبى ، وأغذذت السير ، وتلفت مذعورا ، ثم هرولت ، ودنا الكلبان منى ، فعدوت عدوا . ورأيت تراما مقبلا يخترق الصحراء ، فأطلقت ساقى لريح ، وظلت المطاردة مدة حتى قفزت فى الترام ، وأحد الكلبين يحاول أن ينهش كعب حذائى .

جلست مبهور النفس ، يتفصد منى العرق ، ولا يكاد قلبى يستقر فى جوفى ، ونظرت إلى الكلبين اللذين كانا يجدان فى أثر الترام ، فمشت قشعريرة فى بدنى ، وأخرجت منديلا ، وأخذت أجفف به عرقى ، ثم تذكرت الرسالة العزيزة التى فى جيبى ، فتحسستها ، فلما ألفيتها فى مكانها هدأت نفسى . وأخرجتها فى حذر ، ونشرتها أمام عينى ، وقرأتها ، فنسيت ما صادفنى من متاعب ، وعادت إلى نشوتى واطمئنانى .

وبلغت المصلحة فى أمان ، وسألت أول من قابلت عما أفعل ، فأشار على بأن أقدم نفسى إلى حضرة كبير الكتاب ، وأرشدنى إلى مكتبه ، فانطلقت إلى هناك ، فألفيت كهلا قصيرا لا يبعث مظهره على الاحترام ، فاقتربت منه ، وقد انتشرت فى صدرى إحساسات خوف واضطراب ، وألقيت عليه السلام بصوت مبحوح ، فنظر إلى الرجل فى عدم اكتراث ، فقدمت إليه الرسالة العزيزة ، فتناولها منى وقرأها ، فلما انتهى منها جعل يتفحصنى ، فشعرت بانقباض ، وقال لى وقد رفت على شفتيه ابتسامة لم أرتح لها :

ــ حضرتك مترجم ؟!

ضايقتنى ابتسامته ، فاحتبست الكلمات فى حلقى ، فلم أجبه ، والظاهر أنه لم يكن ينتظر إجابتى ، فقد استطرد :

ــ وماذا تترجم ؟

فقلت له فى صوت خافت :

ــ أى شىء ..

فقال فى إنكار :

ــ الأمر هنا يختلف . المترجم عندنا يحتاج إلى إلمام بالمصطحات الفنية الكثيرة المستعملة بمصلحتنا ، ولقد عهدت بأعمال الترجمة اليسيرة إلى بعض الممتازين من موظفينا . فأخفقوا جميعا ، فاضطررت إلى أن أقوم بالترجمة وحدى ، إننى المترجم الوحيد فى هذه المصلحة .

أحسست جفافا فى حلقى ، و لم أنبس بكلمة ، وإن كان صدرى قد صار مسرحا لإحساسات كثيرة ، وقال كبير الكتاب يؤكد حديثه :

ــ الترجمة خبرة قبل كل شىء ، وأحسب أنك لن تنجح وعلى كل حال فلننتظر حتى يحضر المدير ، ويبت فى الموضوع .

وسكت ، واستأنف عمله فى هدوء ، وتركنى واقفا أتميز غيظا . كانت مقابلته لى جافة ، وما دار بخلدى أن أقابل بمثل تلك الجفوة أبدا ، اعتدت أن أقابل فى الكلية أساتذة مبجلين ، كنت أجد منهم رحابة صدر ، ودماثة خلق ، ورقة وكياسة ، فإذا بى اليوم أقابل أول ما أقابل جلفا ، يمتاز عن السوقى بوقاحته وقلة ذوقه ، وبقيت واقفا مدة ، وقد فار دمى فى عروقى ، وكدت أنفجر فيه أكثر من مرة ، ولكننى تجملت بالصبر ، وأخيرا تعطف حضرته وقال لى :

— اجلس حتي يحضر حضرة المدير .

فجلست منقبض الصدر ، وصعد الدم حارا إلى وجهى ، وتقضى الوقت بطيئا ثقيلا ، وأخذت أفكر فيما قاله لى ، فربا ضيقى ، ترى ما الذى جعله يجزم بعدم كفايتى فى الترجمة ؟ أقرأ ذلك فى وجهى ، أم أن صغر سنى جعله يستخف بى ؟! وتململت كثيرا ، وساد الغرفة سكون بغيض ، وأخيرا جاء المدير ، فأصلح حضرة كبير الكتاب هندامه ، ثم وضع طربوشه فوق رأسه فى عناية ، والتفت إلى وقال فى غلظة جندى يقتاد مجرما :

— تعال .

فقمت ، وسرت خلفه ، فدخلنا إلى غرفة فاخرة الرياش ، ورأيت رجلا عليه مهابة ، جالسا خلف مكتب ، فحييته من بعيد ، وتقدم حضرة كبير الكتاب ، وانثنى كقوس ، وقدم الرسالة فى احترام ، فما أن انتهى المدير من قراءتها حتى مد يده مصافحا ، وقال :

— مبارك يا بنى ، أرجو أن تجد عندنا كل راحة . أنشأنا مكتبا جديدا للترجمة ، وأنت أول من عين فيه ، فأرجو أن يوفقك الله فى عملك .

ونزل كلام المدير على قلبى بردا وسلاما ، فهدأت نفسى ، وبان الدهش

فى وجه كبير الكتاب ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، والتفت إليه المدير وقال له :

ـــ أرسل حضرته إلى مكتب عبد الفتاح أفندى ، ليتسلم عمله .

فقال كبير الكتاب فى تأدب ظاهر وهو ينحنى :

ـــ حاضر يا أفندم .

وخرجنا ، وفى وجه كبير الكتاب ضيق ؛ كان يلوح عليه عدم الرضا عن ذلك التعيين ، ونادى فراشا واقفا بالباب ، وقال له :

ـــ خذ الأفندى إلى مكتب عبد الفتاح أفندى .

وناولنى رسالة التعيين ، فسرت خلف الرجل فى ممار ضيقة ، حتى بلغنا حجرة متواضعة ، فدخل الرجل ، فدخلت خلفه ، ووقفنا أمام شاب بدين طويل ، كان يكتب فى أوراق مبعثرة فوق مكتبه ، فلما أحس بنا رفع رأسه ، وقال فى صوت غليظ منبعث من حنجرته :

ـــ خيرا .

فقدمت إليه الرسالة ، فلما فرغ من تلاوتها ، قال لى :

ـــ تسمح تنتظر فى الخارج قليلا .

فتركت الغرفة ، وانتظرت فى الخارج ، وصك أذنى صوت عبد الفتاح أفندى ، وهو يتحدث فى التليفون بصوت عال :

ـــ يا أفندم أنا طلبت مترجما له خبرة ، لا شابا حديث التخرج لا خبرة له .

فنزل بى هم ثقيل ، واعترانى ضيق ، وأحسست كأن الأرض تدور بى ، لقد طعنت فى كرامتى فى ذلك الصباح أكثر من مرة . ما بال هؤلاء الأجلاف يغزوننى غزوا لا مبرر له . ويقدمون السيئة قبل الحسنة ؟ إنى لم أترجم شيئا بعد ، و لم يظهر تقصيرى حتى أستحق كل ذلك . كان هجوم كلاب الصباح على أخف وقعا على نفسى من هجوم هؤلاء الظالمين . فكرت أن أترك ذلك

المكان البغيض . وأن أعود من حيث جئت.وهممت بالسير ، وقد طأطأت بصرى ، وأحسست جفافا فى حلقى ، وشعرت بدمعة حائرة فى عينى :

وفتح باب المكتب ، وخرج منه شاب أسمر ، يرتدى ملابس سوداء ، ومد يده إلى نظارته وأصلحها فوق أنفه ، والتفت إلىّ وابتسم ، فظهرت أسنانه المقوسة الصفراء ، وقال :

— حضرتك الموظف الجديد ؟

— نعم .

— أنا زميلك فى المكتب .

— أهلا وسهلا .

ومد يده فى جيبه ، وأخرج لفيفة ، وقدمها إلىّ ، وقال :

— تفضل .

— أشكر لك ، إنى لا أدخن .

وبدأت نفسى تصفو ، وأقبلت عليه أحادثه ، فقال لى :

— حضرتك متخرج فى الجامعة ؟

— نعم .

فسكت قليلا ثم قال :

— الترجمة ليست بالمؤهلات ، الترجمة خبرة .

فسكت ، واعترانى وجوم ، حتى ذلك الزميل الذى حسبته أول الأمر ظريفا يحاول أن ينال منى دون سبب ، وأن يطعننى بلا مبرر ، واستأنف :

— العمل فى الحكومة لا يحتاج إلى مؤهلات ، إنه مسألة دراية وخبرة ، إننى ..

ودق جرس كان مثبتا عند الباب ، فاعتدل الزميل ، ودخل الغرفة

مهرولا ، ثم عاد وقال لى :

ـــ تفضل .

دخلت ، ووقفت أمام عبد الفتاح أفندى مطرقا ، فقد عرفت رأيه فى ، قبل أن أبدأ العمل ، وجعل يحدثنى وأنا أنصت إليه ، دون أن أرفع وجهى ، قال :

ـــ جاءنى قبلك زميل من زملائك الجامعيين ، وكلفته ترجمة بعض قطع صغيرة ، فلم يوفق فى ترجمتها ، فنقلته إلى مكتب آخر ، وسنرى الآن ما تستطيع أن تفعل .

لم ترتح نفسى إلى ذلك الحديث ، فانقبضت ، ولكن لم يكن أمامى إلا الصبر ، وتجرع كل هذه المنغصات دون تبرم ، وقدم إلى كتابا مفتوحا ، وقال لى :

ـــ ترجم هذا الفصل .

تناولت الكتاب ، ووقفت حائرا لا أدرى أين أجلس ، وفطن إلى حيرتى ، فأشار إلى نضد صغير ، يستعمل فى وضع الآلة الكاتبة عليه ، وقال :

ـــ اجلس هنا .

جلست على مقعد خشبى أمام ذلك النضد الصغير ، فأصبح وجهى إلى الحائط ، وطلبت ورقا ، فناولنى زميلى فى المكتب بعض وريقات ، وهو يبتسم ابتسامة صفراء ، فهمت ما ترمى إليه ؛ خيل إلى أنها تصيح بى مستهزئة : « سنرى الآن ما تستطيع الجامعة أن تقدم » . وشعرت بأنى طالب صغير ، أمام لجنة امتحان قاسية لا ترحم ، فمشت فى بدنى رعدة ، وسرعان ما جمعت أطراف نفسى التى ذهبت شعاعا أمام تلك الإهانات المتكررة ، وملكت أعصابى ، وقرأت ما طلب منى ترجمته ، فألفيته سهلا لا يحتاج إلى خبرة

أو دراية ، وبدأت الترجمة ، ووطنت العزم على أن أنهج نهج كتاب الأساليب الرنانة ، الذين يلجئون عامدين إلى الألفاظ الضخمة ، والجمل المحفوظة الفخمة الطنانة ، ليدخلوا فى روع قرائهم أنهم من أئمة الكتاب ، الذين يملكون ناصية البيان ، فجعلت أنمق الأسلوب ، وأنتقى الألفاظ الغريبة ، لتكون شاهدا على علو كعبى فى الكتابة !

وانقضت ساعة ، فأنهيت ما عهد إلى فى ترجمته ، ودفعت به إلى عبد الفتاح أفندى ، فجعل يقرؤه ، وأخذت أرقب أساريره ، لأستشف أثر الترجمة فى نفسه ، فتيقنت قبل أن ينطق ، أن الديباجة المشرقة عملت عملها ، ولما انتهى من القراءة التفت إلى وقال :

— لا بأس :

وكأنما ساءه أن أوفق فى الترجمة ، ففتح مكتبه ، وأخرج نموذجا كبيرا قدمه إلى ، وطلب منى ترجمته . قرأت ذلك النموذج ، لم أفهم منه شيئا ، كان مجموعة من الاصطلاحات الفنية الدقيقة ، فوضعته أمامى ، وقرأته مرات ، ثم أمسكت القلم ، ولكن أغلق على . أحسست كأن الدنيا ضاقت فى وجهى . وفتح الباب ، ودخل رجل إنجليزى ، واتجه إلى مكتب تكدست فوقه أضابير عدة وجلس ، فخف إليه زميل المكتب ، ووقف أمامه فى أدب ، وأخرج الرجل الإنجليزى سيجارا من جيبه ، ووضعه فى فمه ، وما أسرع ما أخرج الزميل علبة الثقاب ، وأشعل عودا ، وانحنى يشعل السيجار ، وهمس الرجل بكلمة لم أتبينها ، فهرع الزميل وفتح باب المكتب وقال بصوت عال :

— قهوة لمستر جيمس حالا .

ونهض عبد الفتاح أفندى ، وقال للزميل ، وهو يغادر الغرفة :

— إنى ذاهب إلى مكتب المدير ، وسأعود بعد قليل يا شكرى أفندى .

ــ حاضر يا سعادة البك .

ووقف شكرى أفندى بجوار مستر جيمس ، وانطبعت على شفتيه ابتسامة تملق ورياء . وهو يرقب حركات الرجل الإنجليزى فى انتباه ، فإذا مد يده ليأخذ ملفا من الملفات ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى أفندى إلى الملف وتقدمه فى لياقة ولباقة ، وإذا أخرج محبرته ليملأ القلم ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى إلى المحبرة وتنزع غطاءها ، ثم يأخذ القلم ويملأه وينظفه ، ولولا الملامة لأخرج منديله المتدلى من جيب سترته ، ونظف به سن القلم العزيز مما لصق به من حبر .

ونظر إلىّ مستر جيمس طويلا ، كأنما كان يستفسر عن ذلك الدخيل الذى أقبل إلى المكتب دون أن يقدم نفسه إليه ، وفطن شكرى إلى نظراته ، فقال له :

ــ إنه موظف جديد .

والتفت إلى وقال :

ــ تعال أقدمك إلى مستر جيمس ؟

تركت النموذج الذى حيرنى ، واتجهت إلى حيث كانا ، فأخذ الرجل يحادثنى فى تحفظ ، ثم قال لشكرى :

ــ أره الملفات ، ونظام حفظها ، لعله يستطيع أن يساعدك . أحسست هوانا ، فما جئت لأحفظ ملفات ، إنى فهمت من مدير المصلحة أنى قادم لأنشىء قسما للترجمة ، وكنت أحسب الأمور سهلة هينة ، فإذا بى أجد أناسا لا يودون احترامى ، أو الاعتراف بتعيينى .

وخرج مستر جيمس ، وطفق شكرى بعرض على الملفات ، وهو يردد بين كل جملة وأخرى :

وأخرى :

ـــ الحكومة ليست فى حاجة إلى مؤهلات ، العبرة كل العبرة بالخبرة .

وأيقنت من حديثهم أنهم لا يحقدون على ، بل يحقدون على مؤهلاتى ، إنهم يحاولون الغض من شهادتى الجامعية ، ويتحدثون عنها كأنها وصمة ، ودليل على عدم الخبرة ، فعزمت فى نفسى أمرا .

وانتهى اليوم الأول بخيره وشره ، وأزف ميعاد الانصراف ، فأقبلت سيارة حكومية ، ووقفت عند باب المكتب ، وفتح الباب ، وظهر عنده مستر جيمس ، فأسرع شكرى وحمل حقيبة كبيرة بها أوراق كثيرة ، فحسبتها فى أول الأمر حقيبته ، وإذا بمستر جيمس يمد يده ليتناولها ، ولكن شكرى أصر على أن يحملها حتى السيارة ، ووضعها بجوار السائق ، ووقف بعيدا ، وقد رفت على شفتيه ابتسامة ذليلة ، ركب مستر جيمس ، وأشار لشكرى بالركوب ، فأسرع وركب بجوار السائق مسرورا .

شعرت بضيق ، وتيقنت أنى لن أسيغ العيش بين هؤلاء الممثلين ، وخفضت بصرى فى استسلام حزين ، ثم نظرت إلى النضد المتواضع الذى خصص لى ، فوقعت عيناى على النموذج الذى أخفقت فى ترجمته ، فانقبض صدرى ، وخيمت على نفسى سحابة كدر ، وأحسست أن كبريائى تثور ، فما كنت أريد أن أخفق أمام هؤلاء التافهين المتعجرفين ، وخطر لى أن آخذ النموذج معى ، وألا أعود إلى العمل إلا بعد أن أترجمه كما أحب وأشتهى . وتناولت النموذج ، وخرجت وحيدا أضرب فى الطريق الطويلة الموصلة إلى الترام .

وذهبت إلى مكتبات القاهرة ، أبحث وأنقب ، حتى اهتديت إلى دليل إنجليزى يشرح دقائق الفن الذى عهد إلى أن أترجم مصطلحاته فاشتريته ،

وعدت إلى دارى ، وأخذت أقرأ فى ذلك الدليل ، وتقضت ساعات ، وأنا مكب على القراءة والدرس ، وراحت الساعات تمر ، ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ، وما ترجمت من النموذج حرفا ، ولكنى كنت أوقن فى قرارة نفسى أنى سأتمكن من ترجمته قبل أن أدخل فراشى .

وبدأت الترجمة ، فألفيت نفسى منطلقا فيها ، وما دقت الساعة الثانية عشرة حتى كنت قد أنجزت كل شيء على ما أشتهى ، وهممت بالنهوض لأنام ، ولكن خطر لى أن أقرأ باب الملفات وطرق حفظها ، حتى أفحم شكرى أفندى الذى تعالى على اليوم ، بل خطر لى أن أتحدى المستر جيمس ، وتناولت كتابا إنجليزيا فى الحفظ وطرقه ، ورحت أقرؤه ، وأدون ملاحظاتى ، فلما دقت الواحدة ، ذهبت إلى فراشى لأنام ، وأنا مطمئن النفس ، فلن يسخر منى عبد الفتاح أفندى ، ولن يشمت فى شكرى . ولن يتعالى على بعد اليوم المستر جيمس .

وحاولت النوم ، ولكن لم أذق طعم الغمض ، رأيت بعين خيالى ما مر بى فى ذلك اليوم ، فاهتديت إلى أن مسالمة هؤلاء الناس لن تجلب لى إلا الهوان ، فالناس جميعا لا يقيمون وزنا للوديع المسالم ، ولكنهم يهابون المشاكس الذى لا يحجم عن مناوأتهم ، والنيل منهم ، يعملون له ألف حساب ، فعزمت على أن أناوئهم جميعا ، وأن أشعرهم بأننى لست سهل الازدراد .

وأصبح الصباح ، فخرجت إلى العمل ، ولم تكن نفسى صافية صفاء الأمس ، كنت بالأمس أحسب أنى ذاهب إلى حيث أجد رفاقا رحماء بينهم ، وإذا بى اليوم أنطلق وأنا أعلم أنى ذاهب إلى أناس محدودى الآفاق ، همهم الأول تنغيصى ؛ والغض من شأنى ، والاستعلاء على ، وإيهامى أن المؤهلات وصمة ينبغى ألا يوصم بها ذوو الخبرة والكفايات ! كانت الطريق هادئة

موحشة ، فزادت فى وحشتى ، وكانت المصابيح خامدة هامدة ، تلفظ آخر أنفاسها قبل طلوع النهار ، فكانت تطفئ روحى ، وأقبل الترام فصعدت فى تكاسل وتراخ ، وأدرت عينى فى الركاب ، فألفيتهم جميعا من رفيقى الحال ، الذين هجروا فراشهم الدفئ فى البكور ، ليكدحوا من الصباح إلى المساء لقاء لقمات ، كان البؤس مرتسما على محياهم ، ولأول مرة أحسست أنى واحد من هؤلاء البائسين ، فما اضطرنى إلى الخروج فى الصباح الباكر ، واحتمال سخافات الناس إلا الطعام ، فانقبض صدرى ، وشعرت بغصة فى حلقى ، وتضاءلت نفسى فى عينى .

وبلغت المكتب مبكرا ، فقد عرفت أن هناك تراما يصل إلى المصلحة ، وأن لا ضرورة لاختراق الصحراء سيرا على الأقدام ، وأخذت أقلب الملفات ، فوجدتها لا تسير على نظام من النظم العلمية المعروفة ، فأخذت أتذكر ما قرأته فى أمسى عن « طرق الحفظ » . وفتح الباب ، وأقبل شكرى أفندى ، وسلم على ، وقبل أن يتحدث عن الأقدمية والخبرة ، وأثرهما فى الحكومة ، سألته :

— من وضع نظام الحفظ هذا ؟

— مستر جيمس .

فقلت فى لهجة الواثق الخبير :

— خطأ .. هذا نظام خاطىء لا يستند على أساس .

فنظر إلى ، وفغر فاه كأنما قلت عجبا ، وظل ينظر إلى فى دهش فما كان يصدق أن يجرؤ موظف ليس له فى خدمة الحكومة أكثر من أربع وعشرين ساعة على تخطئة مستر جيمس ، وجاء مستر جيمس ، فحيانا بإيماءة خفيفة من رأسه ، وجلس إلى مكتبه ، ونظر شكرى إلى ولسان حاله

يقول : « قل له ذلك إن كان عندك شجاعة » فلم أنتظر ، وتقدمت إلى جيمس ، وقلت له دون تمهيد أو مقدمات :

ـــ اطلعت على نظام الملفات فى هذا المكتب ، فوجدته نظاما خاطئا .

فرمقنى الرجل فى دهش وقال :

ـــ كيف ؟

ـــ إنه لا يسير على طريقة عملية من طرق الحفظ ، فللحفظ طرق ثلاث .

وطفقت أسرد فى طلاقة ما استذكرته فى أمسى ، فبان فى وجه الرجل حيرة وارتباك ، وظل ينصت إلى دون أن يقاطعنى . فلما انتهيت من محاضراتى ، نهض وغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة .

وأقبل شكرى علىّ يحادثنى فى تحفظ ، وقد خفف من غلوائه ، وفقد ثقته فى نفسه ، فلم يتكلم بأسلوب الواثق ، وفطنت إلى أن شخصيته تضاءلت وانكمشت ، فسرت فى صدرى ابتسامة هازئة .

وأخذت أرقب إقبال عبد الفتاح أفندى ، ومر بعض الوقت ، وجاء يتهادى بجسمه الضخم ، وما إن جلس إلى مكتبه حتى ذهبت إليه وقدمت له ترجمة النموذج ، فجعل يقرؤه فى إمعان فلما انتهى منه ، التفت إلى وقال :

ـــ عال . أظن أنك تعبت فى ترجمته .

فقلت فى عدم اكتراث :

ـــ أبدا ما أيسر الترجمة .

ـــ ومن أين لك معرفة هذه المصطحات ؟

ـــ مرت على من كثرة الاطلاع ، إنى أقرأ كثيرا .

ويعلم الله أنى لم أكن أعرف قبل أمسى كلمة واحدة من تلك المصطحات الغريبة ، ويعلم الله أنى ما كنت أرغب فى الكذب ، لولا أن هذه هى الطريق

الوحيدة التى تضمن لى العيش بين هؤلاء المتعالين التافهين .

وجيء بمكتب لى ، ووضع بجوار مكتب مستر جيمس ، فرحت أعمل هادئ النفس ، وجعلت أختلس النظر إلى شكرى بين وقت وآخر ، فأجده مطرقا مهموما ، فأبتسم فى شماتة ، فقد أرضانى قهرى إياهم جميعا فى ذلك اليوم ، وانتقامى لما نالنى على أيديهم فى أمسى الذى لن أنساه ما حييت .

وخرج عبد الفتاح أفندى ، وتركنى وشكرى ، فدنا شكرى منى وقال فى تملق ظاهر :

ـــ أتعرف أن عبد الفتاح أفندى حاول أن يترجم ذلك النموذج من شهور ، ولكنه لم يفلح ؟!

فانشرح صدرى ، لا لأن عبد الفتاح أفندى أخفق فى ترجمة النموذج ، بل لأن تملق شكرى لى دليل على أننى ملأت مكانى أسرع مما كنت أقدر ، وجاء مستر جيمس ، وما إن وقعت عيناه على حتى قال :

ـــ إن طريقة الحفظ التى نتبعها هنا من وضع الوزارة ولا يمكن تبديلها .

ووأدت بسمة ودت أن ترتسم على شفتى ، فما أسرع ما أعلن الرجل الهزيمة ، وانقضى اليوم ، ووافى ميعاد الانصراف ، وجاء مستر جيمس فى سيارته ، وفتح باب المكتب وقال لى :

ـــ حقيبتى من فضلك .

لم أتحرك من مقعدى وإن ثار دمى فى عروقى ، فقد شعرت أن فى طلبه إهدارا لكرامتى ، فما جئت لأحمل حقيبته ، ونظرت اليه شزرا ، وسرعان ما هرع شكرى إلى الحقيبة ، وحملها فى سرور ، وانطلق إلى السيارة فى خفة فوضعها ، ثم قفز إلى جوار السائق ، ولم يلتفت إلى حتى لا يرى فى عينى نظرات الحسد ، فقد كان يحسب أنى أحسده على مركزه الممتاز .

ومرت الأيام ، واعتدت إنجاز العمل الرتيب التافه ، واعتدت سماع تفاهات شكرى أفندى فى عدم مبالاة ، وفى يوم دق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، فإذا بصوت نسوى رقيق يطلب مستر جيمس ، قلت إنه غير موجود الآن ، ولما وضعت السماعة ، ألفيت مستر جيمس يقبل نحوى : ويقول فى حدة :

— كيف تقول إنى غير موجود وأنا فى انتظار هذه المكالمة ؟!

فقلت فى برود :

— لم تكن على مكتبك .

— ولكن شكرى أفندى يبحث عنى دائما إذا ما طلبنى أحد .

فأحسست كبريائى تدمى ، فقلت فى غضب :

— شكرى أفندى شىء ، وأنا شىء آخر .

وسكت مستر جيمس وهو مقهور ، وذهبت إلى مكتبى وصدرى مسرح لإحساسات متباينة ، وفيما أنا غارق فى أفكارى ، أقبل علىّ فراش يستدعينى لمقابلة كبير الكتاب ، فذهبت إليه وأنا حانق ، فما كنت أحب مقابلته ، ولكن ما إن وصلت إليه حتى قدم إلى كرسيا وأكرمنى ، وسألنى أن أترجم له بعض فقرات فنية عجز عن ترجمتها .

تناولت ورقة ، وترجمت ما طلب منى على عجل ، وتركت له المسودة متعمدا ، لأشعره أننى لست عاجزا مثله لأسود مرات ما أترجمه ، ولم أنتظر منه حتى يقرأ الترجمة ، وتحركت لأعود إلى مكتبى وسرت خطوات ، وسمعت صوته ينادينى ، فعدت إليه ، فسألنى عن معنى كلمة عربية سهلة ، فابتسمت فى إشفاق ، وعرفته معناها ، وعدت إلى مكتبى ، وقد تبخر غضبى ، وسرى فى صدرى إحساس سعيد ، شعرت أننى انتقمت لكبريائى

التى جرحها حضرة كبير الكتاب يوم جئت إلى مكتبه أول مرة .

وفى يوم أخذ شكرى أفندى يكتب على الآلة الكاتبة تقريرا كتبه مستر جيمس ، فتناولت نسخة من التقرير وقرأته ، فألفيت به عدة أخطاء ، كان مستر جيمس لا يحسن استعمال حروف الجر والأفعال ، فتناولت قلما ، وأخذت أصوب له الأخطاء ، فثار شكرى أفندى ، وأرغى وأزبد ، واتهمنى بالغرور ، فكيف يصحح مصرى أسلوب رجل إنجليزى يكتب بلغته ؟!

وراح يرصد قدوم مستر جيمس متلهفا ، فلما لمحه قادما إلى مكتبه هرع إليه ، وقدم إليه النسخة التى أجريت فيها قلمى ، فلما رأى جيمس ما فعلته ، احمر وجهه وضاقت عيناه ، وظهر عليه الغضب والحنق ، وغمغم بكلمات ، فأرهفت سمعى ، كانت سبابا ولا شك ، ولكنى لم ألتقط منها إلا هذه العبارة :

ــ هذا عبث أطفال ، أصبح هذا المكتب لا يطاق .

وتناول التقرير ثائرا ، وألقى بالمسودة التى شرحتها بقلمى ، وخرج بالتقرير ليرفعه إلى رئيسه الإنجليزى .

وغاب مستر جيمس ، وراح شكرى أفندى يرنو إلىّ فى شماتة ، ولسان حاله يقهقه سخرية من ذلك المغرور الذى أورده غروره موارد الهلاك . كان يعجب فى نفسه كيف أن مستر جيمس أطاقنى فى هذا المكتب إلى هذا الوقت ، وكنت أنا نفسى أعجب من ذلك ، ولكنى لم أكن آبه أن أعمل فى ذلك المكتب أو فى سواه .

وعاد مستر جيمس ، وما أن رأيت وجهه حتى رأيت فيه ذلة الانكسار ؟ تقدم منى ، ووضع أمامى التقرير وهو يبتسم ابتسامة مريرة ، فجرى نظرى سريعا على التقرير ، فألفيت رئيسه قد صوب له بالمداد الأحمر جميع الأخطاء

التى أصلحتها وأثارت غضبه ، فرفعت نظرى إليه ، وأنا أحس إشفاقا ، وكبت مشاعرى ، وحاولت أن أبدو هادئا حتى لا أجرح شعوره ، ولكنه ابتسم ابتسامة عريضة ، فرحت أهون عليه الأمر ، وبدأت صداقتنا .

ودق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، وإذا بالصوت النسوى الرقيق يسأل عن جيمس ، فالتفت إليه وقلت له :

— يطلبونك .

— من ؟

— لا أدرى ، صوت ناعم .

فابتسم وقال :

— إنها جان .

ولما انتهت محادثته ، قال لى فى غبطة :

— ما ألطفها .

فتغابيت وقلت له :

— من ؟

— جان ، إنها تدعونى للخروج اليوم .

وراح يقص على قصة جان .

وفى ذات يوم أخذت أنا وجيمس ننسق طلبات المصلحة من الخامات والأجهزة ، فألفيته يوصى بشرائها من إنجلترا ، فقلت إننا نستطيع أن نشترى أغلب هذه الأصناف من السوق المحلية ، فنوفر جهودا ووقتا ، ولكنه راح يقنعنى أن من الأصلح أن نشترى كل شىء من إنجلترا ، ولم أقتنع ، وما كان اقتناعى ليقدم الموضوع أو يؤخره ، فقد كان كل شىء فى ذلك الوقت فى أيديهم .

وفى يوم لن أنساه ، أقبل عامل يعرض على آلة من الآلات التى نشتريها بكثرة من إنجلترا ، وقال لى إنه صنعها بيديه وجربها ، فكانت نتائجها تضاهى نتائج الآلات البريطانية ، فهزنى السرور ، ووعدته بأننى سأبذل كل جهدى لعرض آلته على الرؤساء ، ليكافئوه تشجيعا له ، وكنت آمل أن تكون المكافأة سخية ، ليكون ذلك حافزا لزملائه على أن يقتدوا به .

وأخذت العامل ، وأدخلته على رئيسنا ، وعرضنا عليه الجهاز ، فأظهر سروره ، وقال لى :

ـــ اعرض الموضوع على مستر جيمس .

وذهبت إلى مستر جيمس ، وما شرحت له الموضوع حتى ظهر على وجهه ما يعتمل فى صدره من غيظ ، وقال لى فى حدة :

ـــ سله ، هل فعل بعض أجزاء هذه الآلة فى المصلحة ؟ فسألته ، فقال لى إنه اضطر إلى استخدام حوض الزيت لتقوية المعدن لأنه لا يملك فى منزله حوضا .

فقال لى مستر جيمس :

ـــ سله ، فى أى درجة من درجات الحرارة يتحول الحديد إلى صلب ؟

وراح مستر جيمس يسأل العامل أسئلة دقيقة حتى أحرجه ثم قال فى لهجته الغاضبة :

ـــ هذا عبث ، إنه يضيع وقته فى صنع ما لا طائل تحته ، إنه لا ينتج للمصلحة شيئا ، سيكون أسوة سيئة لإخوانه ، أرى أن يخصم منه ثلاثة أيام .

فار دمى فى عروقى ، فذهبت إلى رئيسنا المصرى ، وعرضت عليه الأمر ، فقلت له إن مستر جيمس يسوءه أن ينجح عامل مصرى ، وإننى أرى عرض الأمر على الرؤساء ؟ ولكن رئيسى أطرق و لم يجب ، ففهمت أنه لا يريد أن

يعادى مستر جيمس .

وخرج العامل يحمل الجهاز الذى صنعه وهو يحمد الله على أنه قد نجا من خصم الأيام الثلاثة ، فقد عارضت مستر جيمس فى ذلك الخصم ، وجلست مهموما ، وإذا بمستر جيمس يدعونى إلى مكتبه ، ويقول لى فى رقة :

ــ حرام أن تشجع مثل ذلك العامل .

فنظرت إليه فى دهش ، وقلت له ؟

ــ لماذا ؟

ــ ستضره ، ستملؤه غرورا ، وتقضى عليه ، إنه لا يصلح لشىء .

فقلت فى غضب :

ــ إنك استعمارى قح يا جيمس .

ــ أبدا .

ــ لا تعمل إلا لمصلحة بلادك ، وإن ضحيت بمصالح بلادنا .

ــ هذا قول هراء .

ــ لماذا تتنصل من ذلك ؟ كلنا يحب وطنه .

فقال فى هدوء عجيب :

ــ الوطن يا عزيزى لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .

ــ لا يا جيمس ، حب الوطن غريزة ركبت فينا .

ــ غريزة بدائية .

ــ الطير يحن إلى عشه ، والمرء يهفو إلى أرض منبته .

ــ ذلك من ضيق الأفق . لم لا نجعل الدنيا كلها وطننا ؟! إن مصر وطنى ما دمت أجد فيها السعادة والهناءة .

ــ هذا كلام .

— ماذا يهمنى من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضيرنى لو أن أستراليا انفصلت عنا ، ولو أن الهند استقلت و لم تصبح من ممتلكات التاج ؟

— هذه سفسطة يا جيمس .

— إن ما أقوله هو ما أعتقده .

— مثلك يا جيمس مثل الأب الذى لا يحس أية عاطفة نحو أبنائه ما داموا معافين ، فإذا ما تعرضوا لخطر ، شعر بالقلق والفزع والهول .

— دعك من فلسفتك ، قلت لك إنه لا يهمنى أمر إنجلترا ما دمت سعيدا .

— وما دامت جان بجانبك .

فابتسم وقال :

— وما دامت جان بجانبى .

— هذه أنانية يا جيمس ، لو صدقت فى قولك .

— فسرها كما يحلو لك .

ومرت أيام وأعلنت الحرب ، وراحت ألمانيا تلتهم أوربة قطعة قطعة ، فما تبدل جيمس ، وما تحدث عن الحرب أبدا ، كأنما كان الأمر لا يعنيه ، وابتلعت ألمانيا أوربة جميعها ، وتأهبت لتأكل بريطانيا ، وبدأت المعركة الرهيبة ، وباتت إنجلترا فى خطر داهم .

وفى ذات يوم جاء جيمس عابس الوجه ، وفى عينيه عزم ، فلما رأيته أنكرته ، وقلت له :

— ما بك ؟

— سأسافر .

— إلى أين ؟

— إلى إنجلترا .

ــ وما تفعل ؟

ــ الوطن ينادينا .

ــ الوطن يا عزيزى لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .

ــ بالله لا تسخر ، إنى حزين .

واسترسلت فى حديثى :

ــ ما يهمك من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضيرك لو أن أستراليا قد انفصلت عنكم ، أو أن الهند استقلت و لم تصبح من ممتلكات التاج ؟

ــ كفى أرجوك .

ــ ومتى تسافر ؟

ــ قريبا .

ــ وجان ؟

ــ إنها تشتغل بالتمريض ، وتقوم بواجبها هنا .

وسافر جيمس وما ودع أحدا ، ومرت الشهور تتلوها الشهور ، وغمرتنا الحياة ، فنسينا جيمس ، وفى يوم من الأيام ورحى الحرب الرهيبة دائرة ، أقبل إلى مكتبنا إنجليزى من أصدقاء جيمس ، فجعلت أحادثه ، ثم سألته فجأة:

ــ أما تبلغك أنباء جيمس ؟

فقال فى صوت خافت :

ــ مات .

ــ كيف ؟

ــ قتل فى إغارة من إغارات الفدائيين على فرنسا

فأطرقت وأنا أفكر فى ذلك الذى أراد أن يوهمنى يوما أن الوطن لفظ أجوف ، وخدعة من خدع الساسة .

غضبة الحريم

فتح الباب الضخم ، ورفعت الستر الفاخرة ، ولاح السلطان فى ثيابه المزركشة بالقصب ، المزدانة باللؤلؤ والزمرد والياقوت ، فانحنى وزيره فى تجلة واحترام ، حتى إذا ما اتخذ السلطان مجلسه ، رفع الوزير رأسه ، وأخذ يعبث بلحيته ، وهم بأن يعرض على السلطان شئون إمبراطوريته المترامية الأطراف ، ولكن السلطان شرد برهة ، ثم ضحك ونهض من مجلسه ، وانطلق إلى الباب الضخم ، فاجتازه إلى الدهليز الطويل ، حتى غاب فى جوف القصر !

امتعض الوزير ، وضرب الأرض برجله فى حنق ، ثم راح يذرع الغرفة الرائعة التى فرشت بطنافس فاخرة ، ونثرت فيها النمارق الجميلة فى ضيق .. فقد تركه السلطان لينطلق إلى الحريم يقص عليهن قصة أسعفته بها ذاكرته الآن بعد أن خانته بالأمس وهو يحاول جاهدا أن يذكرها !

كان السلطان فى خريف عمره ، وقد اشتعلت فى صدره تلك الجذوة التى تتوهج قبل أن تخمد وتصبح رمادا ، فكان يشعر بالنشوة التى يحسها الثمل قبل أن يفقد وعيه .. كان يقضى أوقاته بين النساء والجوارى ، يقطف الورود من الخدود الندية ، ويلثم الشفاه الحلوة المزمومة ، ويمتع عينيه بروائع الحسن والجمال .. وكان احتفاله بنسائه وجواريه ، وإقباله عليهن يضايق الوزير ويحنقه ، فما كان السلطان يقابله إلا للحظة من اللحظات . وحتى فى تلك

اللحظة لم يكن ينصت إليه ، بل كان يشرد بذهنه ، فيضحك لملحة تذكرها ، على حين أن الوزير يعرض عليه أمرا يوجب العبس والتقطيب !

وأخذ الوزير يعبث بلحيته وقد أغمض عينا . وأسبل أخرى فقد كان ينمق مقالا يرجو أن يمس أوتار قلب السلطان ، فيبعده عن حريمه ، ليتفرغ لأمر رعاياه .. وفجأة عاد السلطان متطلق الوجه ، وجلس وهو يضحك ، فراح الوزير يعرض عليه أمور الإمبراطورية الواسعة ، فكان ينصت إليه حينا ، ويتشاغل عنه أحيانا . فتضايق الوزير وجمع أطراف شجاعته ثم قال :

ــ بعض وقتك يا مولاى ؟

ــ ماذا ؟

ــ لو منحتنا بعض وقتك يا مولاى لازددنا رضا على رضا ..

فحدجه السلطان بنظرة فيها بعض الغضب ، فقال الوزير :

ــ نظرة عطف من عينيك الغاليتين تملأ بالطمأنينة القلوب .

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ هل يسمح مولاى أن نجوس خلال الأسواق ، نتفقد أحوال الناس ، ونستمع إليهم ، ونحقق لهم أمانيهم ؟

خفض السلطان بصره ، وقطب جبينه لحظة ، فقد كان يفكر .. ثم رفع رأسه ، وبان الرضا فى صفحة وجهه ، والتفت إلى الوزير وقال :

ــ لنخرج إلى الناس .

وقام من مجلسه ، وهم بالانطلاق صوب الباب الكبير وقال :

ــ سأعود إليك عما قليل .

وابتدأ يتحرك صوب الحريم ، ورأى الوزير أنه لو دخل عليهن لنسى وعده ، فقال فى توسل :

ـــ بالله يا مولاى دع النساء الآن !

فنظر إليه السلطان نظرة مشوبة بغضب ، ما لبث أن زال وحلت محله ابتسامة لطيفة ، فقد كان طيب القلب ، يحب وزيره ويثق به .

* * *

خرجا يجوسان خلال الأسواق متنكرين ، وراح الوزير يقص على السلطان قصصا عن النساء تحط قدرهن ، وتحقر شأنهن ، فقد كان يعمل جاهدا على أن يبغض السلطان فى نسائه وجواريه .. وكان الوزير محدثا لبقا ، وناقدا ساخرا : فنفذ إلى قلب السلطان حديثه ، وما قفلا عائدين إلى القصر حتى وطد السلطان العزم على أن يهجر الحريم ..

وتقضت ليلة ويوم وما طاف السلطان بنسائه كما اعتاد أن يطوف ، فبدا الدهش فى الوجوه ، فما كان يطيق أن تنقضى ساعة وهو عن الحريم بعيد .. ومر اليوم الثانى ، وانقضت الليلة الثانية ولم يزر السلطان نساءه وجواريه ، فنزل بصدورهن هم ثقيل ، وتساءلن فى عجب عما قلب السلطان عليهن !

وانقضى اليوم الثالث فى ترقب ، ومضى من الليلة الثالثة بعضها دون أن يفكر السلطان فى الطواف بهن ، فلم يطقن صبرا . واتجهن إلى سلمى ـــ وكانت أقربهن إلى قلبه ـــ وقلن لها :

ـــ اذهبى يا سلمى إليه ، لترى ماذا جرى !

نهضت سلمى تتأهب للقياه ، فارتدت غلالة رقيقة تفضح تكوينها البديع ، ورجلت شعرها السبط ، وتضمخت بالعطور ، وأسرعت أيدى النسوة إليها تسوى من شعرها المتهدل ، وتعمل على إبراز محاسنها ومفاتنها ، حتى إذا ما انتهت من زينتها انطلقت إليه فى هيئة تفتن العابد فى محرابه .

دخلت عليه فى غرفته ، فألفته ساهما يفكر ، وكانت الشموع تبعث



ضوءها الهادئ ، فتضفى على المكان شاعرية ، وتهيئ مسارح رحبة للخيال ، وتقدمت نحوه فى خفة الطيف ، وارتمت إلى جواره ، ورنت إليه بعينيها النجلاوين ، وغمغمت فى دلال :

ــ مساء الخير يا مولاى ..

فظل السلطان فى تفكيره و لم يلتفت إليها ، فمدت يدها وجعلت تمررها على لحيته فى حنان . فهب من الفراش نافرا ، وانطلق إلى الشباك ، وراح ينظر منه ، فانسابت خلفه وهمست :

ــ انقضت ثلاثة أيام دون أن نجتلى طلعتك ، فلكأنها ثلاثة دهور . ما الذى غير قلبك الرحيم علينا ؟

ــ لا شيء ..

ــ ما كان من طبعك أن تهجرنا الأيام الطوال . بغض العيش وبرد الفراش !

والتصقت به ، فملأت رائحتها خياشيمه ، فتحركت عواطفه التى كان يقاومها ، وقد رنا إليها ، فبهره حسنها ، وكادت مقاومته تنهار ، ولكنه تذكر أقوال الوزير فامتعض ، وخمدت الأحاسيس التى هبت تتصارع فى صدره .. ولمحت سلمى دلائل الامتعاض فى وجهه فقالت :

ــ تبدلت يا مولاى حتى كدت أنكرك .

فغمغم السلطان :

ــ الوزير يا سلمى ..

ــ وماله الوزير ؟

ــ نهانى عنكن ، وبغضنى فى النساء .

فأطرقت سلمى قليلا ، ثم انسحبت تجر أذيال إخفاقها وبدأت أبخرة الحقد

على الوزير تنتشر فى صدرها ، وما بلغت الحريم حتى راحت تقص على النساء النبأ فى غيظ ، فامتلأت صدورهن بالغضب ، وأطرقن يفكرن فى القصاص من الوزير الذى سلبهن السلطان ..

ومرت أيام وهن ينسجن خيوط الانتقام ، ولما اطمأنت قلوبهن إلى ما دبرن انطلقت سلمى إلى السلطان .. كان صافى النفس ، فأقبل عليها يحادثها .. وتشعب الحديث ، فأخذ السلطان يقص عليها أنباء ما يفكر فيه لرفاهية شعبه ، ولما جاء ذكر الوزير أثنى عليه ، فانتهزت سلمى هذه الفرصة وقالت :

ـــ وزيرك يا مولاى يضحى براحته فى سبيلك وسبيل شعبك ، إنه يستحق الخير كله ، لم لا تمنحه منحة ، تقديرا له وتشجيعا ؟!

ـــ وماذا أمنحه يا سلمى وله الحظوة والمال ؟

ـــ أعطه جارية حسناء .. هب له بثينة ، فما عنده مثلها ، ولا رأى قط أجمل منها !

فطأطأ السلطان رأسه قليلا ، ثم قال :

ـــ هدية طيبة ..

* * *

ووهب السلطان بثينة لوزيره ، فلما دخل الوزير عليها فغر فاه ! بشرة ناصعة البياض ، وعينان آسرتان ، وحسن باهر ، وجمال قاهر ، لا يقوى على الصمود أمامه إنسان .. فتقدم وقلبه فى صدره كجناح خافق ، ومد يده إليها ، ولكنها فرت منه فى دلال ، ونفرت فى خفة الغزال ، فابتسم فى اطمئنان ، فلئن نفرت اليوم . فستقبل عليه غدا عارضة الوداد ..

ودخل عليها فى اليوم الثانى ، وأخذ يتودد إليها ، فكانت تصده فى جفاء ،

فتعلق بها ، وكان يزداد شغفا كلما ازدادت صدا .

ومرت الأيام وهي على الصد قائمة ، فتدله بها حبا ، ولم يطق الصبر على ذلك الصد الثقيل ، فأخذ يتوسل إليها أن ترحمه من عذاب الفؤاد ..

وتظاهرت بالعطف ، ورنت إليه بطرف عينها ، فأحس كأن قلبه يذوب وجدا ، فقال :

— بثينة ، كفى صدا !

فقالت :

— أود أن أصدقك ، ولكنى أخشى !

— تخشين ماذا ؟

— أن تلعب بى ..

— أنا عبدك طوع بنانك ..

— وما برهان حبك ؟

— اطلبي روحى أجد لك بها ..

— لا .. سأطلب أمرا هينا .

— ماذا ؟

— غدا إذا صلى الناس العشاء ائتنى ..

ثم أخذت تهمس فى أذنه ، فقطب وجهه قليلا ، ولاحظت تقطيبه ، فقالت :

— ولو فعلت هذا أيقنت من حبك لى ..

فقال فى صوت خفيض :

— إلى الغد بعد العشاء ..

انتهى الناس من صلاة العشاء ، فآب كل إلى داره ، وذهب الوزير إلى

بثينة ، يمنى النفس بالوصال . وانطلقت سلمى إلى السلطان والتمست منه أن ينطلق معها إلى مخدع الوزيز لأمر خطير . ولكن السلطان أبى وأعرض عن توسلاتها ، فهمست فى أذنه همسة هب على أثرها ، وراح يجد فى السير ، وهى تهرول خلفه ، حتى وصلا إلى حجرة فى قصر الوزير ، وإذا السلطان يغرق فى الضحك .. إذ رأى بثينة قد أسرجته وألجمته ، وركبت على ظهره !

وكبت عاصفة الضحك التى كانت تغالبه ، وقال لوزيره فى عتاب :

ــ ألم تكن تنهانى عن حب النساء ؟!

فقال الوزير فى ذلة :

ــ أعز الله السلطان ، كنت أخاف عليك أن يقع لك معهن مثل هذه الحال .

ترويض امرأة

راح حسن يصعد فى الدرج متصبب العرق منهوك القوى يشعر بالجوع ينهش أمعاءه ؛ فهو عائد إلى بيته محطما ، بعد عمل مضن متواصل فى الديوان ؛ إنه من أولـئك البائسين الذين تدور على رأسهم مصلحة بأسرها ؛ فهو مسئول عن إنجاز أخطر الأعمال ، وعلى الرؤساء العديدين النازلين بالغرف الفاخرة الممتدة على جانبى الردهة الرئيسية ، أن يشرفوا أعماله بتوقيعاتهم الكريمة ؛ وإنه لعمل جليل يستحق الحمد والثناء .

ووقف أمام الباب يطرقه فى تراخ ، وهو يلتقط أنفاسه المبهورة ، وأقبلت الخادم الصغيرة ، وفتحت الباب ، فاندفع إلى غرفة النوم ؛ وراح يخلع ملابسه وهو ينظر إلى زوجه الممدودة فى السرير فى استعطاف ، كان الجوع يعضه بأنيابه ، والتعب يدب فى أوصاله ، وكان يطمع فى أن تنهض وتجهز له الغداء ، ولكنها ظلت فى رقدتها لا تلتفت إليه . كان يحلو لها أن تتمدد لتستريح قبل أوبته بلحظات . ودنا منها وقال :

ــ كريمة . هيا لنتغدى .

فتمطت فى تراخ ؛ ولم تنبس بكلمة ، فقال يستحثها :

ــ هيا .

فقالت فى تكاسل :

ــ أحس تعبا يفك مفاصلى .

ـــ قومى .

ـــ اذهب أنت وجهز لنا الغداء .

لم يكن هذا جديدا عليه ؛ اعتاد أن يسمعه كل يوم ، ولكنه أحس غضبا يتحرك فى صدره ، وغيظا يلفه ، وفكر فى أن ينفس عن غضبه ، وأن ينفجر فيها صائحا بأنه ما عاد يحتمل ذلك الهوان ، ولكنه كتم ما به ، وذهب إلى المطبخ يجهز الغداء .

كان يوهم نفسه أن من الحكمة ألا يثور ، ففى الثورة تعكير لصفو حياته ، وقضاء على هنائه ؛ فكان يتغاضى عن إساءات زوجه ويزدرد أخطائها فى يسر إنه يستريح إلى خنوعه ، ويعد نفسه عاقلا رزينا لا يقيم وزنا لتوافه الأمور .

إنه فى واقع الأمر طيب القلب ، ضعيف الشخصية ؛ وزاد فى تخلخل شخصيته أنه اعتاد أنَ يتلقى أوامر رؤسائه العديدين ، وأن ينفذها دون اعتراض ، فاطمأن إلى الاستسلام والخضوع .

أخذ يغدو ويروح بين المطبخ وحجرة المائدة حتى إذا انتهى من غرف الصحافة ، وأعد كل شيء ، ذهب إلى غرفة النوم يدعو كريمة ، فألفاها لا تزال راقدة فى فراشها ، فقال لها :

ـــ انهضى فقد أعد الغداء .

فقالت له فى تثاؤب :

ـــ تغد أنت ، إنى أشعر برغبة فى النوم .

فتحرك غيظه ؛ ولكنه لم يثر ، بل قال فى توسل :

ـــ قومى ، لقد برد الطعام .

ـــ أوه !

وقامت فى تكاسل ، وغادرت الفراش ، ولكنها لم تذهب إلى غرفة

المائدة ، بل اتجهت إلى المرآة الطويلة القريبة من سريرها ، وراحت تديم النظر إلى قوامها اللدن الممشوق ، وتقرب وجهها من صقال المرآة ، وتمرر أصابعها على أهدابها الطويلة ؛ ثم تنظر إلى وجهها الفتان فى راحة وإعجاب .

وبقى حسن يتميز غيظا ، وكاد يزفر استياء ولكنه تمالك نفسه ، واستعان بالصبر ، حتى لا يأتى بما يجرح شعور كريمة ، فتثور لكرامتها المهدرة ، وتذرف الدمع السخين ، وهو يهاب دموعها ويخشاها ، فهى تمزق قلبه ، وتقبض صدره ، وتصده عن الطعام وإن كان الجوع ينهش جوفه ، ويقطع أحشاءه .

وأخيرا ذهبا إلى غرفة المائدة ، وقعدا يتناولان طعامهما ؛ وراح حسن ينظر إلى وجهها الحلو القسمات ، فانقشع غضبه ، وأحس راحة تكتنفه ، ونشوة تدغدغ حواسه ، وشعر برغبة فى أن يتودد إليها ليترضاها ، فلعله أساء إليها وهو لا يدرى ! فقال لها فى انشراح :

ـــ سنذهب الليلة إلى السينما .

فنظرت إليه بعينيها الجذابتين ، وانبسطت أساريرها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة عبثت بأوتار قلبه ، فانداحت فى صدره موجة من الغبطة والسرور .

وانتهى الغداء ، فحمل الصحاف إلى المطبخ راضيا ، ثم ذهب إلى فراشه وتمدد فيه ، فكر فى أنهما سيخرجان معا فانشرح ، سينطلقان الليلة فى شوارع القاهرة يتناجيان كعشيقين ، إنه يحس سعادة كلما سار معها فى طريق ، أو جلس بجوارها فى سينما ، أو حادثها همسا فى سيارة ، كان وجوده معها بعيدا عن البيت يحرك عواطفه ويذكى نار حبه .

واسترسل يفكر فيما يفعلانه بعد الخروج من السينما ، أيعودان إلى البيت ،

أم يذهبان إلى الجزيرة ، لينعما بجمال الطبيعة ، وروعة الليل الفاتن الجذاب ، فاستقر رأيه على أن ينطلقا إلى شاطئ النيل ، يمتعان نفسيهما بالسحر الحلال ، واستمر فى تفكيره ينعم بأحلام يقظته .

ووافى ميعاد الخروج إلى السينما ، فارتدى ثيابه منشرح الصدر ، متفتح النفس ، وغادر غرفته ، فألفى غرفة الاستقبال مفتوحة ، فأطل برأسه ، فاربد وجهه ، وطارت سعادته ، وانقبض . إن كريمة د ست — كعادتها — أختها ، وابنتى عمها ليشاركاهما فى سهرتهما ، وثارت ثائرته ، كان يحلم بأنهما سيخرجان وحدهما يجوسان خلال القاهرة ، كحبيبين فرا من أعين الرقباء ، فإذا بها تدعو أقاربها ، وتقوض أحلامه .

وضاق صدره ، وزاد غيظه ، وفكر فى أن يدعو زوجه ، ويعلنها بغضبه ، وبأنه لم يعد يحتمل هذا التنغيص ، وأن يثور ثورة هائلة ينفس بها عن نفسه ، ولكنه رأى من الحكمة ألا يثور ، حتى لا يعكر صفو حياته ، أو يقضى على هنائه .

وفى ليلة من الليالى عاد حسن إلى داره بعد ميعاده الذى اعتاد أن يعود فيه ، فقد قابل بعض زملائه ، وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، فسرقه الوقت دون أن يحس ، فلما تيقن من أنه تأخر خفق قلبه ، وسرى فى صدره قلق ورهبة . كان يدرى ما ينتظره عند أوبته .

ووقف أمام بابه يدقه فى رفق ، وقلبه فى جوفه يدوى دويا ، ومر الوقت ولم يفتح له أحد ، فطرق الباب فى شدة ، ولكن ما من مجيب ، واستمر فى دقه والوقت يمر ، وهو يتململ فى وقفته ، يلفه خوف وحنق . وأخيرا سمع صوت كريمة الغاضب ينبعث من وراء الباب يستفسر :

— من ؟

فقال فى حشرجة :

ــ أنا ، افتحى .

فصاحت فى غضب :

ــ لن أفتح ، اذهب وأمض بقية الليل حيث كنت .

فقال فى همس وهو يتلفت ، خشية أن يراه جيرانه فى موقفه الذليل :

ــ كريمة ، افتحى .

ــ لا . اذهب .

وهز الباب فى غضب ، وهتف فى صوت خافض ، كله توسل ورجاء :

ــ كريمة .. كريمة ..

ولكنها ذهبت ولم تجبه ، فتحرك غيظه ، وطغى غضبه ، وفكر فى أن يحطم الباب ، ولكنه ما كان بقادر على أن ينفذ خواطر الثورة التى كانت تراوده ، فتحلم على كره منه ، ولما كان التعب قد نال منه ، فإنه جلس على الدرج القريب من بابه ، وأخذ ينتظر أن يحن عليه قلب كريمة الغضبان .

وانقضى بعض الوقت ، وسمع وقع أقدام ، فنهض ينظر ، فألفى بعض جيرانه صاعدين فارتبك ، وخطر له أن يفر إلى السطح ، ولكن أغضبه ذلك الخاطر ، وراح يعاود طرق الباب فى شدة وحنق .

وفتحت كريمة الباب ، ثم جفلت كغزال شارد ، وانطلقت كعاصفة ثائرة إلى غرفة النوم ، فذهب خلفها وهو يضطرب ، فألفاها قد ارتمت فى السرير تبكى وتنتحب ، فراح يخلع ملابسه منقبض القلب ، وأحس نار الغيظ تندلع فى جوفه ، وتمنى أن ينفجر ثائرا ، وأن يصيح بها بأن صدره قد ضاق عن احتمال ذلك العنت والعذاب ، ولكن طبعه غلبه . فلاذ بالصمت ، واندس فى فراشه دون أن ينبس بكلمة ، حتى لا يعكر صفو هنائه ، أو يقوض

صروح سعادته !

* * *

وفى يوم من الأيام ، عاد إلى داره بعد عمله المضنى فى الديوان ، ودلف إلى غرفة النوم ، فوجد زوجه فى فراشها ، ولكن ما أن رأته حتى هبت من رقدتها ، واتجهت إليه ، منبسطة الأسارير ، فأوجس خيفة ، كان يخشى ما وراء ذلك النشاط الطارئ الغريب .

ودنت منه ، وقالت له قبل أن يخلع ملابسه :

— إنى فى حاجة إلى نقود .

فقال فى صوت مبحوح :

— لماذا ؟

— بعثت الخياطة إلىّ لأتسلم الثوب الجديد .

فقال فى صوت خافت :

— انتظرى حتى أول الشهر .

فاربد وجهها ، ولاح فيه الغضب ، وقالت فى ثورة :

— ماذا تقول الخياطة عنى ؟!

وتركت الحجرة حانقة ، ودلفت إلى حجرة أخرى ، وأغلقت خلفها الباب فى شدة ، فانقبض ، وامتلأ حنقا وغضبا ، وخطر له أن يثور ، وأن يصرخ فيها بأنه لم يعد يحتمل غرورها ، ولكنه لم يثر حتى لا يعكر صفو حياته ، فمد يده فى جيبه ، وأخرج ما فيه ، ثم ذهب إليها يقدم لها ما طلبته فى ذل وخضوع .

واستمرت كريمة تجرعه كأسها المرير ، وهو يزدردها صابرا . وضاق صدره يوما بمشاعره التى يكتمها ، فشعر برغبة فى أن ينفس عن نفسه ، فأقبل

على زميله فى المكتب يقص عليه متاعبه ، فقال له زميله :

ـــ الذنب ذنبك .

فقال حسن فى إنكار :

ـــ ذنبى أنا ؟

ـــ أجل ، لم تكن رجلا .

فاحمر وجه حسن ، وأحس كبرياءه تجرح ، فقال فى تلعثم !

ـــ لماذا ؟

ـــ نزلت لها عن حقوقك ، وأبديت الرضا والخضوع .

ـــ من الحكمة أن نحنى رءوسنا للزوابع حتى تمر بسلام ، لنحافظ على صفو حياتنا .

ـــ بل لنبقى على التنغيص الدائم المستمر ، لو أنك ثرت فى وجهها أول ما حاولت أن تسلبك حقوقك ، لما استرسلت فى طغيانها ، المرأة كالفرس ، إذا كبحت جماحها انقادت لك ، وإذا أطلقت لها العنان جمحت .

فأطرق حسن قليلا ثم قال :

ـــ وماذا أفعل الآن ؟

ـــ روضها .

فقال حسن فى فزع :

ـــ أتشير علىّ بضربها ؟!

ولاحظ زميله فزعه ، فابتسم وقال :

ـــ لم أقل لك اضربها ، بل روضها .

ـــ وكيف أروضها ؟

ـــ كما تروض القردة .

فبان الدهش فى وجه حسن وغمغم :

ــ القردة !

ــ أجل . القردة ، ألم تر مروض القردة وهو يروضها ؟

ــ أبدا .

ــ فلا غرابة إذن فى أنك لا تعرف كيف تروض امرأة .

ــ وهل رأيته أنت ؟

ــ أجل .

ــ أين ؟

ــ فى يوم من الأيام ذعانى صديق لزيارة مروض قردة ، فأخذنا نخترق شوارع القاهرة العتيقة ، حتى إذا خلفنا البيوت المتهدمة القابعة عند أقدام تلال المقطم ، رحنا نرقى مرتفعا ، فلما بلغنا قمته ، رأينا على بعد خطوات حجرة مشيدة بالصفيح الصدئ القديم ، وتقدمنا ودققنا الصفيح ، فخرج إلينا رجل لوحت وجهه حرارة الشمس ، واسع العينين غزير الشارب ، فى وجهه قسوة وصرامة ، يرتدى جلبابا أزرق ، وما إن رآنا حتى حيانا مرحبا ، ثم قدم إلينا صفيحتين ، وقال فى بساطة : « تفضلا » فجلسنا .

وذهب الرجل ، وغاب قليلا ، ثم عاد وهو يسحب قرداً وكلبا ، وتحت إبطه خيزرانة طويلة ، وشد القرد إلى وتد فى الأرض شدا وثيقا ، وقعد القرفصاء والكلب أمامه ، وراح يقوم ببعض الحركات ، ويطلب من الكلب أن يفعل مثله ، ولكن الكلب ظل ثابتا لا يحرك ساكنا ، فسحب الخيزرانة وضربه بها ، فعوى . ورأى القرد ما حل بالكلب فانكمش من الرعب ، وحاول أن يفر من الخوف .

استمر الرجل يقوم بحركات مختلفة ، ويطلب من الكلب أن يحاكيه .

ولكنه عجز عن ذلك ، فضربه ضربا قاسيا ، فغاص قلب القرد ، وراح يقفز فى فزع ، فما يقع أمام عينيه ينزل به الرعب الشديد .

ثم استل الرجل سكينا ، وأضجع الكلب على مرأى من القرد وذبحه ، فراح القرد يقفز مرعوبا ، ويجذب نفسه ليفر من ذلك الهول ، ولكن أنى له ذلك ، كان فى عنقه طوق من حديد ، تتدلى منه سلسلة شدت إلى الوتد الثابت المكين .

وألقى الرجل بالكلب بعيدا ، وعاد إلى القرد ، وقعد أمامه ، فابتعد القرد مفزوعا ، فجذبه إليه ، وجعل يقوم ببعض الحركات ، ويطلب منه أن يفعل مثله ، فكان يحاكيه ، وأخطأ مرة ، فضربه بالخيزرانة ففزع ، وحرص على أن يحاكيه فى دقة غريبة ، إنه أيقن أن بعد الضرب الذبح وما كان يحب أن يهدر دمه رخيصا . وصمت الرجل ، وغمغم حسن :

ــ بديع !

فقال زميله يحرضه :

ــ روضها كما روض الرجل قرده .

فقال حسن فى عزم :

ــ سأفعل .

ــ أظهر لها أنك قادر على البطش بها .

ــ ما أيسر القسوة .

ــ أوح إليها أنك تستطيع أن تحيل حياتها جحيما .

ــ سأعكر حياتها يوما ، لتصفو حياتنا إلى الأبد .

وعاد حسن إلى الدار ، وراح يصعد الدرج ، وقد بيت فى نفسه أمرا ، عزم على أن يثور ، وعلى أن يحطم كل شىء فى سبيل استرداد هيبته ، ودق

الباب ففتحت له الخادم الصغيرة ، فدخل يضرب الأرض بقدميه فى قوة ، وانطلق إلى غرفة النوم ، فألفى زوجته ممددة كعادتها ، فلم يلتمس منها أن تعد له الغداء كما اعتاد أن يفعل ، بل خلع ملابسه ، ولبس منامته ، وتمدد فى سريره ، ولم ينبس بكلمة .

وانتظرت كريمة أن يتكلم ، ولكنه لم يفعل ، فقالت :

ــــ هلا نتغدى ؟

فقال فى صوت آمر كلفه جهدا قاسيا :

ــــ أعدى الغداء .

وكاد يضعف ، ولكن كم كان عجبه لما رآها تنهض ، وشد ذلك أزره ، فعزم على أن يسير إلى نهاية الشوط ، وليكن ما يكون .

وجلسا يتناولان طعامهما ، وما ازدرد لقيمات حتى طلب من الخادم كوب ماء ، فجاءت الصغيرة تقدم له الكوب ، فدفع يدها عامدا ، فسقطت عليه بضع قطرات ، فهاج وماج ، وصرخ فى الطفلة ، فتقهقرت مرعوبة ، فتقدم نحوها وضربها بظهر يده ، أرادها أن تكون الكلب الذى يتحمل الأذى فى سبيل ترويض القرد ، ولكن الضربة أصابت أنفها ، فسال الدم منها ، وما إن رأى الدم حتى تخلخلت مفاصله ، وأحس رأسه يدور ، أراد أن يكون مروضا ، ولكن طبعه غلبه ، إنه يحس الأرض تميد تحت قدميه . وتحرك ليعود إلى مقعده ، ولكنه لم يستطع أن يملك نفسه ، فتهالك وسقط فى حجر زوجته مغشيا عليه .

كازانوفا جديد

١

مشط شعره الذهبى بأصابعه ، ورفع وجهه الأبيض ، فلمعت عيناه العسليتان ، ودعك أنفه المحمر دائما بيده ، ثم ابتسم ابتسامة رقيقة ، ودفع صديقه بمرفقه فى خفة ، وقال له فى همس :

ـ أرايت ؟

ـ ماذا ؟

ـ إنها تغمز لى .

فرفع الصديق وجهه الأسمر إلى حيث كان كمال ينظر ، فلمح فتاة فى شرفة مرتفعة، ولكنها كانت تطل على الناحية الأخرى ، فقال كمال وهو يضحك :

ـ أشاحت بوجهها لما مددت بصرك إليها .

وانطلقا يجوسان خلال طرقات الحى ، وراح كمال يلقى منولوج « سهل وجران ، من رواية النسر الصغير » فى نبرات ممتلئة ، وكان يضغط على الألفاظ حينا ويلين أحيانا ، فيتقلص وجهه وينبسط ، ويرتفع صوته وينخفض ، وتتسع عين ، وتضيق عين ، ويلوح بيده فى الهواء مندمجا فى

دوره ، ناسيا أنه فى الطريق .

كانا طالبين فى السنة النهائية بالمدارس الثانوية ، وكان كمال رئيس فرقة التمثيل بالمدرسة ، وكان حمدى رفيقه الذى لا يفارقه يصغى إلى تمثيلياته فى إعجاب ، ويستمع إلى مغامراته فى لذة يشوبها طيف من الغيرة أحيانا ، وما أن أنتهى كمال من منولوجه حتى التفت إلى حمدى وقال وقد انبسطت أساريره :

ـــ كانت البارحة ليلة من ليالى العمر لا تنسى .

ـــ وماذا حدث البارحة ؟

ـــ أما قصصت عليك ما جرى بالأمس ؟!

ـــ لا ، وماذا جرى ؟

ـــ نهلت من النبع الصافى ، وسبحت فى بحيرات السعادة ، وحلقت فى سماوات الحب ، وطرت على جناح الغرام .

ـــ هلا هبطت إلى الأرض وقصصت على ماحدث ؟

ـــ عدت إلى البيت بعد أن تركتك ، وأخذت أدق جرس الشقة دقا متواصلا ، فلم يفتح لى أحد .

طرقت الباب بيدى فى عنف ، ففتح باب الشقة المواجه لشقتنا ، وخرجت فتحية ، كانت الرقة والظرف ، فلو أن الرقة والظرف تجسما لما كانا غير فتحية ، انسابت نحوى فى خفة الطيف ، وهمست فى صوت شحن أنوثة وسحرا :

ـــ خرجوا وتركوا لك المفتاح .

تناولت المفتاح وأنا أرنو إليها فى إعجاب ، رأيتها كثيرا ولكننى لم أرها قط فى روعة الأمس ، كان شعرها الأسود محلولا يتهدل فوق كتفيها ، وبدا وجهها كالبدر ، وراحت عيناها تشعان بريقا يخطف القلب ، فاضطربت أنا

الذى لم يعد يضطرب فى حضرة النساء ، من كثرة ما رأيت من نساء ، ولاح على الارتباك ، ولكنى جمعت شجاعتى سريعا ، وابتسمت لها وحنيت رأسى ، وقلت :

ـــ متشكر .

وحاولت أن أقول أكثر من ذلك ، فلم يسعفنى الكلام ، فدخلت الشقة وأنا أشعر بضيق ، وظلت صورة فتحية بشعرها المسترسل المحلول ، وثوبها المنزلى الذى أبرز مفاتن الجسم أمام عينى لا تريم . دخلت حجرتى وفتحت كتابا ، وحاولت أن أقرأ ، لأشغل ذهنى بشيء غيرها ، ولكن كانت صورتها فى كل صفحة ، واسمها فى كل سطر ، فلم أطق المكث ، فخرجت إلى الشرفة ألتقط الهواء ، لعل هبوب النسيم يطفئ تلك النار المندلعة فى الضلوع ، والتفت فلمحتها فى الشرفة القريبة من شرفتى ، فاضطرمت النار المتأججة فى جوفى ، وقفز قلبى فى صدرى ، وظل يطفو ويغوص ، وانساب دمى حارا فى عروقى ، كأنما يتدفق من أتون ، وما كان أمامى إلا أن أفكر فى طريقة أصل بها إليها ، فأخذ فكرى يعمل فى نشاط عجيب ، وما هى إلا لحظات حتى قفزت إلى رأسى فكرة استرحت لها ، فرحت أنفذها من فورى . لطالما قلت لك يا حمدى أن المسألة لا تحتاج إلا إلى شيء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ، قطعت زر البيجاما ، ثم ذهبت أطرق بابها ففتحت ، فقلت لها فى صوت هادئ :

ـــ إبرة من فضلك .

فظهر فى وجهها التساؤل ، فقلت وأنا أرفع الزر بين أصابعى :

ـــ قطع وبحثت عن الإبرة ، ولكنى لم أهتد إلى مكانها .

وغابت قليلا ، وانتشرت فى صدرى أحاسيس متباينة ، أحاسيس النشوة

وأحاسيس الرهبة من أن يخفق تدبيرها ، وعادت وفى يدها إبرة ، ولم تدفعها إلى بل قالت :

ــ هات الزر أثبته لك .

فقلت ممثلا الارتباك :

ــ لا أود أن أتعبك .

فقالت :

ــ هذا شيء بسيط .

فقلت وأنا أبتسم :

ــ هذا لطف منك .

ومدت يدها إلى البيجاما لتثبت الزر المقطوع ، ولكنها فطنت إلى أننا نقف خارج الباب ، فقالت :

ــ تفضل .

فدخلت وأغلق الباب خلفنا .

انحنت تغرز الإبرة فى البيجاما ، فاختلطت أنفاسنا ، وأصبح رأسها تحت أنفى فامتلأت خياشيمى بعبيرها فاضطربت ، ووقعت عيناى على الأخدود الغائر بين النهدين ، فسرت رجفة من بدنى . وتلاقت عيوننا مرات ، فكانت تترجم فى ومضات عن الشعور المكبوت .

ــ لم أشعر إلا بيدى تضغط على يدها فى حنان ، ولم تمض لحظات حتى شعرت بذراعى تلفان خصرها ، وشفتى تبحثان عن الثغر الحلو الدقيق .

٢

رفع يده يمشط شعره الذهبى بأصابعه ، ومد بصره إلى لا شىء ، وقال فى إلقاء تمثيلى :

ــ تلمع السعادة يا حمدى فى حياة الإنسان كوميض البرق فى سماء ملبدة بالغيوم . سعدت روحى بالأمس لحظات مرت كلمح البصر ، وتقضت كحلم جميل ، الحب يا صديقى كالحرب : مناورة فمفاجأة فتطويق فتسليم .

وصمت كمال قليلا كما يفعل كبار الممثلين ، ثم قال :

ــ رأيتها تخطر عند الغروب ، كانت الفتنة والحسن ، صدر شامخ فى استعلاء ، كأنما شعر بجلاله وروعته ، وخصر دق حتى أشفقت عليه من ثقل الأرداف الممتلئة التى شدت إليه ، وساقان ممشوقتان خرطتا من مرمر ، أما الوجه فكان آية من آيات الحسن والجمال .

ما وقعت عيناى عليها حتى انجذبتا إليها كما ينجذب مسمار إلى مغناطيس ، اقتربت منها فلمحتها تمضع لبانا ، ولما كنت على يقين من أن الأمر لا يحتاج إلا إلى شىء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ، هرعت إليها دون تردد ، حتى كاد كتفى يلمس كتفها ، ورنوت إليها ، وقلت فى هدوء :

ــ قطعة من اللبان من فضلك .

فالتفتت إلىّ فى ارتباك ما لبث أن غاض ، وأشرق وجهها دون أن يفتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، وهزت رأسها فى دلال ، فقلت فى إصرار :

ــ لن أبرح حتى آخذ قطعة اللبان .

فقالت فى صوت رقيق :

ـــ إذن لن أعطيك .

فقلت فى انشراح :

ـــ أشكرك .

فقالت فى إنكار :

ـــ وعلام تشكر ؟ .

قلت فى هدوء :

ـــ لأنك لا تودين أن أتركك .

فقالت فى استخفاف متكلف :

ـــ ومن قال ذلك ؟

قلت :

ـــ أنت ، ألم أقل لك : لن أبرح حتى آخذ قطعة . فقلت إذن لن أعطيك ، فهل معنى ذلك إلا أنك تريدين بقائى ؟!

فمدت أصابعها إلى فمها ، وأخرجت قطعة من اللبان ، وقالت :

ـــ خذ .

فتناولت القطعة وأنا أقول :

ـــ على ألا أنصرف .

فابتسمت فى سرور .

فقال حمدى وقد شعر بعقارب الغيرة تلسعه :

ـــ محظوظ .

فقال كمال فى اعتداد :

ـــ بل لبق جسور .

٣

ومرت ثلاثة أيام لم ير حمدى فيها صديقه ، فانتظره فى شوق ، ولكن تقضت الساعات دون أن يقبل ، فأحس مللا ، فخرج وحده يطوف فى الحى ، ويضرب فى شوارعه ، رأى فتيات رائحات غاديات ، فكان يرقبهن على البعد فى اشتهاء ، ولمح فتاة تخرج وحدها ، فوسوست له نفسه أن يتبعها ، فراح يقتفى أثرها ، وفكر فى أن يقترب منها ويغازلها ، فشعر بقلبه يخفق خوفا ، وبرهبة تسرى فى صدره ، واضطراب يلفه ، فحنق على نفسه ، وسمع هامسا يهمس فى جوفه : « رعديد ما كان كمال ليحجم » فثار على ضعفه ، وحاول أن يصرعه ، فوسع من خطوه حتى إذا ما اقترب منها قفزت إلى ذهنه فكرة : « ماذا يفعل لو أنه غازلها فصفعته ، بدل أن تبتسم ؟ » وما مَثَل هذا الخاطر فى فكره حتى جبن وازداد اضطرابا ، وفترت حماسته ، فقلل من سرعته ، وأخذت الفتاة تبتعد عنه ، ثم دخلت دارا قريبة .. فهدأت ثورته ، ونزلت السكينة قلبه ، فزفر زفرة طمأنينة وارتياح .

واستأنف سيره ، وما خطا خطوات حتى لمح كمالا مقبلا ؛ وهو يمشط شعره بأصابعه ، ويدعك أنفه المحمر أبدا ، فابتسم مرحبا ، وقال :

ــ أين كنت طوال هذه الأيام ؟

ــ فى نعيم أمرح .

ــ فتحية أم فتاة اللبان ؟

ــ بل صيد جديد .

ـــ وكيف وقعت عليه ؟

ـــ كنت فى دار عمى جالسا وحدى فى الردهة ، وجاء إلى امرأة عمى زوار ، فقادتهم إلى غرفة الاستقبال ، بقيت وحيدا لحظات . وقع بصرى على التليفون ، فلمعت فى رأسى فكرة .

فرفعت السماعة ، وطلبت السنترال ، فرد على صوت نسوى حلو فقلت :

ـــ عندك جريدة من فضلك ؟

قالت :

ـــ نعم ! ماذا تريد ؟

فقلت :

ـــ أريد أن أعرف روايات السينما فى هذا الأسبوع .

فقالت :

ـــ رأيت رواية جميلة فى سينما مترو .

فقلت :

ـــ لم تعد لها قيمة عندى ما دمت قد رأيتها . إنى لا أحب أن أذهب إلى السينما وحدى وأظن أنك لا تحبين أن تشاهدى رواية واحدة مرتين فى أسبوع .

فقالت :

ـــ لا أفهم ماذا تريد !؟

فقلت :

ـــ بل تفهمين .

فقالت :

— أهى دعوة ؟

فقلت :

— متواضعة ، ليتك تلبين .

فقالت :

— غدا أمام سينما ريفولى .

فقلت :

— متى ؟ وكيف أعرفك ؟

فقالت :

— فى السادسة مساءوسأرتدى ثوبا أبيض فى صدره وردة حمراء .

انتظرتها فى الميعاد ، ولمحتها مقبلة ، فأسرعت إليها ، حتى إذا ما اقتربت منها قلت وأنا أمد لها يدى :

— آلو .. آلو .

فأخفت فمها بمنديل فى يدها ، لتحجب ضحكة ودت أن تنطلق . ثم مدت يدها وصافحتنى وهى تقول :

— أهو أنت ؟

فقلت :

— نعم ، أخاب ظنك فى ؟

فتكسرت أهدابها وغمغمت :

— شيطان .

لم تكن رائعة الحسن ، ولكن زانها جمال الصحة والشباب ، كانت نابضة زاخرة بالحياة ، إذا نظرت إليك بعثت الدفء فيك ، وأيقظت الإحساس الهاجع ، نعمنا بالرواية ونحن فى غمرة من السعادة ، ثم انطلقنا بعدها إلى

الجزيرة ، ورحنا نذرع طرقاتها فى سكون الليل وهدوئه ، كان القمر يتألق فى رقعة السماء ، ويعكس ضياءه على صفحة الماء ، ويفرش مسارب الطرقات أمامنا بساط فضى أخاذ يهز المشاعر ، ويفعم النفوس بالغبطة ، كانت ليلة لن أنساها .

تعلقت عينا حمدى به ، وكان يصغى إليه فى انتباه ، وسمع همسا يهمس فى أذنيه : « محظوظ » ولكن سرعان ما راح الهمس يردد : « بل لبق جسور » .

٤

سار حمدى فى شارع فؤاد الأول يتلفت وقد انتشت روحه ، فقد مر بأسراب ، وعجب لتلك الأيدى الماهرة التى صففت الشعور ، وزججت الحواجب ، ونشرت المساحيق والأدهان فى صفحات الوجوه فى فن وإبداع ، فأبرزت الروعة والجمال ، ورأى فتيانا يسعدون بمصاحبة فتيات ، ففكر فى وحدته ، وسأل نفسه : « ألا يجد بين هؤلاء المنطلقات من تقبله صديقا ؟! » منهن من ترحب بهذه الصداقة من غير شك ، ولكنها لن تأتى إليه عارضة عليه أن يسعى إليها ، المسألة لا تحتاج إلا إلى شىء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ! هذا ما يقوله كمال المجرب وهو يؤمن بذلك كل الإيمان ، ولكن من أين له الشجاعة ؟! إنه ما يقترب من فتاة حتى ترتعد فرائصه ، وتنتابه رهبة ، ويفكر فى الفرار .

سيعيش وحيدا إذا ركن إلى طبعه ، أما إذا أراد أن يحب كما يحب الشباب ، فعليه أن يجمع أطراف شجاعته ، ويغازل فتاة . وكان قد وصل إلى شارع

سليمان باشا ، فعرج عليه وقد عقد العزم على أن يجرب مرة ، انطلق وقد اختلطت عليه إحساساته ، كان يشعر بخوف مما يتوقع حدوثه من أحداث إذا ما أقبل على مغازلة فتاة ، وكان يشعر بقوة طاغية عاتية تدفعه إلى القيام بهذه المحاولة الخطرة . وتذكر كمالا فى تلك اللحظة ، ورنت فى أذنيه كلماته ، فشد ذلك أزره ، وقوى من عزمه .

ورأى فتاتين تتهامسان ثم تضحكان أمام سينما مترو ، وكانتا بعيدتين عن الحشد المتدافع بالمناكب فى مدخل الدار ، فشجعه مرحهما على أن يندفع إليهما ، فسار وقلبه يدق فى جوفه دقا ، ودمه يتدفق إلى رأسه حارا ، فشعر بسخونته ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه ، فانطلق حتى أصبح أمامهما فقال فى صوت ظاهر الاضطراب :

ـــ أين سينما مترو من فضلك ؟

فابتسمت الفتاتان ، فهدأت نفسه القلقة قليلا ، وسكنت مشاعره المتصارعة فى جوفه التى كادت تعصف به ، وقالت إحداهما وهى تشير بإصبعها بعيدا :

ـــ لعلها هناك ..

قال فى أدب بعد أن جمع شتات نفسه :

ـــ متشكر .. سؤال آخر من فضلك .

فقالت إحداهما فى تهكم :

ـــ مثل السؤال السابق ؟

وقالت الأخرى وهى تضحك :

ـــ أرجو ألا يكون عويصا مثله .

فقال :

ــ هل تشاهدان الرواية المعروضة فى هذه الدار ؟

ــ لا ..

ــ وأنا لم أشاهدها .

فقالت إحداهما وهى تضحك :

ــ أفادكم الله .

وتحركت الفتاتان ، فقال :

ــ كلمة أخيرة من فضلك ؟

ــ ماذا ؟

ــ يحزننى أن تنصرفا دونى ، كل ما أرجوه أن أسعد بحديثكما .

ــ ثم ماذا ؟

ــ أنصرف عندما تطلبان منى الانصراف .

فضحكت إحداهما وقالت :

ــ إذن انصرف الآن .

ــ حقا ؟! إنى وحيد ، فماذا يضيركما لو أسعدتمانى لحظات ، وكان لكما عند الله الأجر والثواب .

فقالت إحداهما وقد أشرق وجهها وتهلل :

ــ أصبح للترفيه عن الشبان أجر عند الله ، كالصدقة على الفقراء .

ــ كلانا يستحق العطف ، فنحن فى الحرمان سواء .

٥

انصرف حمدى مفعما بالرضا جذلان ، فما كان يصدق أنه يجرؤ على مغازلة فتاة ، فإذا به يغازل فتاتين ويواعدهما على اللقاء ، وراح يفكر فيما يفعله فى الغد ، إنهما فتاتان ، ولن يسعد بفتاتين ، فماذا عليه لو صحب كمالا ، وقرر أن يصحبه معه ، فهو صديقه وصاحب الفضل عليه ، فلولاه ما وجد فى نفسه الشجاعة لمواجهة فتاة .

وخطر له أن كمالا قد يأسر الفتاتين بلباقته وجسارته ، فهو زير نساء ، ولكنه طرد ذلك الخاطر سريعا ، فقد كان فرحان ، وما كان لخواطر الريبة والشك فى نفسه مكان .

ووافى الميعاد ، فأقبلت الفتاتان ، فابتسم حمدى ، وبرقت عيناه سرورا ، ومشط كمال شعره الأصفر بأصابعه ، ودعك أنفه المحمر أبدا بيسده فى اضطراب ، وظهر عليه ارتباك . وقدمه حمدى للفتاتين ، فحشرج حشرجات ، وساروا وحمدى يتحدث وكمال صامت لا ينبس بكلمة ، حتى إن حمدى أنكر فى نفسه هدوء زير النساء ، الذى لا يضطرب فى حضرة النساء من كثرة ما رأى من نساء !

وبلغوا حديقة هادئة ، فجلسوا على أريكة واحدة ، وظل كمال غارقا فى صمته حتى إن حمدى تمنى لو أنه ألقى منلوجا من المنلوجات الروائية التى يلقيها عليه فى الليل والنهار .. وخمن حمدى أن كمالا قد يكون من ذلك الطراز الذى



لا يتألق إلا إذا انفرد بفتاته ، فأخذ فتاة وابتعد ، تاركا كمالا وحده مع فتاة .

وانقضى بعض الوقت ، فعاد حمدى وفتاته منشرحين ، فألفيا كمالا جالسا على طرف الأريكة ينصت إلى الفتاة ، وقد بدا عليه الارتباك ، وما إن لمحتهما الفتاة حتى قالت فى تبرم :

ـــ هيا لنعود .

فقال حمدى فى إنكار :

ـــ هكذا سريعا ؟

فقالت الفتاة فى ضيق :

ـــ أشعر بقشعريرة تسرى فى بدنى .

فقال حمدى متهكما :

ـــ من الحب ؟

ـــ من البرد .

وفطن حمدى إلى أن هذه أول مرة يقابل فيها كمال فتاة . وأن فتحية وفتاة اللبان والسنترال وغيرهن من بنات الخيال ، فابتسم فى سخرية ، ولكن هذه البسمة دوت فى أذنيه قهقهات ، وهمس فى جوفه هامس ساخرا :

ـــ حقا إنه لبق جسور ، لا يضطرب فى حضرة النساء من كثرة ما رأى من نساء !

البخيل

هبط فى البكور إلى فناء الدار ، وذهب إلى حيث وضع فى المساء صفيحة ملأها ماء ، ليختبرها هل ترشح . وما أن وقع نظره على الصفيحة حتى قطب جبينه .. فقد رش أحدهم الفناء بالماء .. فهتف فى غضب :

ـــ عم محمود . عم محمود .

فجاء البواب يهرول . فقال له وقد زوى ما بين حاجبيه :

ـــ من الذى رش هذا الماء ؟

ـــ أنا يا سيدى ..

ـــ ألا تعلم أنه ماء عذب وليس من البئر .. كنت سأستعمله فيما يستعمل فيه الماء العذب ..

ـــ لم أكن أدرى أنه ماء عذب .

فدار على عقبيه فى انفعال ، والتفت إلى (سلاملك) كان يتخذه مكتبا فى الصباح وصاح :

ـــ محمد أفندى .. محمد أفندى ..

فظهر عند رأس السلم محمد أفندى فى جلباب مخطط ، وعلى رأسه طربوش قديم .. وفوق أذنه اليمنى قلم . إنه كاتب الحسابات ، فقال فى حزم :

ـــ اخصم من ماهية عم محمود مليمين ثمن الماء الحلو الذى رشه اليوم .

فقال عم محمود وهو يمد يده فى جيبه :

ـــ لا لزوم للكتابة والخصم وتعقيد الحسابات .

وأخرج مليمين وقال :

ـــ هاك المليمين .

فبسط الرجل كفه وتناولهما ، ثم دسهما فى جيبه . وذهب يجوس خلال فناء الدار الواسع ، فألفى فى ركن من الأركان قطعة خشب ملقاة ، فالتقطها ، ويمم صوب باب ضيق ، ففتحه ودلف إلى مكان تكدست فيه قطع من الحجارة ، وأكوام من الرمل والجير والخشب ومكاتل وحبال ، ومفاتيح صدئة ، وأقفال قديمة ، ومشابك أبواب ونوافذ ومقابض أبواب .. فوضع قطعة الخشب فى حرص كما وضع كل ما فى ذلك المخزن من قبل .. ثم خرج وأغلق الباب خلفه ، فما كان يفرط فى شيء يجده . علمته الأيام أن لكل شيء فائدة .. فإذا أصر ساكن من السكان الذين يقطنون مساكنه الكثيرة على عمل بعض الترميمات فى مسكنه . كان فى ذلك المخزن العون على إتمام الإصلاح ، دون أن يخرج من جيبه نقودا .

وجلس على باب الدار يستقبل الخدم الذين يفدون فى الصباح ليشتروا منه الخضر التى يزرعها فى فناء البيت . فما كان يحب أن يدع شيئا دون استغلال . وأخذ يقبض القروش متهلل الوجه . كان يفرحه دخولها إلى جيبه ، وكان يغمه خروجها منه .. وأقبل خادم ، وطلب رطلا من ورق العنب ، ونقده ثمنه .. فأمر عم محمود ـــ وكان بوابا وزارعا وبائعا وسباكا عند اللزوم ـــ أن يقطف له من عريش العنب رطلا ، فراح عم محمود يقطف ورق العنب ، ثم أعطاه الخادم . ولاحظ السيد أن ما أخذه الخادم يزن أكثر من رطل .. فأخذ ورق العنب منه فى عنف وهو يرغى ويزبد ، ووضعه فى الميزان فرجح .. فراح يسب عم محمود الذى سيسبب له الخراب ..!

وأقبل صبى صغير وتقدم منه على استحياء ، وقال له فى صوت

مضطرب : إن كرته سقطت منه فى فناء الدار ، وإنه يرجوه أن يأذن له بالدخول ليأخذها . فقال له :

ـــ لن أعطيكها قبل أن تدفع قرشا ، حتى لا تسقطها مرة ثانية ..

وأخرج الصبى القرش الذى أخذه من أهله لينفقه فى يومه ، وأعطاه إياه ، فدخل عم محمود ، وعاد بالكرة وقدمها إلى سيده ، فلما رآها اغتم ، كان يحسبها صغيرة ، فإذا بها كرة قدم .. فدفع بها إلى الصبى وهو مستاء ، يحس إحساس من غبن فى صفقة من الصفقات ، وراح يغمغم فى حسرة :

ـــ لو كنت أدرى ما قبلت قرشا واحدا فقط !

وهبط ابنه من الدار .. فانطلقا معا إلى الدكان، وفيما هما فى الطريق.. قال ابنه.

ـــ سيحضر اليوم مفتش الصحة ..

فقال الرجل فى امتعاض :

ـــ مصائب تهبط علينا من السماء .. أتحسب أن الإصلاحات التى أجريناها بمخازننا كفيلة بإرضائه ؟

فقال الابن فى استخفاف :

ـــ لن يأذن لنا بإعادة فتح المخازن مهما أجرينا بها من إصلاحات ..

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنه يأمر بإغلاق المحال ، بحجة عدم استيفائها المواصفات الصحية ، ثم لا يوافق على إعادة فتحها إلا إذا أخذ شيئا ..

فقال الرجل فى فزع :

ـــ أخذ ماذا ؟

ـــ ألم تسمع أن الحاج سليمان دفع له خمسة جنيهات حتى وافق على إعادة

فتح محله .

فقال الرجل فى تهويل :

ـــ خمسة جنيهات !

وأحس كأنما أصابه دوار . وسار وهو مهموم يفكر فى ذلك البلاء ، حتى إذا بلغ المحل دخل مكتبه وأطرق .. كان مكتبا متواضعا ، لا يتفق مع مركز الرجل التجارى ، والأرباح الوفيرة التى يجنيها . رصت أمامه أرائك من خشب ، وعلق على الحائط إطار كتب فيه « إن المبذرين كانوا إخـــوان الشياطين » .. ولا شيء غير المكتب والارائك والآية الكريمة وخزانة ضخمة ابتلعت جزءا كبيرا من المكان ..

ومر الوقت وهو قلق .. ثم أقبل مفتش الصحة ، فقابله بالترحاب ، وما إن جلس حتى قال له متطلق الوجه :

ـــ عندى لك هدية طيبة ..

فانفرجت أسارير المفتش ، والتمعت عيناه فى جشع .. وانتظر أن يقدم الرجل هديته القيمة . ولكن الرجل قال :

ـــ إنها عندى حتى تنتهى من التفتيش على المخازن .

فقام المفتش خفيفا ، وذهب إلى المخازن وهو يفكر فى الهدية الغالية التى أعدها له أغنى رجل فى الحى ..

ومر بالمخازن سريعا ، ثم عاد وفى وجهه لهفة ، وجلس ينتظر الهدية ، ولكن الرجل قال له :

ـــ كيف رأيت مخازننا ؟

ـــ استوفت جميع الشروط المطلوبة .

ـــ أتأمر بإعادة فتحها ؟

ـــ وهل فى ذلك شك ؟

وأخرج المفتش ورقة ، وراح يكتب الإذن بفتح المخازن فى سرعة عجيبة .. ثم دفع بالإذن إلى الرجل ، ودس الرجل الإذن فى جيبه ، ثم مد يده وفتح درج مكتبه ، وأخرج منه الهدية المترقبة ، وأعطاها المفتش بوجه منطلق ، فاكفهر وجه المفتش ، وبان عليه الحنق والضيق . كانت الهدية (برتقالة يافاوية) من الحجم الكبير .. !

* * *

وجلس أمام الدار يرقب الغادين والرائحين .. وكانت هذه جلسته المفضلة .. فما كانت تكلفه شيئا . وأقبل ابنه .. فلما لمح أباه اضطرب وانداحت الرهبة فى جوفه ، كان يرجو أن يصل إلى البيت دون أن يراه أبوه .. فقد اشترى دجاجة رومية تمنى أن يتعاون هو وأهله على إخفائها ، ليأكلوها بعيدا عن أنظار أبيه حتى لا يقرعهم على تبذيرهم الذى سيجلب الخراب ..

ووقف ابنه حائرا ، وفكر فى أن يتركها فى محل من المحال التجارية القريبة من البيت ، ولكنه خجل من أن يفطن صاحب المحل إلى السبب الذى دعاه إلى تركها عنده ، فعاود التفكير . فاهتدى إلى فكرة قاسية ، ولكنها أرحم مما ينتظره من عذاب ..

أمسك بساق الدجاجة وكسرها .. ثم تقدم من أبيه وهو خائف ، فلما رأى الرجل الدجاجة قال فى استنكار :

ـــ ما هذا الذى بيدك ؟

فقال ابنه فى صوت مضطرب :

ـــ دجاجة رومية ..

ـــ دجاجة ؟! ومن أين جئت بها .. ؟

ـــ لما رآها البائع مكسورة الساق باعها لى بخمسة عشر قرشا ..

ـــ خمسة عشر قرشا ! هذا تبذير ..

ـــ والله يا أبى لو لم أعتقد أنها صفقة طيبة ما جئت بها .

ـــ هذا خراب ..

وانسل الولد فى خفة ، وبقى الرجل يمصمص شفتيه أسفا على أنه أنجب ولدا لا يعرف قيمة المال .

وجاء رجل وحياه وقال له : إنه عاين مسكنا خاليا فى منزل من منازله .. وإنه يريد أن يستأجره ، فدعاه إلى المكتب ، وسارا صامتين . وصعدا بضع درجات ، ثم دلفا إلى حجرة بعثر فيها أثاث قديم ، وقد جلس خلف مكتب محطم تكدست فوقه الأوراق . محمد أفندى بجلبابه المخطط وطربوشه القديم ، فلما رأى القادمين انتصب واقفا ، فقال له السيد :

ـــ هات عقد إيجار ..

والتفت إلى المستأجر وقال :

ـــ هل استلمت الشقة من البواب ؟

ـــ نعم ..

ـــ تسلمت مشابك الشابيك والأبواب ؟

ـــ نعم .. خمسون مشبكا .

فقال السيد مصححا :

ـــ اثنان وخمسون مشيكا .

فقال الرجل موافقا :

ـــ اثنان وخمسون مشبكا !

ـــ وتسلمت مقابض الأبواب والمزاليج والأقفال وألواح الزجاج ؟

ــ تسلمت كل شيء ..

وتناول السيد ورقة وكتب فيها بعض أرقام ، ثم قال :

ــ هات خمسة جنيهات وثلاثين قرشا .

ــ الإيجار خمسة جنيهات فقط !

ــ وثلاثون قرشا تدفع عند كتابة العقد ..

ــ لماذا ؟

ــ ثلاثة قروش تمغة ، وسبعة قروش ثمن العقد وكتابته .. وعشرون قرشا حلاوة إتمام العقد ..

فاتسعت حدقتا الرجل .. ولم ينبس بكلمة .. ودفع المبلغ ، فلما اطمأن السيد إلى أن النقود باتت فى جيبه ، التفت إلى محمد أفندى وقال :

ــ الآن اكتب العقد للأستاذ .

وقام يتمشى ، فلما بلغ رأس السلم لمح عم محمود يتناول قرشا من صبى صغير ، فاتسعت عيناه ، وصاح فى لهفة :

ــ عم محمود .. عم محمود .

فهرول الرجل إليه ، وراح يصعد فى الدرج مكروب الأنفاس ، فلما أصبح أمامه قال له :

ــ ما هذا الذى فى يدك !

فقال عم محمود فى صوت خافت :

ــ قرش صاغ .

ــ ولماذا أخذته منه ؟

ــ أراد أن يصطاد سمكا ، فطلب منى بعض الدود يستعمله طعما للأسماك ، فلما أعطيته الدود أعطانى القرش .

فقطب الرجل جبينه ، وقال فى غضب :

— وهل يأكل الدود من أرض أبيك ، هات القرش .

وأخذ القرش ، ووضعه فى جيبه وهو يغمغم ويهز رأسه حسرة :

— خربت الذمم .

وتلفت فلمح الخادم وهى تهم بمغادرة الدار وتحت إبطها لفيفة ، فناداها ، فالتفتت ، فأشار لها بيده أن تعالى .. فانطلقت إليه . فمد يده إلى اللفيفة وفضها ، فوجد بها رغيفين .. فثار وسب الفتاة ، واتهمها بالسرقة .. فقالت تنفى عن نفسها :

— والله إن سيدتى أعطتنى إياهما ..

— أعطتك إياهما ؟ وكيف .. ؟ ولماذا ؟ تعالى ..

وسار وهو يسوق الفتاة أمامه .. وراح يصعد فى الدرج وفى صدره نار ، حتى إذا بلغ زوجه قال :

— هل أعطيتها هذين ؟

— نعم ..

— ولماذا ..

— ستبيت الليلة عند أمها ، ولن تتعشى عندنا ، فأعطيتها هذين الرغيفين لتتعشى بهما .

— هذا تبذير . هذا بطر . إنك ترفسين النعمة بقدمك .

وخطر له خاطر أعجبه ، فقال لزوجه :

— آه .. إننا نستطيع أن نستغنى عن رغيفين كل يوم إذا ثبت لى ذلك .. سأخاطب المخبز لينقص من الراتب رغيفين !

واتجه إلى التليفون ، وفتح القفل الصغير الذى يغلق به ، ثم أدار القرص مرة

ومرتين وثلاثا .. وتذكر أن هذه المكالمة ستكلفه قرشا ، وأن المسافة بين البيت والمخبز يسيرة يقطعها على قدميه فى عشر دقائق . فوضع السماعة ، وأغلق التليفون ، ثم غادر الدار ، وذهب إلى المخبز يغذ السير ، ليخفض من الراتب اليومى رغيفين .

* * *

ووافى ميعاد سفره إلى القرية وحده .. كان يمضى بها أسبوعا يتفقد شئونها . وكان ذلك الأسبوع أسعد الأيام فى حياة أهله .. كانوا يمضون يومهم فى المطبخ يعدون ما لذ وطاب ، ويأكلون فى نهم ، ليعوضوا ما فاتهم طوال العام .

وسافر .. وما إن غادر الدار حتى وفدت إليها خيرات الله . ومر يومان سعيدان .. وفى اليوم الثالث دعا ابنه أصدقاءه إلى وليمة فاخرة ، ومدت المائدة ، ورصت فوقها الديكة الرومية والأوز والحمام .. وعشرات الأصناف . وتحلق الصحاب حول الطعام ، وراحوا يأكلون ويتضاحكون ..

وسمع طرق على الباب .. فأسرعت الخادم وفتحته .. فإذا بسيدها قد عاد قبل الأوان .. وصكت أذنيه ضحكات الشبان ، فدخل وهو يعجب ، فما كان يزور أو يزار . وما أن بلغ مصدر الضحكات ورأى المائدة العامرة ، حتى أحس مطارق هائلة تهوى على رأسه .. ونظر إلى الأيدى التى تمتد إلى الطيبات ، فخيل إليه أنها تمتد إلى قلبه فتنهشه . وأحس الأرض تميد به .. وفطنوا إلى دخوله ، فدعوه إلى الطعام .. فلم يحرك ساكنا ، وظل ينظر إلى السكاكين وهى تمزق لحوم الطير ، فيشعر بها تمزق أحشاءه .. وسار وهو يحس يدا قوية تضغط على عنقه ، وتكتم أنفاسه ..

وقعد على حافة سريره وقد فار مرجل غضبه ، وتدفق الدم حارا فى عروقه ..

وانتهت الوليمة .. وغادر الضيوف الدار . وبقى الابن مهموما وقد امتقع لونه ، وانتابه القلق . وأخذت الأم تغدو وتروح حيرى ، لا تدرى ما تقول لزوجها ، الذى عاد على غير ميعاد . وانقضت ساعة كئيبة رهيبة ، ولم يرتفع صوت الرجل ثائرا صاخبا لما حل به من خراب . ومرت ساعة أخرى قاسية شديدة . ولما كان نزول البلاء أهون من انتظاره تقدمت الزوجة إلى غرفة زوجها وقلبها فى صدرها يدوى دويا .

ودنت من سريره ، فألفته مكبا على وجهه . واقتربت منه ، فألفته فى غيبوبة يغط غطيطا .. فنادته فلم يرد عليها .. فهزته فلم يحرك ساكنا . فأسرعت وجاءت بقلة ماء ، ورشت الماء على وجهه .. واستدعت ابنها وحملاه بينهما وأجلساه .. ففتح عينيه ، وحاول أن يتكلم ، ولكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة ، فقد كف لسانه عن الدوران فى حلقه ، وأراد أن يرفع ذراعه أو يجر ساقه فلم يقدر . فقد مات نصفه الأيمن .. !

ومدداه فى فراشه ، وبقيا إلى جواره صامتين ، لا يجرؤ أحدهما على أن يشير باستدعاء الطبيب حتى لا يغضبه فما كان الأطباء يعرفون طريقهم إلى بيته إلا فى حالة واحدة . حالة الوفاة .. وقعدا مطرقين وهو ممدود فى سريره ، وسمع صوت ماء يتدفق من صنبور مفتوح .. فحرك رأسه فى ضيق .. وظل صوت الماء المنساب يصك أذنيه فيضنيه ، واحتل فكره طيف عقرب عداد الماء وهو يجرى مسجلا استهلاك المياه وزيادة استحقاق الشركة .. فرفع ذراعه التى كان يستطيع أن يرفعها . وجعل يحرك أصابعه فى ثورة ، تحريكا يفهم منه أن أغلقوا الصنبور ، ففطن ابنه إلى ما يريد .. فهرع إلى الصنبور وأغلقه .

وتقضت الليلة .. وطلع النهار وهو على حاله لا يستطيع أن يتكلم أو يحرك ذراعه أو ساقه ، فلم يجد ابنه مفرا من استدعاء الطبيب ، فذهب إلى التليفون ، وطلب طبيبا من أطباء الأعصاب المعروفين ، ومر الوقت وهو هادئ ساكن ، ولكن ما إن أقبل الطبيب وفحص عنه ، وقدم له ابنه جنيهين ، ولمحه وهو يدسهما فى جيبه ، حتى قطب جبينه ، وصعد الدم إلى وجهه ، وراح يتدفق إلى رأسه ، ولو أن الطبيب فحص عنه بعد ذلك لوجد أن حالته زادت سوءا .

وجيء بالدواء ، ورص على نضد قريب منه . فلما فتح عينيه ، ووقعتا على العلب والزجاجات المصفوفة ، هاله ما أنفق فيها من مال ، فاربد وجهه ، وأشاح به عن المنظر البغيض . ولو أرادوا له الشفاء حقا لكدسوا له على النضد أكوام الذهب البراق .

ومر اليوم ، وتصرمت الليلة وحالته تزداد سوءا . فلما أشرقت شمس اليوم التالى استدعى ابنه طبيبين كبيرين ، وما انتهيا من عملهما حتى منحهما مبلغا كبيرا . ورأى الرجل فعلة ابنه الشنعاء ، فأحس كأن رأسه يتمزق ، وراح فى غيبوبة .

كان ذلك الإنفاق المتواصل الذى يقع تحت عينيه ضربات متلاحقة على رأسه ، لم يحتملها . فما أقبل اليوم الثالث حتى فاضت روحه من جسمه . وعلى الرغم مما قاساه فى سكرات الموت كان خروج الروح أيسر من خروج قرش من جيبه .

وأقام ابنه سرادقا كبيرا ، وأخذ ينفق عن سعة ، وهبط النعش من

الدار ، وجيء بعجل سمين ، ليذبح تحت النعش .

وما إن سال دمه على الأرض حتى ارتجف النعش المحمول على أعناق الرجال رجفة شديدة . فأيقن الذين يعرفون المرحوم أنه يتململ فى نعشه ، آسفا على ماله الذى أصبح يراق بغير حساب !

مولد أديب

قام من نومه يتمطى ويتثاءب ، ونظر إلى زوجه ، فألفاها فى فراشها ساهمة ، وقد شخصت ببصرها إلى سقف الغرفة ، فقال لها فى سخرية :

ـــ ما الذى يشغل بالك ؟ إطعام الأولاد ؟!

فقالت فى أسى :

ـــ أختى ستطلق ..

ـــ ومتى جاءك هذا النبأ ؟ ! كنا نتسامر قبل أن ننام حتى منتصف الليل ، فلم تذكرى لى شيئا !

ـــ رأيت ذلك فى منامى ..

ـــ وماذا رأيت ؟

ـــ رأيت أختى وزوجها غاضبين ، وقد ولى كل منهما الآخر ظهره .

ورفت على شفتيه ابتسامة هازئة وقال « آه » ممطوطة ، دلالة على الزراية والاستخفاف ، ثم غادر فراشه ، وراح يتأهب للانطلاق إلى عمله .

وانقضت ليال وأيام ، وعاد إلى البيت بعد انتهاء عمله فى الديوان ، فوجد زوجه مطرقة ، وقد ارتسم على وجهها أمارات الأسى والحزن ، فقال لها وهو يبتسم :

ـــ كفى الله الشر ، ما هذا العبوس ؟ لعل الطبيخ احترق ؟

فقالت له فى اضطراب :

— تشاجرت أختى وزوجها ، وعادت إلى بيت أبى غضبى .

— وهل فى ذلك من جديد ، ما أكثر خصامهما ، وما أسرع أن يتصالحا !

— ولكن أبى يصر على تطليقها هذه المرة .

— هذا ما يقوله أبوك فى كل مرة .. قومى وجهزى لنا طعامنا .

وترادفت الأيام ، وتم الطلاق ، وراح يفكر فى حلم زوجه ، فحيره فكره ، ولم يهتد إلى شيء ، فغمغم ليريح نفسه .

— مجرد مصادفة .

ومرت الأيام هينة رتيبة ، وفى صباح يوم من الأيام استيقظ من نومه ، فوجد زوجه أمام المرآة تمشط شعرها ، فقال وهو يبتسم :

— صباح النور على البلور .

فافتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، ولكن سرعان ما ذابت الابتسامة على شفتيها ، وقطبت جبينها ، فقال لها :

— ما الذى يكدرك ؟

— رؤيا رأيتها .

— وماذا رأيت ..

— سرادقا هائلا نصب أمام بيت خالتك ، أقيمت فيه الزينات . وخفقت الرايات ، وانتثرت الثريات .

فقال وقد أشرق وجهه بابتسامة :

— لعل ابن خالتى سيتزوج مرة أخرى ، أو لعل خالتى اشتاقت إلى الزواج !

— لا أحسب أن هذه الزينات بشير فرح .

— فعلام تدل إذن ؟

ـــ إنها نذير حزن عميق .

فقال بعد أن زفر فى استخفاف :

ـــ يا فتاح يا عليم .

وغادر الغرفة وهو يعجب من زوجه التى تتعلق بأوهام . ولكن ما انقضى الشهر حتى كان ابن خالته قدمات ، وأقيم ذلك السرادق الذى رأته زوجه فى المنام .

وترادفت رؤاها ، وتحققت كفلق الصبح ، فصار يؤمن بأحلامها ويهابها ، وإن أبدى الزراية والاستخفاف .

وفى ذات يوم استيقظ من نومه وزوجه تجفف دموعها . فأوجس خيفة ، وأحس قلبه يغوص فى قدميه ، وهم أن يسألها عما أسال عبراتها ولكنه أحجم رهبة ، واستولى عليه قلق واضطراب ، ولما كان الموت أهون من انتظاره ، فإنه لم يستطع أن يئد رغبة الاستفسار التى تولدت فى نفسه ، فقال لها فى صوت خافت مرتجف :

ـــ ما الذى أبكاك ؟

ـــ لا شىء .

فزاد إنكارها فى قلقه ، فقال فى اهتمام :

ـــ ماذا تخفين عنى !

ـــ رؤيا أفزعتنى .

ـــ وماذا رأيت ؟

ـــ رأيت أن ضرسى قد خلع .

فقال فى لهفة :

ـــ وما تأويل ذلك ؟

— شر مستطير .

— مثل ماذا ؟

— لا أستطيع أن أقول .

فقال فى إصرار وعناد :

— قولى .. قولى .

فخفضت رأسها وقالت فى نبرات حزينة :

— هذا نذير بموت أحد أحبابى المقربين .

وترقرق الدمع فى عينيها ، فخيل إليه أنها تنعى إليه نفسه ، فارتجف وتفككت مفاصله ، وسمع صوتا خافتا ينبعث من أغوار نفسه ، يهمس فى فحيح كفحيح الأفعى : « انتهيت وحم القضاء ، لم يبق لك على الأرض إلا أيام ». فانقبض صدره ، وراح قلبه ينزف إحساسات الحزن ، ونزل به هم ثقيل .

وغادر البيت وهو حزين ، وانطلق شارد البصر ، لا يرى ما حوله ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يرى ما ينتظره من أحداث بعين خياله ، إنه سيموت وما ترك لأهله ما يشترون به أكفانه ، إنه ينفق مرتبه على بيته ، وما ادخر منه شيئا ، ومن أين يدخر وقد كان يكفيه بشق النفس ، كان يحسب أن العمر سيمتد به حتى يزوج ابنته الصغيرة ، ويسلح ولديه بالعلم ليخوضا معركة الحياة فى أمان . وما خطر له على قلب أنه سيموت فى شرخ الشباب ، مخلفا وراءه يتامى يحيون حياة ذل وكفاف .

وأحس غصة فى حلقه ، وزاد أساه ، ولج فى التصورات ، فرأى نفسه مسجى فى فراشه ، وأولاده يبكون ويصرخون مفزوعين ، وزوجه تذرف الدمع الهتون فى يأس مرير ، فأحس سكينا تقطع قلبه ، ونارا تندلع فى جوفه ، فأطرق فى أسى عميق .



وخطر له فى زحمة الأفكار أن يحسب المكافأة التى ستصرف لزوجه وأولاده بعد موته ، عن الخمسة عشر عاما التى قضاها فى الحكومة ، فألفاها لا تكاد تكفيهم بضعة أشهر . وطغى حزنه . وزاد أساه لما رأى بعين خياله أهله وقد جاءوا بعد أن بلغهم النبأ الفاجع ، وقرروا تشييع جثمانه فى جنازة فخمة ، وإقامة سرادق كبير يليق بالأسرة ، حتى إذا انتهت ليلة المأتم عادوا إلى دورهم ، وتركوا الدائنين يقاسمون زوجه وأولاده مكافأته الضئيلة ، التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وبلغ الديوان وهو فريسة لأفكاره السود ، وانطلق إلى قسم الحسابات ، والتفت إلى زميل له ، وقال فى صوت جاد :

ـــ لى عندك خدمة .

فاعتدل الرجل وقال فى اهتمام .

ـــ خيراً ؟

ـــ أن تسارع إلى صرف نفقات جنازتى إذا جاءك خبرى .

وحسب الحاضرون أنه يمزح فضحكوا ، وقال كاتب الحسابات وهو يبتسم :

ـــ سأبعث إليك بأكفانك مع « مخصوص » .

وجلس إلى مكتبه وهو صامت ساهم ، وراحت الخواطر تتزاحم فى رأسه ، والصور تتلاحق فى مخيلته ، وأرهفت حواسه واستيقظت مشاعره ، فأحس قلبه يدمى أسى وكربا ، وشعر برغبة فى البكاء ، ولكنه خجل من أن يبكى أمام زملائه ، فحبس دموعه ، وراح يجتر آلامه فى صمت بغيض .

ووافى ميعاد الانصراف ، فذهب إلى بيته وهو قلق ، وما دخل مسكنه حتى راح يقلب ناظريه فى شرود فما كان يدرى متى يرى ثانية مسكنه الحبيب .

وأقبل إليه ابنه الصغير مسرورا ، فحمله وضمه إلى صدره فى وله ، وأخذ يلثمه فى وجد ، كأنما يقبله قبلات الوداع الأخيرة . وجاءت زوجه ، فحاول أن يبدو أمامها هادئا ، فاغتصب ابتسامة كلفته جهدا ، ثم ذهبت تجهز له الغداء ، فراح ينظر إليها من خلل دموعه ، وقد أحس يدا قوية تجهز على قلبه ، وتفتت كبده .

وخطر له أن زوجه وأبناءه سيغادرون هذا المسكن ، ليسكنوا غرفة متواضعة ، يجود عليهم بإيجارها بعض أهله ، فأحس رأسه يدور ، وأمعن فكره فى تعذيبه ، فرأى أولاده فى ثياب خلق ، يذهبون فى البكور إلى مصنع من المصانع ، يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس لقاء قروش يمسكون بها رمقهم ، فشعر بإحساسات الحزن تكتم أنفاسه وتضنيه .

وأفاق من تصوراته على صوت زوجه وهى تناديه ليتناول غداءه ، فنهض وهو يحمل ابنه ، وذهب إلى السفرة ، وجلس وهو حاضر بجسمه غائب بفكره ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان مشغولا بالخواطر الحزينة التى كانت تفد إلى رأسه توافد الموج ، وتخز روحه وخزا قاسيا يعذبه ويضنيه .

وذهب إلى فراشه ، وتمدد فيه ليستريح ، ولكن أنى له الراحة وأفكاره تهجم عليه فى إصرار وعناد ، وشبح الفناء الكريه يلازمه فى غدوه ورواحه ، يزلزل الأرض تحت قدميه . ويجرعه الموت غصة بعد غصة ! وهتف به هاتف أن يذهب إلى أمه يودعها ، فغادر فراشه ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى الطريق وأدار عينيه فى الرجال الجالسين أمام حوانيتهم القريبة من داره ، ثم غمغم فى حسرة : « إن هى إلا أيام حتى تشتركوا فى تشييع جثمانى الأخير » .

ودخل على أمه ، فوجدها قاعدة فى ثيابها البيض على سجادة الصلاة ،

ترصد أذان العصر . كانت هادئة هدوء الملائكة ، وكان وجهها صافيا صفاء النفس الراضية ، فسلم عليها ، وجعل يصغى إلى حديثها العذب الحنون ، وكاد حديثها يمسح الحزن الذى ران على صدره ، ولكن قفزت إلى رأسه صورتها وهى واقفة عند جثمانه ، فى ثياب سود تبكى أحر البكاء ، فثارت مشاعر الحزن فى نفسه . وانعكست على وجهه ، فاربد واكفهر ، وغض من بصره ، حتى لا تفصح عيناه عن ألمه الدفين .

وامحت من مخيلته صورتها وهى عند جسده المسجى ، لتحل مكانها صورتها وهى واقفة على قبره تقاسى نار الثكل الأليم ، فهاجت شجونه ، وأحس أن عبراته ستخونه ، فنهض مستأذنا ، وخرج من عندها كعاصفة ثائرة ، ليذرف دمعه فى الطريق .

وسار وهو مهموم ، ولم يرحمه فكره ، بل أوحى إليه أن ينطلق إلى المدافن ، ليزور قبره ، ويقرأ الفاتحة على روح نفسه . فراح يضرب فى مسالك مهجورة ، وهو غارق فى أشجانه . وتلفت حوله وإذا بهمس ينبعث من جوفه يتمتم « اليوم تسير فى هذا الطريق على قدميك ، وعما قريب ستقطعه محمولا على أعناق الرجال ، لتغيب فى التراب ، وتتساوى أنت ومن غادر الدنيا من آلاف السنين » .

ولاح له عن بعد مدافنهم ، فأحس قلبه يهبط فى فراغ صدره ، وراح يدنو من المقابر وهو يحس رهبة ما كان يحسها من قبل ، اتسعت حدقتاه ، وجعل صدره يعلو وينخفض فى تتابع ، فقد كان يلتقط أنفاسه فى كرب وضيق ، وبلغ المدفن ، فألفى بابه موصدا ، فذهب إلى الشباك ، ومد يديه ، وقبض على أعمدته الحديدية ، وأسند إليها رأسه ، وهتف فى صوت أجش صك أذنيه موحشا غريبا :

ـــ سلام إليك يا أبى من ابنك النازل إلى جوارك عن قريب .

ولم يستطع أن يكبت مشاعره ، فانفجر باكيا ، حتى كادت كبده تتصدع من البكاء ، أرخى البكاء ، أرخى الليل ستائره السود ، وصفرت الرياح فى الفضاء العريض ، فبلغت أذنيه كالعويل ، فخيل إليه أن الكون يبكيه ، فسار مطرق الرأس ، منقبض النفس ، يجر رجليه فى يأس مرير .

ومس أذنيه صوت المؤذن وهو يدعو الناس إلى الصلاة ، فرفع رأسه إلى السماء ، وراح يبتهل فى خشوع أن يغفر له ، وأن ينزله منازل الأبرار والصالحين ، وأحس فى تلك اللحظة أنه أقرب ما يكون إلى ملكوت السماء ، فلج فى الدعاء ، وقد سالت عبراته على خديه ، فلطفت من وقدة النار التى كانت تلتهم جوفه ، وسرى فى صدره أمن لطيف .

ودخل داره ، وراح يداعب أولاده ، وهو يبدى لهم الغبطة والسرور ، وإن كان يحس خنجرا يمزق قلبه تمزيقا ، وظل يلاعبهم حتى غلبهم النوم فناموا ، وخلا بزوجه ، وخطر له أن يوصيها بهم خيرا ، فما كان ذلك بتدبيره ، كان يأمل أن يبقى بينهم ليسعدهم ، ويحقق أحلامهم ، ولكن الموت جاءه وقوض آمالهم ، وفرق بينه وبينهم ، وأرغمه على أن يتركهم لمصيرهم المجهول . ولكنه لم يجد فى نفسه الجرأة التى تمكنه من التحدث فى ذلك الموضوع الدقيق ، فذهب إلى فراشه ، واندس فيه .

وراحت الذكريات ، تنهال على رأسه ، فرأى نفسه صبيا يلعب مع الصبيان ، وتلميذا يساق إلى مدرسة ، كما يساق المرء إلى سجن بغيض ، وطالبا تفتحت أمامه الآمال ، وخطيبا ملأ صدره الحب ، وزوجا سعيدا ، وأبا كريما ينكر نفسه ليسعد أهله . وراح يجتر حوادث الأيام فى وضوح ، وقفزت إلى ذهنه ذكريات حسبها انداحت فى لجة النسيان ، وأخذت حياته

تمر أمام ناظريه كشريط سينمائى ، فأفعم بالمشاعر والإحساسات ، وهاله أن حياته وذكرياته ستندثر ، وتمضى كأمس الدابر لا يحفل بها إنسان ، فخطر له أن يسجلها قبل أن تنمحى الفقاعة الصغيرة فى المحيط ، واحتل ذلك الخاطر تفكيره . وأيده أنه يستطيع أن يسطر لزوجه ما يحسه من مشاعر وخلجات ، وأن يبثها ما عجز عن أن يكاشفها به من لحظات ، دون أن يضطرب أو يخشى أن تعقل لسانه قسوة المناجاة ، إنه يستطيع أن يعتذر لأبنائه الصغار عن ذلك الفراق الذى قوض مستقبلهم ، حتى إذا كبروا عرفوا أنه ما كان له يد فيما وصلوا إليه من مآل .

وألفى نفسه عبدا لذلك الخاطر الذى جعل يلح عليه ، ملأت أقطار نفسه رغبة تسجيل حياته ، فنهض وذهب إلى مكتبه ، وأدار الزر الكهربى ، وجلس وراح يسطر على القرطاس حياته ، فى عناية وتوفيق ، وخيل إليه أن عينيه تهتكان حجب الماضى ، وتبصران كل شيء فى جلاء ووضوح ، فها هو ذا البيت الذى نشأ فيه من عشرات السنين ماثل أمام عينيه زاخر بالحياة ، وها هى ذى أمه وها هو ذا أبوه ، وها هم أولاء رفقاء الصبا ، وهنا الزقاق الذى مرح فيه ، واسترسل فى الكتابة ، فارتفع نبضه ، وتدفقت إحساساته فوارة دافقة ، وراح قلبه يدق فى قوة ، واحتشدت فى صدره المشاعر الزاخرة ، وتقضت الساعات وهو يكتب فى حماسة ، كأنما يخشى أن يتخطفه الموت قبل أن ينتهى مما هو فيه .

وفى هجعة الليل ، دقت ساعة الحائط النصف بعد الثانية ، وهو غارق فى عمله ، وأحس كأن مطارق تدق رأسه ، فأسنده إلى ذراعيه ، فراح فى سبات ، وما تسلل أول خيط من خيوط الفجر إلى غرفته حتى هب من نومه ، واستأنف ما كان فيه .

ووافى ميعاد ذهابه إلى الديوان ، فخرج وهو مشغول بقصة حياته ، ومرت الساعات وهى فى تفكير عميق ، حتى إذا ما انتهى من عمله الحكومى ، عاد إلى بيته مسرعا ، ودخل فراشه ليستريح قليلا ، ولكن لم تهدأ له خالجة ، و لم تغمض له عين ، كانت الأفكار تتزاحم فى رأسه ، والمشاعر تضغط على صدره ، وتلح عليه فى إصرار وعناد ، فلم يجد مفرا من مغادرة فراشه ، والدخول إلى مكتبه ، ليفرج عن أفكاره ، وينفس عن مشاعره التى كانت تضنيه .

وكرت الأيام وهو مسترسل فى الكتابة ، وفى يوم جاءته زوجه وقالت له :

— إنى ذاهبة لأعود أمى .

— ماذا بها ؟

— جاءتنى خادمتها ، وأنبأتنى أنها مريضة .

فقال لها وهو يحدق فى الورق المنشور أمامه :

— تفضلى .

فقالت له فى تحريض :

— هل تأتى معى ؟

وهم بأن يعتذر ، ولكنه لم يشأ أن يغضبها قبل أن يموت ، فقال لها :

— وهل فى ذلك شك .

وراح يرتدى ملابسه ، وخطر له خاطر ، فغمغم : يا للعجب ! ميت يعود مريضا !

وانطلقا حتى إذا دخلا على المريضة ألفيا حجرتها تغص بالزوار ، فاتجها إليها ، وسلما عليها ، ثم قعدا مع القاعدين . وأدار عينيه فى المكان ، فرأى

الحاضرين مطرقين ، فسمع همسا ينبعث من أعماقه يهمس : « لو كانوا يعلمون من أمرى ما أعلم لتركوها والتفوا حولى أنا ، فإنى سأفارقهم إلى الأبد عما قريب ، ليودعونى الوداع الأخير » .

وراحت عجلة الزمن تدور وهو غارق فى الكتابة ، وفى ليلة من الليالى نام مبكرا ليريح ذهنه المكدود ، وراح فى سبات عميق ، وسمع وهو نائم طنينا ، فلم يحفل به ، حسب أنه يحلم ، ثم صك أذنيه بكاء وشهيق ، فهب من نومه مرعوبا مفزوعا ، ووضع يده على قلبه ، ليرى ألا يزال ينبض بالحياة .

وتلفت خافق القلب ، فرأى زوجه تنشج بالبكاء . فقال لها فى لهفة :

ـــ ماذا جرى ؟

فقالت فى صوت تخنقه العبرات :

ـــ أمى .

ـــ ماذا دهاها ؟

ـــ ماتت .

فأطرق ، وأخذت إحساسات الرهبة والخوف تنقشع عن صدره وانبلجت الحقيقة ناصعة أمام عينيه ، لقد تحقق حلم زوجه ، وذهبت أمها ، ولم يعد هناك ما يخافه أو يخشاه ، فأحس سرورا يغمره ، سرور من أطلق سراحه بعد أن حكم عليه بالموت .

وقبرت حماته ، وعاد إلى داره وهو مفعم بالغبطة ، ودخل مكتبه ، وراح يقرأ فى هدوء ما كتبه من قصة حياته . فعجب . واشتد عجبه ، إنه لم يسبق له أن كتب شيئا ، وما كان يعرف أنه قادر على أن يكتب ذلك الذى يقرؤه الساعة مأخوذا مشغوفا ، كانت الصفحات التى يكتبها زاخرة بالحياة ، إنها ومضات فكر ، ونبضات قلب ، وذوب نفس .

ما كان يعرف أنه أديب ، إن ذلك الحلم الرهيب حرك مشاعره وإحساساته ، وفجر فى صدره ينبوع الفن ، وأضاء فى نفسه الشعلة المقدسة ، وسره أنه وجد نفسه أخيرا ، فاستأنف كتابة قصة حياته وهو نشوان يحس كأنما خلق من جديد .

امرأة أعمال

انطلق يترفق فى سيره حتى بلغ نهاية ترام الجيزة ، ففكر فى أن يقفل عائدا إلى بيته ، فقد تجاوزت الساعة التاسعة مساء ، ولكن الليلة كانت من ليالى الصيف النادرة التى يستحب السير فيها ، فالنسيم يهب رقيقا ينعش الأفئدة ، وضوء القمر الساحر فرش الأرض ببساط فضى أخاذ ، يستولى على المشاعر ، والهدوء الشامل يريح الأعصاب المكدودة ، فأغراه كل هذا أن يستمر فى سيره ، فلم يشعر إلا وهو فى أول طريق الهرم ، يرنو إلى الأرض الخضراء ، فتشيع فى صدره نشوة خفيفة ، والسيارات الفخمة التى تمر به ، فكان يلتفت إليها لفتة ثم يستأنف سيره .

كان شابا لم يحتفل بعد بعيد ميلاده الثلاثين ، طويل القامة ، ممتلئ الجسم قليلا ، ناصع بياض الوجه ، له عيناه تمتازان ببريق أخاذ ولولا امتلاء جسمه ، واتساع فمه ، لكان من أبطال الروايات الرومانتيكية ، وابتعدت السيارات عنه ، فساد الطريق سكون .. لم يكن يعكره إلا نقيق الضفادع وحفيف الشجر .

وبلغ سمعه صوت سيارة مقبلة ، فانحرف إلى الطوار ، ليفسح لها الطريق ولكنه أحس بها تتمهل ، فالتفت خلفه ، فألفى سيارة صغيرة فخمة تدنو منه ، حتى إذا ما صارت بجواره فتح بابها ، فتطلع داخلها ، فرأى خلف عجلة القيادة فتاة مليحة حلوة ، فخفق قلبه اضطرابا ، واستولت عليه رهبة

وارتباك ، وتسمر فى مكانه لا يدرى ما يفعل ، وفطنت الفتاة إلى ارتباكه ، فأشرق وجهها بابتسامة مطمئنة وقالت :

— تفضل .

وبقى فى اضطرابه ، فلم تهدأ نفسه بعد ، فقد كانت مفاجأة مباغتة ما كان يتوقعها أو يحلم بها ، ولكنه لم أطراف شجاعته التى تناثرت ، واغتصب ابتسامة بدت باهتة لا مدلول لها ، ثم تقدم إلى السيارة وما مد رجله فيها حتى سمعها تهمس :

— نزهة بريئة .

وما أن أغلق باب السيارة خلفه ، حتى انطلقت فى طريقها ، وظل مدة لا يجد لسانه ، ولا يدرى ما يقول . وحدجها بنظرة ، فأذهله حسنها ، وزاد فى اضطرابه ، كانت جميلة رائعة الحسن ، وقد تفننت يد ماهرة فى إبراز ذلك الجمال ، فالظلال الخفيفة التى ظللت بها الجفون زادت فى سحر العيون ، والأحمر الذى وزع فى صفحة الوجه فى دقة ، جعله قطعة رائعة من القطع الفنية الممتازة ، وظل متقبضا فى جلسته ، فرنت إليه بطرف عينيها ، وقالت فى سخرية خفيفة :

— خائف ؟

فقال فى صوت متهدج يبدو فيه الاضطراب :

— من جمالك .

فابتسمت وقالت :

— اقترب وتكلم بحرية .

فاقترب منها قليلا وقد هدأ روعه بعض الشىء ، ووجد لسانه فقال :

— كما يتكلم الرجل إلى الرجل ؟

ـــ لا . لا أقبل هذا .

ـــ ولم ؟

ـــ لا أقبل أن أكون رجلا ، ففي الرجال تردد ، وأنا أمقت التردد ، فلنتكلم بصراحة كما تتكلم امرأة إلى امرأة !

فأحس عرقا باردا يتفصد من جبينه ، وخشى أن يفقد لسانه ثانيه ، فقال :

ـــ متزوجة ؟

ـــ ولماذا هذه الإهانة ؟

ـــ إهانة ؟

ـــ أجل ، وهل تراني خاملة ؟! ألا ترى فى صفات ممتازة لا تتوافر فى زوجة ؟!

فابتسم وقال فى خبث :

ـــ بل فيك جميع الصفات التى تبعدك من أن تكونى زوجة .

ـــ إنى أدير أعمالا .

ـــ أى نوع من الأعمال ؟

ـــ توريدات .. عطاءات .. استيراد .. إصدار .. ما بالك مبتعدا هكذا ، اقترب .. يخيل إلى أن ذراعك عاطلة !

فاقترب منها ، ولف ذراعه حولها ، وقال :

ـــ ولكن هذه أعمال صعبة تحتاج إلى خبرة ومؤهلات .

ـــ ما أكثر إهانتك لى ، ألا تعجبك مؤهلاتى .

ـــ تعجب الباشا ، ولكن كيف بدأت ؟

ـــ حقا ما أصعب البداية ، قرأت عن عطاء فى مصلحة من المصالح ،

فخطر لى أن أجرب حظى .

ـ تقصدين مؤهلاتك .

ـ من حسن حظى أن مؤهلاتى ممتازة ، تقدمت فى العطاء .

ـ ولكن ليس لك الحق فى التقدم فما عندك سجل تجارى .

ـ تريث فقد وجدت التاجر الذى يمنحنى اسمه وسجله .

ـ قريب عطف عليك ؟

ـ لا تذكر العطف من فضلك ، فإنى لا أحب أن يعطف على أحد ، كان رجلا قدر مؤهلاتى .

ـ ثم ماذا ؟

ـ كان لابد أن أزور رئيس اللجنة التى ستبت فى العطاء ، فذهبت إليه وأنا مضطربة بعض الاضطراب ، كما أنت مضطرب الآن .

ـ ولكنى لست مضطربا .

ـ إن جميع أفعالك تدل على الاضطراب .. اقترب .. كان الرجل لطيفا . فما فاتحته فى الموضوع حتى وعدنى أنه سيبذل كل ما فى وسعه ، وواعدنى اللقاء لنتناقش فى الموضوع فكان رجلا خبيرا بالأعمال .

ـ ورسا عليك العطاء .

ـ ليس بهذه السهولة ، فقد شئت أن أضمن موافقة بقية الأعضاء ، فمررت عليهم ، ورسا على العطاء ، ولكن قامت عقبة .

ـ إن مؤهلاتك الممتازة تذلل جميع العقبات .

ـ انتظر ، لم يكن معى المال الذى أشترى به الأصناف التى سأوردها .

ـ مئون من التجار يعطونك البضاعة على الحساب ، إكراما لمؤهلاتك إلى أن تسدد لك الوزارة قيمة العطاء .

— لن أقص عليك شيئا بعد أن عرفت قيمة مؤهلاتى .

فابتسم وقال :

— بالله قولى .

— لم يبق ما أقوله ، فمؤهلاتى الممتازة فتحت فى وجهى جميع الأبواب .

وكانت السيارة قد ارتقت منحدر الأهرام ، ووقفت عند السفح ، ففتحت السيارة وهبطت ، فأسرع إليها ، ففحصته بنظرة سريعة وهو منتصب أمامها ، وقالت :

— أتقبل أن تعمل سكرتيرا لى ؟

— وما عملى ؟

— إن جميع معاملى مكتبى من الرجال ، فلو أنك عملت بمكتبى لأمكننا أن نجذب بعض النساء .

— قبلت ، وما عنوان المكتب ؟

— تريث ، لن أذكر لك العنوان إلا بعد أن تجتاز الاختبار .

— متى الاختبار ؟

— أنت الآن فى عز الامتحان .

وانطلقا وأقدامها تسوخ فى الرمال ، حتى بلغا مكانا منعزلا وجلسا ، ثم مالت إلى الخلف قليلا ، وقالت :

— اقترب ، مم تخجل ؟ أمن القمر الذى يشرف علينا ، أم من الأربعين قرنا التى تطل علينا من قمة الأهرام ؟

فضحك وقال :

— لقد أصبحت اثنين وأربعين .

واتقضى الوقت وهما لا يشعران ، وتذكر فجأة أنه تأخر عن العودة إلى

البيت ، فقال :

ـــ تأخرنا كثيرا .

فنظرت إليه فى امتعاض وقالت :

ـــ ألك أهل ؟

ـــ وهل هناك من ليس له أهل ؟

ـــ أقصد هل لك أهل يهمهم أمرك ؟

ـــ لى أم وأخوات .

وهبت واقفة ، فنهض وسارا حتى إذا ما وصلا إلى السيارة هم بأن يركب ، فالتفتت إليه وقالت :

ـــ آسفة ، البطارية ضعيفة ، وتحتاج السيارة إلى دفعة ، ادفعها من الخلف .

وركبت وأغلقت أبواب السيارة جيدا ، واستدار ليدفع السيارة من الخلف ، وقبل أن يهم بدفعها سمع المحرك يدور ، وإذا بالسيارة تنطلق كالسهم ، لقد خدعته ، لتتخلص منه ، فوقف يرقبها وقد امتلأ صدره غيظا وحنقا ، وغابت عن عينيه ، فسار مطاطئ الرأس ، كسير الفؤاد ، يحس إحساس الذل الذى يحسه من رسب فى الامتحان !

قصة حب

جلست مطرقا أفكر ، فشغلت عما حولى بما تزاحم فى رأسى من مشاهد ، وعاوننى على الاسترسال فى تفكيرى وجودى فى عربة القطار وحدى ، وبقيت سابحا فى بحور الخيال ، وقد انتشرت فى صدرى إحساسات حزينة ، كان قلبى يتجاوب مع أفكارى ، فينقبض وينزف أسى ومرارة .

وأحسست حركة بجوارى ، فرفعت رأسى ، فألفيت فتاة طويلة القامة ، متناسقة الجسم ، ناهدة الصدر ، رائعة الحسن ، شعرها كأسلاك الذهب ، ارتدت ثوبا أسود زاد فى فتنتها ، فرنوت إليها ، وهى تذرع الممر ، وجسمها يتثنى فى روعة ، فأحسست الحزن الذى ران على صدرى ينقشع كما ينقشع الظلام إذا بهره الضياء .

ابتعدت عنى خطوات ، واستدارت فى رشاقة ، فتموج جسمها كما يتموج غصن رطيب داعبه الهواء ، وأقبل عليها خادم القطار ، وتناول تذكرتها ، ثم سار أمامها ، وأشار إلى المقعد المقابل لمقعدى ، فانشرح صدرى ، فستجلس أمامى أتملى من حسنها سبع ساعات .

وضعت حقيبتها ثم قعدت ، وتحرك القطار مغادرا أمستردام ، وما انساب مخلفا المدينة خلفه ، حتى نهضت بقامتها الفارعة المتناسقة ، وأخذت تحاول أن تفتح الشباك ، فقلت لها بالفرنسية :

ــ إنه ثابت .

فقالت فى صوت رقيق :

ـــ متشكرة .

وقعدت وأنا أنظر إلى وجهها فى إعجاب ، كانت عيناها غريبتين . وخيل إلىّ أنهما فى زرقة البحر ، ولكن سرعان ما تبدل لونهما فكانتا فى لون البنفسج ، ثم تبدل لونهما مرة أخرى ، فكانتا فى لون الفيروزج ، أو كأنما كانتا بلورتين يرى فيهما ألوان الطيف ، أو عينى هرة لا يثبت لهما لون .

وفطنت إلى أننى أرمقها فى إعجاب ، ولعل وجهى فضح سرى ، فقالت بالإنجليزية فى بساطة :

ـــ لماذا تنظر إلى هكذا ؟

فقلت وقد انفرجت شفتاى عن ابتسامة هادئة :

ـــ عيناك !

ـــ ماذا بهما ؟

ـــ سحر .

فتوجت شفتيها ابتسامة رقيقة ، وقالت :

ـــ من أين أنت ؟

ـــ من مصر .

فشردت ببصرها وقالت :

ـــ بلاد السحر والأسرار .

فقلت فى انشراح :

ـــ وأين سحرها من سحر عينيك .

فانبسطت أساريرها . وبرقت عيناها ، ولاح عليها الانشراح ، ورأيت أن يظل حبل الحديث بيننا موصولا ، فقلت لها فى تساؤل :

ـــ باريسية ؟

فقالت وقد زوت ما بين حاجبيها :

ـــ ما الذى جعلك تحسبنى باريسية ؟ آه .. مشيتى من غير شك . حسبنى كثير من الناس باريسية بسبب مشيتى .. إننى لا أحب أن أكون باريسية .. إننى هولندية .

ـــ من أمستردام ؟

ـــ من هارلم .

ـــ مدينة الأزهار ! إنك أروع زهرة فيها بلا جدال .

فتهلل وجهها فى براءة ، وقالت وهى ترنو إلى بعينيها الساحرتين :

ـــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

أحسست سحابة الكدر تعود لتنتشر فى صدرى ، وقلت فى صوت فيه رنة أسى :

ـــ جئت لزيارة صديقة .

فقالت وهى تنظر إلى ، وعلى شفتيها ابتسامة :

ـــ لعلك وجدت فى زيارتها سعادة لقلبك .

فقلت فى سخرية :

ـــ وجدت إحدى الراحتين .

ـــ ماذا وجدت ؟

ـــ اليأس المرير .

ـــ لماذا ؟

ـــ خطبت ، فانقطع بذلك كل ما كان بيننا .

وسكت ، فساد الصمت بيننا ، ونظرت من خلل النافذة المجاورة ، فرأيت المزارع النضرة مترامية على مدى البصر ، وطواحين الهواء متناثرة هنا

وهناك ، لا يشوه ذلك الجمال إلا آثار الدمار الذى خلفه الألمان ، و لم أنتبه لنفسى إلا على صوتها ، وهى تقول :

ـــ فيم تفكر ؟

ـــ فيك !

فقالت فى صوت نم عن غيرة :

ـــ بل فيها .

ـــ انتهى كل شىء بيننا ، وما كنت ممن يجرون وراء الأوهام .

ـــ هذا كلام عقلك ، فما رأى قلبك ؟

ـــ فقد هولندية ، فعوضه الله خيرا منها .

ـــ مجاملة ولا مراء .

ـــ بل الحق الصراح .

ورفت على شفتيها ابتسامة ، والتمعت عيناها العجيبتان ببريق خاطف ، وقلت لها فى اهتمام .

ـــ إلى أين أنت ذاهبة ؟

ـــ إلى بروكسل .

ـــ وماذا تفعلين هناك ؟

ـــ دعانى عمى لتمضية بضعة أيام .

ـــ وأين تنزلين ؟

ـــ فندق سيرو ، عمى ينتظرنى هناك .

ـــ يا لحسن حظى ، السماء راضية عنى اليوم .

ـــ لماذا ؟

ـــ ستنزلين نفس الفندق الذى أنزل فيه .

ورحنا أنا ومرجريتا نتجاذب أطراف الحديث ، وراح كل منا يقص نتفا من حياته حتى بلغنا بروكسل ، فحملت عنها حقيبتها . ثم ركبنا سيارة انطلقت بنا إلى فندق سيرو . كانت الغبطة تملأ جوانحى ، فقد كانت مرجريتا تختلف عمن قابلت فى طرقات لندن وباريس ، إنها فتاة مثقفة ، حصلت على أكثر من شهادة ، فى اكثر من فرع من فروع التخصص .

وبلغنا الفندق ، فهبطنا من السيارة ، ثم دلفنا إلى الردهة الواسعة ، ووقفت مرجريتا تقلب عينيها فى أرجاء المكان ، وغمغمت :

ــ لم يأت بعد .

فقلت لها :

ــ تعالى معى .

وانطلقنا حتى إذا بلغنا حجرتى ، فتحت الباب ودخلت ، ثم قلت لها :

ــ تفضلى .

تضرجت وجنتاها بلون الدم ، وقالت فى انفعال :

ــ ماذا تظننى ؟! أتحسبنى باريسية ؟

فقلت ببرود :

ــ أعرف أنك هولندية .

فقالت وهى ثائرة :

ــ ما كان لهولندية تحترم نفسها أن تدخل غرفة رجل غريب .

فقلت فى عدم اكتراث :

ــ دعوتك مجاملة ، لا بأس من أن تنتظرى عندك حتى أصلح ما أفسده السفر .

وتركتها عند الباب ، وأخذت أمشط شعرى ، وأصلح هندامى ، ثم

خرجت إليها ، وهبطنا إلى الردهة ، وقعدنا نرصد قدوم عمها .

ومرت لحظات وهى تقلب عينيها فى الوافدين ، ثم انبسطت أساريرها ، ونهضت خفيفة وهى تغمغم :

— عمى .. جاء عمى .

وتقدم الرجل منها ، وصافحها وهو يلاطفها ، ونظر إلى . فقدمتنى إليه ، ورأيت أن أنسحب ، فاستأذنت .

ودخلت غرفتى ، وأغلقت بابى خلفى ، وتمددت فى فراشى ، فاحتلت مرجريتا ذهنى ، وراح خيالى يحضرها بقامتها الطويلة المتناسقة ، وهى تتثنى فى مشيتها ، فتدب النشوة فى بدنى . ولججت فى تصوراتى ، وأنا لا أحس مرور الزمن ، حتى سمعت رنين التليفون ، فانتبهت من أحلام يقظتى ، ورفعت السماعة ، ووضعتها على أذنى ، فخفق قلبى ، كان صوت مرجريتا العذب ينسكب فى أذنى ، فيوقظ مشاعرى ، ويرهف حواسى .

راحت تسألنى عن حالى ، كأنما لم نفترق من لحظات ، وأحسست رغبة فى لقائها ، فقلت لها :

— تعالى نتغدى معا .

— دعانى عمى للغداء .

فقلت فى إصرار :

— وأنا أدعوك للعشاء .

وأقبلت فى المساء ، بقامتها الفارعة الرائعة ، فانطلقنا معا نتجاذب أحاديث شهية ، ودلفنا إلى مطعم من المطاعم ، وجيء بالطعام ، فأخذنا فى تناوله والعيون تتحدث ، والقلوب تخفق لحديث العيون ، وغادرنا المكان لنجوس خلال المدينة ، فرحنا نضرب على غير هدى ، وما رأينا من المدينة إلا أنوارا

تتلألأ ، وأناسا يمرون بنا مرور الأطياف ، فقد كنا غارقين فى حديثنا ، وكان ألذ ما فى الوجود .

وتصرم الوقت ، ورأينا أن نعود إلى الفندق ، بعد أن اتفقنا على أن نتقابل فى الصباح ، للذهاب لزيارة معالم بروكسل وآثارها . وانطلقنا حتى بلغنا الفندق ، فدخلنا وأنا مفعم بالنشوة ، وما إن بلغنا حجرتى حتى فتحت بابها ، وقلت لها وأنا أبتسم :

— لا تتفضلى .

فأشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وذهبت إلى حجرتها .

واندسست فى فراشى ، وقد احتل طيف مارجريتا أقطار رأسى ، وطاف النوم بى ، فرحت فى سبات ، حتى إذا أصبح الصباح ، رن جرس التليفون ، فتناولته ، فألفيت مرجريتا تدعونى للخروج ، فقمت منشرحا أرتدى ثيابى ، وما انقضت دقائق حتى سمعت طرقا خفيفا على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدتها فى ثوب بديع من ثياب الصباح ، فحييتها وتركتها عند الباب ، دون أن أدعوها للدخول ، وذهبت أكمل ارتداء ملابسى .

وخرجنا معا ، وفيما نحن سائران وقعت عيناى على محل يبيع الثياب ، فيممنا شطره ، وأخذت أشترى بعض حاجات لى . ثم قدمت إليها جوربا من « النيلون » ، فاربد وجهها ، وضاقت عيناها الساحرتان ، وقالت فى غضب :

— إذا لم تقلع عن هذا الأسلوب ، غادرتك فى الحال .

— هدية متواضعة .

فقالت فى حدة :

— لا .

فهززت كتفى ، وتركت الجورب ، وخرجنا نستأنف ما كنا فيه من حديث .

ومرت الأيام ونحن لا نفترق ، نتقابل فى الصباح ، ونتقابل فى المساء ، ونعود إلى الفندق فى هجمة الليل والناس نيام . واستيقظت فى جوفى مشاعر الحب الجبار ، فكرت أكثر من مرة فى أن أطوقها بذراعى ، وأضمها إلى صدرى ، لأطفئ لهيب النار الذى يحرق كبدى ، ولكننى كنت أحجم ، وأكبت مشاعرى . وكنا نمر على حجرتى فى كل ليلة ، فأحييها تحية المساء ، وألج باب حجرتى ، دون أن أدعوها للدخول .

وفى ليلة من الليالى قلت لها ونحن نلج باب الفندق :

ـــ سأغادر بروكسل بعد أربعة أيام .

ونظرت إليها ، فخيل إلى أن وجهها قد اكفهر ، وهمست فى نبرات خافتة حزينة ، عبثت بأوتار قلبى :

ـــ هكذا سريعا !

ـــ سأذهب إلى باريس ، ومنها إلى القاهرة .

وساد صمت بغيض ، ثم قالت :

ـــ ألا تؤجل سفرك ؟

ـــ لا أستطيع .

وعاد الصمت ثانية ، وانطلقنا مطرقين دون أن ينبس أحدنا بكلمة ، حتى إذا بلغنا باب حجرتى ، رفعت رأسى لتحيتها ، فهالنى ذلك العبوس الذى ران على الوجه الجميل ، وحز فى نفسى ، فأحسست بأن إبرا تخز روحى ، وهممت بأن أضمها إلى ، ولكننى كبحت جماح نفسى ، وألقيت عليها تحية المساء ، ودخلت غرفتى ، وفى قلبى شجن .

ارتميت فى فراشي ، وقد تآمرت على حواسي ، كان فكرى يفكر فيها ، وقلبى يخفق لطيفها ، وكبدى تهفو إليها ، وكل جارحة من جوارحى تحن إليها وتشتهيها ، وبقيت فريسة لأفكارى تعذبنى وتضنينى ، وفى ذلك الهدوء الذى هيج مشاعرى ، رن التليفون ، فهرعت إليه ، فإذا بها تقول فى صوت متهدج هز كيانى :

— حسين ، نمت ؟

— لا يا مرجى ، لم يطف النوم بعينى .

— وأنا لا أستطيع النوم ، انتابتنى وساوس وأفكار .

وكدت أضعف وأبثها وجدى ، وأشكو إليها كربى ، ولكنى كبحت جماح نفسى ، وقلت لها وأنا أكافح ما بى ، وأغالب قلبى :

— نامى يا مارجى ، وأتمنى لك أسعد الأوقات .

وأغمضت عينى ، ولكن النوم نأى عنى ، واستيقظت مشاعـرى ، وراحت الخواطر التى تدور حول الاعتراف لها بحبى تتولد فى رأسى ، وتنمو وتشتد ، وقلبى يغذيها بالإحساسات التى تتدفق منه حارة فوارة ، حتى أحسست خورا يدب فى عزيمتى ، ودموعا تبلل مقلتى . وبينا أنا فريسة لأفكارى سمعت طرقا على الباب ، فنهضت مسرعا وفتحته ، فوجدت مرجريت واقفة وفى وجهها عبوس ، وفى عينيها دموع ، فتطلعت إليها مشدوها ، وهى تدخل لأول مرة إلى حجرتى ، ودموعها تجرى على خديها ، وارتمت على مقعد قريب من فراشى ، فدنوت منها . وقلت لها فى صوت أشبه بالصوت المنبعث من خشب يتكسر :

— ماذا يا مرجى ؟

— لا تتركنى ، خذنى معك ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .



وانهمرت دموعها ، فضممتها إلى صدرى ، ورحت أغمغم فى وله :

ـــ مارجى .. مارجى .

فقالت فى توسل والعبرات تخنقها :

ـــ لا تتركنى . لا تتركنى ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .

ـــ هذا فوق مقدورنا .

ـــ ولن أدعك تسافر وحدك .

ـــ مرجى !

ـــ لن أكون عبئا عليك ، إنى أستطيع أن أعمل .

فقلت لها لاهدىء من انفعالها :

ـــ غدا يا مارجى نتحدث فى هذا الأمر .

ـــ كل ما أريده أن أكون بقربك .

وظلت مارجى تسح الدموع ، وأنا أهدىء من روعها ، والنار تشوى جوفى والغصة تحتل حلقى ، وتقضت ساعات ونحن نقاسى ثورة مشاعرنا الطاغية ، ثم انسلت إلى حجرتها وفى وجهها أسى ودموع .

وأسفر الصبح ، ودق التليفون ، فتناولته فإذا بمارجى تسألنى أن أتأهب للخروج ، ثم مرت على وخرجنا واجمين ، كان كل منا مشغولا بأفكاره ، وانطلقنا حتى إذا بلغنا حديقة قريبة من الفندق دلفنا إليها ، وقعدنا على مقعد ، ونحن صامتان .

والتفتت إلى بعينيها العجيبتين اللتين بدا فيهما آثار البكاء ، وقالت فى صوت حزين :

ـــ لا أدرى كيف أدعك تسافر وتتركنى !

ـــ لو كان الأمر بيدى ما تركتك .

ـــ وماذا يحول بينى وبين أن أسافر معك ؟

ـــ لابد من اتخاذ إجراءات طويلة قبل دخولك مصر .

ـــ إنى أستطيع أن أمارس التمريض ، وقد حصلت على شهادة عالية فى التدليك ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، إننى مطلوبة فى لندن وإندونيسيا .

ـــ سأذلل عقب عودتى إلى مصر العقبات التى تعترض ذهابك إليها ، ثم أستدعيك .

فقالت فى صوت متهدج :

ـــ لن أكون عبئا عليك ، كل ما أرجوه أن أعيش حيث تعيش . وخفق قلبى ، ولو طاوعته لقلت لها : لن أدعك لحظة واحدة ، ولكن ما معى من مال كان قد تبخر ، وهو كل ما أملك ، وما كنت أحب أن أصحبها معى إلى مصر ، وأنا خالى الوفاض ، ولو كنت أملك مالا لحملتها معى إلى مصر ، لأريح الفؤاد العاشق الولهان .

وجاء الليل ، وخرجنا معا ، ولكن مارجى لم تكن فى هدوء الصباح ، عادت تتوسل إلى أن آخذها معى ، والدموع تترقرق فى عينيها ، وخشيت أن تنفجر بالبكاء فى الطريق ، فأشرت عليها أن نعود إلى الفندق ، فوافقت ، وعدنا من حيث جئنا ، ودخلنا غرفتى والأسى يلوح فى وجهينا .

واستسلمت مارجى للبكاء ، فآلمتنى دموعها ، وحزت فى روحى ، ولم أطق أن أراها فى نشيجها ، فذهبت إليها ، وضممتها إلى صدرى . وأخذت أغمغم فى توسل :

ـــ كفى .. كفى أرجوك .

فهمست وقد خنقتها عبراتها :

ـــ ليتنا لم نتقابل ، ليت عينى لم تقعا عليك .

فقلت لها فى عتاب :

ــ أحاقدة على يا مارجى ؟!

فقالت وهى ترنو إلى فى وجد :

ــ أبدا .

وصمتت قليلا ، ثم أردفت فى وجد :

ــ إننى لست كالفتيات اللاتى قابلتهن فى طرقات لندن وأمستردام وباريس ، إننى مخطوبة ، وخطيبى من خيرة شباب هارلم ، وها أنا ذى أعرض عليك أن تأخذنى معك ، فتفر منى.لقد انتهيت .. انتهى كل ما كان بينى وبين خطيبى ، ولن أعود إليه .

فقلت لها فى حرارة :

ــ أقسم لك يا مارجى أنى سأبعث إليك ، حينما أذلل الصعاب التى تعترض قدومك إلى مصر ، لنعيش سعيدين .

فقالت وقد شردت ببصرها :

ــ لكأنما ذلك حلم من الأحلام .

ووافت الليلة الفاصلة ، آخر ليلة أقضيها فى فندق سيرو قبل ذهابى إلى باريس ، فى طريقى إلى مصر ، لم نغادر الفندق ، بل تلاقينا فى حجرتى للوداع ، كانت مارجريتا شاحبة اللون ، عابسة الوجه ، ظللنا نتبادل النظرات ، ونحن صامتان ، وإن كانت مشاعرنا تمور فى صدرينا ثائرة دافقة ، وفتحت حقيبتها ، وأخرجت منها قداحة ، وقدمتها إلى وهى تقول :

ــ ليس معى غيرها ، خذها لتذكرنى بها .

تناولت القداحة خافق القلب ، ثم نهضت واتجهت إليها ، وألبستها عقدا وقرطا كنت قد اشتريتهما لها ، وكنت أرقب الفرصة المناسبة لأقدمهما لها

دون أن أغضبها ، فأخذت تتحسس العقد بيدها ، ثم قامت إلى المرآة ، ونظرت إلي صورتها ، وملأت الدموع مقلتيها .

وأصبح الصباح ، فهبطنا إلى قاعة الفندق ، وأنا منقبض النفس ، تكاد دموعي تفر من عيني ، وانطلقنا إلى المحطة ، وحان أوان الوداع لما دق الجرس مؤذنا بتحرك القطار ، فامتزجنا في عناقنا كأنما نتزود لدهر لا ندري مداه ، وتحرك القطار وهي متشبثة بعنقي ، تتحرك معه ، ثم ارتخت ذراعاها شيئا فشيئا ، ووقفت ترنو إلى من خلال دموعها التي ملأت عينيها الحبيبتين .

وراح القطار ينهب الفضاء ، وبقيت في مقعدي مطرقا ، كنت نهبا لأفكاري السود ؛ ساءني أنني خلفت حبي ، ومزقت قلبي ، كانت مارجريتا بهجة نفسي ، تملأ دنياي حياة ، فإذا بها تصبح طيفا يزورني ، وذكرى تحرك الأشجان .

وهبطت باريس ، وفي القلب لوعة ، وفي الرأس أفكار ، فشغلت بنفسي عما حولي ، وانطلقت إلى فندق من فنادقها الغاصة بالحسان ، ولكنني انزويت في حجرتي ، ترافقني عينا مارجريتا الساحرتان الآسرتان . وأحسست حنينا عجيبا إليها ، فبعثت أدعوها لتقبل إلى باريس ، وألحفت في الرجاء ، ولكنها كتبت إلى تقول إنها عائدة إلى هارلم .

وعدت إلى مصر مجروح الفؤاد ، وما إن دخلت داري حتى بعثت إليها برسالة حارة أبثها فيها لواعج نفسي ، واشتياق القلب الولهان ، ثم أنبأتها أنني سأبذل كل ما في طوقي لتذليل ما يعترض قدومها من عقبات ، ومرت أيام وأسابيع ولم أفعل في مسألة قدومها شيئا ، ولم أكن صادقا عندما أخبرتها أني سأعمل على تذليل الصعاب ، كنت خالي الوفاض ، لا أملك مالا ، وما كنت أقبل أن تقدم مارجي لتعمل وتكدح ، إنني أريدها على طريقتنا الشرقية ، أن

أكون السيد الذى يبذل كل شىء ، لا الصديق الذى ينعم بالحب ، ثم يلقى بالعبء كله على حبيبة الفؤاد !

وجاءتنى منها رسالة ، تخبرنى فيها أنها فسخت خطبتها دون أن يدرى أحد فى هارلم سبب ذلك ، وراحت تقص على فى أسلوب نابض ما تقاسى من وجد ، وتقول لى إنها ترقب فى لهفة رسالتى التى تحمل إليها بشرى تذليل ما يعترض سبيل قدومها إلى مصر ، لتعيش بقربى ، وتنعم بحبى .

مست رسالتها أوتار قلبى ، وكدت أضعف وأبعث إليها أن تقدم لتطفئ النار المتأججة بين الضلوع ، ولكنى ملكت نفسى ، وكتبت إليها بأن الظروف لم تسمح باستدعائها بعد . والتمست منها أن تتريث وتعتصم بالصبر . ومرت أيام وأنا أروض نفسى على احتمال ما أقاسى من وجد ، وفى صباح يوم أقبل ساعى البريد ، وسلمنى رسالة منها ، ففضضتها خافق القلب ، وجعلت أقرؤها فى لهفة ، فألفيتها صاخبة ، ثم ما لبثت ثورتها أن هدأت وهدأت ، حتى انقلبت إلى استعطاف ، قالت فى غضب إنها كانت تنتظر منى تلك المراوغة قبل أن تصل إليها رسالتى ، وإنها تعلم أننى أحاول الفرار منها ، وإن هذا لا يهمها فإنها لم تحينى يوما ، ثم لانت حدتها ، وقالت إنها لن تمكث فى هولندا ، لقد بيتت العزم على مغادرتها ، فلندن تطلبها وأندونيسيا فى حاجة إليها ، إنها سترحل ما فى ذلك شك ، ولكنها تفضل أن ترحل إلى مصر ، إلى البلد الذى أعيش فيه ، لتكون بقربى وهذا كل ماترجوه فى الحياة .

جلست لأكتب إليها ، ولكن ساءنى أن أعتذر مرة أخرى ، فمزقت الرسالة فى غضب ، ثم قر رأيى ألا أكتب إليها إلا إذا ادخرت مبلغا من المال ، هذا هو الرأى ، ولن أجرى بعد اليوم فى أثر سراب .

وأخذت أعمل ، وأواصل الليل بالنهار ، وطيف مارجريتا يؤنسنى ، ويشد من أزرى وهممت أكثر من مرة بأن أكتب إليها أستدعيها ، فقد لاح

لعينى تباشير النجاح .

وجمعت مالا ، وطابت نفسى ، ولكن لم تكتمل سعادتى ، فقد راح قلبى يحرضنى على استدعاء مارجى ، وأرسلت إليها رسالة ، وأخذت أنتظر ردها فى تشوق واهتمام .

وبقيت أرصد رسالتها قلقا ، وكنت أعجب لذلك القلق الذى يلفنى ، ومرت أسابيع ، ولم يرد منها شيء ، فزاد قلقى ، واستولت على رهبة ، ولكن لم أقطع حبل الأمل ، وبت أعيش على بصيص خافت من الرجاء كان يمده بالنور قلبى العاشق المتلهف على اللقاء .

ومر شهر وشهر ، فانطفأ ذلك البصيص ، ولفنى حزن ، وأصبحت حليف الانقباض ، وفى ذلك الظلام الثقيل ، برق فى ذهنى خاطر استراحت له نفسى ، إنها رحلت قبل أن تبلغها رسالتى ، إنها لا تزال تحبنى ، فإن كانت قرأت ما سطرته بذوب نفسى ، لجاءت على جناح الحب تطير ، واطمأننت إلى ذلك الخاطر ، ولكن عز على أن أحيا على خاطر لطيف ، فقد راحت نفسى توسوس لى أنها تلقت رسالتى بعد أن مسحت يد النسيان من قلبها حبى ، واستبد شيطانى بى ، حتى صدقت وسوسته ؛ فعدت إلى سجن نفسى ، حزينا يائسا مهموما ، لأعيش ما بقى من عمرى فى ظلام دامس بغيض .

رجل وامرأة

هبط من القطار ساهما ، وسار بقامته الطويلة يحمل حقيبة كبيرة وقد دثرته رهبة خفيفة ، كان يحس إحساسات الغريب الذى يهبط بلدا لأول مرة ، وخرج من المحطة ، ووقف على الطوار يتلفت فى حيرة لا يدرى إلى أين يذهب ، ورفع رأسه إلى السماء ، فألفاها ملبدة بالغيوم قاتمة ، وتلفت حوله فوجد المكان موحشا كأنما استعار وحشته من نفسه ، فوضع الحقيبة على الأرض ، وجعل يفكر فى أمره .

إنه موظف نقل إلى هذه المدينة الساحلية من مدن القطر ، وما رآها من قبل يومه ، وما كانت هذه المدينة الوحيدة التى لم يرها من قبل ، فما كان يعرف غير القاهرة ، إنه لم يغادر أهله ، عاش عمره فى دار أبويه ، لا يعرف ارتحالا ، حتى عطلاته الصيفية ، كان يمضيها بين ملاعب الكرة ودور السينما ، فإذا جن الليل عاد إلى البيت ، وأوى إلى فراشه منعما سعيدا .

أكمل دراسته الفنية ، وأصبح مدرسا فى مدارس الحكومة ، وسعى أبوه سعيا حثيثا ليلحقه بمدرسة من مدارس القاهرة ، ونجح فى سعيه ، ولكن ما كان ذلك ليدوم ، كان عليه أن يرتحل كما يرتحل زملاؤه ، وأن يطوف بمدارس القطر ، حتى يقضى المدة المقررة لكل مدرس بعيدا عن العاصمة .

وجاء يوم رحيله ، فأحس غصة لفراق أمه ، وأطرق يفكر مهموما ، فتراءى له سفره بغيضا محفوفا بالصعاب ، أخذ يقلقه أمر ليله ، فما كان

يعرف كيف يمضيه بعيدا عن أمه ، أين يبيت ؟ ومن ذا الذى يجهز له طعامه ، ويعنى بفراشه ، ويرعى شئونه ، وهو الذى ما كان يفكر فى شيء من أمره .

ومرت به عربة ، فأفاق من تفكيره ، وخطر له أن يندس فيها ويلتمس من الحوذى أن يطوف به المدينة ، ولكنه عاد ووجد من الأوفق أن يجوس خلالها سعيا على قدميه ، حتى يهتدى إلى مكان يؤديه ، وانساب فى شوارع المدينة ، وراحت عيناه تنتقلان فى سرعة بين اللافتات المثبتة فى واجهات الدور ، كان ينقب عن نزل يهبط فيه ، وصفرت الريح ، وزمجرت السماء ، ثم هطلت الأمطار ، فدار بعينيه فى المكان ، فألفى مطعما صغيرا على قيد خطوات ، فرأى أن يتجه إليه ، وأن يحتمى به ، وأن يتناول طعاما آخر .

ذهب إلى المطعم ، وجلس إلى خوان قريب من الطريق . وطفق يرصد الماء المنهمر فى غزارة ، فخيل إليه أنه يغسل صدره ، ويزيل تلك الكآبة التى رانت عليه طوال سفره . وأحس تلك اللحظة كأنما فصل من ماضيه ، وخلق خلقا جديدا .

وأقبل الخادم ، ووقف أمامه فى احترام ، ينتظر أوامره ، فشخص ببصره يفكر ، وتذكر أنه فى بلد اشتهر بالسمك . فطلب سمكا ، ثم عاد يرقب الطريق الذى أصبح كمرآة متكسرة . تنعكس على جنباتها صور الدور والمركبات والمارة متراقصة مترنحة .

ووضع الطعام أمامه . فأخذ يتناوله فى شهوة ، كان لذيذا . وما كان يحسب أنه يستطيع أن يهنأ بطعام لم تصنعه أمه ، فقد ألقت فى روعه أن طهوها لا يعدله طهو ، وأن من يسعده حظه بأن يطعم من صنع يديها لن يسيغ طعاما آخر .

ونادى الخادم ، وأعطاه ثمن طعامه ، ثم نفحه بضعة قروش .. كان قد عزم

على أن يستعين به ، ليهديه إلى مكان ينزل فيه ، وما استقرت القروش فى يد الرجل حتى انبسطت أساريره ، فالتفت إلى الشاب وقال :

— أتريد فندقا كبيرا ؟

— لا .. أريد مسكنا هادئا .

— إذن انزل عند ماريا .

فحدجه الشاب بنظرة المستفهم ، فقال الرجل وهو يشير بأصبعه إلى بيت من طبقتين أمام المطعم :

— هذا بيت ماريا .

والتفت الشاب إلى البيت ، فألفاه قد بنى على الطراز الإنجليزى ، تحيط به حديقة صغيرة يطل على البحر الذى تلاطمت أمواجه فى ثورة وغضب ، وأعجبه البيت ، وبقى يتطلع إليه والرجل يقول :

— إنه يموج بالناس فى الصيف ، أما فى الشتاء فهو هادئ ساكن ، لا يسمع فيه صوت ..

وصمت الخادم قليلا ، ثم قال :

— لا يقطن عندها الآن إلا شيخ كبير .

فغمغم الشاب فى ارتياح :

— هذا جميل ، سأمضى الشتاء هنا ، وأعود فى الصيف إلى أهلى .

وقام وحمل حقيبته ، وانطلق إلى بيت ماريا والمطر ينهمر . وما إن دنا منه حتى أرهفت مشاعره ، وشاعت فى صدره تلك الرهبة التى تنتشر فى الصدور عند الإقدام على مجهول ، ووقف أمام الباب لحظة يستجمع قواه ، ثم مد يده وضغط زر الجرس ، فرن رنينا عاليا ، كان له تجاوب فى قلبه ، وفتح الباب ، وظهرت خادم عجوز ، وراحت تنظر إليه فى هدوء ، فلما رأت فى يده

حقيبة ، فسحت له الطريق ، ولكنه لم يدخل ، بل قال فى صوت خافت مرتعش :

ـــ أريد حجرة ..

ـــ تفضل .

وسارت وهو خلفها ، وصعد بضع درجات ، ثم ألفى نفسه فى حجرة فسيحة ، رصت فيها مقاعد وثيرة ، وأشارت إلى مقعد قريب كبير ، وقالت له :

ـــ تفضل حتى أدعولك ماريا .

وضع حقيبته وجلس ، واستيقظت حواسه ، فراح يتلفت فى قلق ، ويعبث بأصابعه فى مسند المقعد الكبير ، ثم يرفع يده ويتحسس رباط رقبته ، وسرعان ما يدس يده فى جيبه ويخرج منديله ، ليجفف قطرات العرق المنبثقة من جبينه ، فى ذلك اليوم الذى اشتدت ريحه وهطلت أمطاره !

وتصرمت دقائق خالها ساعات ، ثم أقبلت امرأة فى الثلاثين ، ناصعة البياض ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، يشع منهما بريق جذاب ، وما أن لمحها قادمة نحوه ، حتى نهض بقامته الطويلة فى ارتباك ، ولفه اضطراب ، ووقع بصره على صدرها الناهد وقوامها الممشوق ، فغض من بصره حياء ، وظل فى إطراقته القلقة ، حتى مس أذنيه صوتها الرقيق وهى تلقى عليه تحية المساء ، فرد عليها تحيتها فى صوت متهدج ، وساد السكون برهة ، ثم قال :

ـــ أريد حجرة .

فقالت مستفسرة فى رطانة لطيفة :

ـــ لأيام ؟

ـــ لشهور طويلة .

ونظر إليها ، فلمح فى عينيها الزرقاوين الواسعتين تساؤلا ، فقال :

— سأمضى هنا شهور السنة جميعا إلا الصيف .

فابتسمت وقالت :

— إلا الصيف ، ستكون ضيفا عزيزا .

ورنت إليه فاحصة ، فأحست راحة . كان شابا طويلا ، أسمر اللون ، متناسب القسمات ، أسود العينين ، فاحم الشعر ، عريض المنكبين ، من ذلك الطراز الفخم ، الذى تهفو إليه قلوب النساء . واتفقا على الأجر سريعا ، فما كانت ماريا تطمع فى أن يفد إليها ضيف فى غير أيام الصيف ، ونادت الخادم العجوز ، وأمرتها أن تحمل الحقيبة ! وسارت ماريا تهديه السبيل .

خرجامن غرفة استقبال إلى ردهة طويلة ، وسارا حتى بلغا درجا من الخشب ، فراحت تصعد فيه فى رشاقة ، كانت موفورة النشاط ، نابضة بالحياة ، وصعد فى أثرها ، فوقع نظره على مفاتن جسمها ، ورأى ساقيها المصقولتين اللتين بدتا كأنهما خرطتا من مرمر ، فاضطرب وغض من بصره خجلا وحياء ، وبلغا بهوا فسيحا به بعض النضد والمقاعد وأبواب غرف النوم ، وباب من زجاج يوصل إل شرفة تطل على البحر ، واتجهت ماريا إلى غرفة من الغرف ، وفتحت بابها ، والتفتت إليه ، وقالت :

— تفضل .

ودخل وقلب ناظريه فى الغرفة ، فوجد سريرا وصوان ملابس ومشجبا ونضدا ومقعدا ، كانت غرفة لطيفة نظيفة ، وسمع ماريا تقول :

— أعجبتك ؟

فقال فى صوت خافت :

— بديعة .

وقالت ماريا وهى تغلق الباب وقد رفت على شفتيها ابتسامة عذبة :

ـــ إذا احتجت إلى شيء فأنا فى خدمتك !

فقال فى ارتباك وقد تدفق الدم إلى وجهه :

ـــ متشكر .

وخلع ثيابه ، وشعر بأنه فى حاجة إلى حمام ساخن ، ولكنه خجل من أن يلتمس من ماريا أن تعد له الحمام ، فذهب إلى دورة المياه ، وغسل رأسه ووجهه وقدميه ، ثم عاد إلى غرفته . وتمدد فى فراشه ، وأسبل جفنيه ، وراح يفكر وهو بين النائم واليقظان .

سرى إلى سمعه خرير الأمواج ، وزفزفة الرياح ، فخيل إليه أنه يصغى إلى لحن سماوى أخاذ ، فصفت نفسه ، وانتشت روحه ، وأقلعت عن صدره تلك الرهبة التى أقلقته ، وجسمت لخياله ما ينتظره من صعاب ، وفكر فى أمره ، فحمد الظروف التى ساقته إلى بيت ماريا ، وتمنى أن تكون مدرسته قريبة من الحى الذى نزل به ، حتى لا يقاسى قسوة المواصلات .

وطاف به ملاك النوم ، وأسبل عليه جناحه ، فنام ملء جفنيه ، وانقضى الليل ، وتسلل أول خيط من خيوط النهار إلى غرفته ، فنهض من فراشه وغادر حجرته ، وما أن خطا فى البهو خطوات ، حتى رأى ماريا فى قميص وردى ، يفضح جمال تكوينها ، كانت ذراعاها البضتان عاريتين ، وصدرها شامخا فى رعونة ، وشعرها الذهبى متهدلا خلفها فى روعة ، وعيناها تنفثان سحرا ، ولما وقع بصره عليها ارتبك ، وحياها بإيماءة خفيفة ، وذهب يتعثر فى خجله .

وارتدى ثيابه ، وخرج يبحث عن مدرسته ، وكم كان سروره عظيما لما ألفاها فى نفس المنطقة التى يقع فيها بيت ماريا ، فأحس رضا ، ووجد فى ذلك

فألا حسنا ، فذلك التوفيق الذى صادفه فى مستهل حياته الجديدة ، يشير بأنه سيمضى فى هذه المدينة أياما سعيدة هنية .

وراح يطوف بأرجاء المدينة ، حتى إذا انتصف النهار ، ووافى ميعاد الغداء ، قفل عائدا إلى الدار ، فقابلته ماريا فى بشاشة ، وقالت له :

ـــ آن أوان الطعام .

فاتجه إلى غرفة السفرة ، وجلس صامتا ، وأخذت ماريا تغدو وتروح ، تعد له غداءه بنفسها ، وانتهت من تجهيز كل شىء ، ووقفت أمامه برهة ترنو إليه .. كانت ترجو أن يدعوها لتناول الغداء معه ، وكانت قد وطنت النفس على أن تلبى دعوته . ولكنه أخذ يلتهم ما أمامه ، ولم ينبس بكلمة ، فانسلت إلى غرفة أخرى وقد سرى فى نفسها تبرم وضيق .

وانتهى من غدائه ، وكان لذيذا دسما ، فنهض ليذهب إليها يمتدح طعامها ، ويشكرها على عنايتها به ، ولكن ما إن دنا منها حتى عقد لسانه ، وغلب على أمره ، فانسل من جوارها صامتا ، واتجه إلى السلم الخشبى ، وراح يرقاه ليدخل غرفته ، ويغلق عليه بابها .

وتصرم النهار ، ووفد الليل بهدوئه وشاعريته ، وفتح باب غرفة ماريا ، وخرجت فى ثوب أزرق فاتن ، يكشف عن صدرها البلورى ، وعنقها العاجى ، وجيدها الأتلع ، كانت قد صففت شعرها الذهبى فى عناية ، فزاد فتنتها ، وذهبت إلى مقعد فى مواجهة غرفته ، وقعدت ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها عن الساقين معا ، فبدت فى هيئة تفتن العابد فى محرابه .

وراحت ترصد الباب بعينين متلهفتين ، ومر الوقت وهى فى جلستها . فأرهفت حواسها ، وتململت فى مقعدها ، وطغت ثورة مشاعرها ، فقامت وسارت إلى الشرفة ، ومدت بصرها إلى البحر الساجى ، الذى بـــدت

صفحته كمرآة فضية مصقولة . كان القمر فى ليلة تمامه يبعث ضياءه اللطيف إلى الكون الهاجع ، فيمده بالشاعرية والجمال .

ومارت إحساساتها الزاخرة فى صدرها ، وهفت إلى السحب فلم تطق أن يحول ذلك الباب بينها وبين إرواء نفسها . فلو أنه انفتح ووقع عليها نظر الشاب ، لما استطاع أن يقاوم فتنتها ، ولذاب من حرارتها كما تذوب الشمعة إذا أحست مس النار .

وخطر لها أن تذهب إليه ، وتطرق بابه ، وتلتمس منه أن يناولها شيئا ، ولكنها لم ترتح إلى ذلك الخاطر ، ففكرت فى وسيلة أخرى ، وبان فى وجهها الرضا . فرفعت صوتها بالغناء ، فسرى آسرا جذابا شحن رقة وأنوثة ، وانساب عذبا نديا يهز القلوب ، ويعبث بالأفئدة ، ومس أذن الشاب مسا رقيقا ، فأعارها السمع ، كانت تغنى أغنية رومية لم يفهم منها حرفا ، ولكن نبرات صوتها أطربته ، فراح ينعم بالأنغام وهو ممدد فى فراشه ، وهام فى تيه الخيال ، ولكن لم يخطر على قلبه أن ينطلق إلى ماريا ..

وانتهت من أغنيتها ، وغادرت الشرفة ، ودلفت إلى الردهة وهى تمنى النفس بأن تجده هناك ، يصغى إليها هيمان ، ولكنها ألفت باب غرفتـه موصدا ، فذهبت إلى غرفتها تحس إحساس العائد من معركته منهزما ، ولو طاوعت نفسها لحطمت عليه بابه .

وانقضى الليل ، وطلع النهار ، فقامت ماريا ، وفتحت باب حجرتها ، ثم عادت إلى فراشها ، وارتمت فيه ، فى وضع مثير ، حسرت الغطاء عن ساقها فكانت فتنة ، وبلغ سمعها صرير باب ، فاشرأبت بعنقها ، لترى ما يفعل الشاب إذا وقع بصره على ما هيأت له من إغرائه ، ومر ببابها ، فلما وجده مفتوحا تطلع إلى الغرفة برغمه ، فلما رأى ماريا فى فراشها ارتبك ، وغض من

بصره ، وأسرع فى خطاه ليغيب فى دورة المياه .

وغادر البيت إلى مدرسته ، وانقضى النهار ، وعاد مع الغروب ، ودخل إلى حجرته وأغلقها على نفسه ، ومر بعض الوقت ، فأحس مللا ، فخرج إلى الشرفة يمتع الطرف بمراقبة قرص الشمس المتوهج وهو يخوص فى البحر الذى اصطبغت صفحته بلون الأرجوان .

وقف صامتا ينظر وقد ملأ منظر غروب الشمس أقطار نفسه بهجة ، وظل شاخصا ببصره ، مفعما بالنشوة ، حتى سمع حركة فى الردهة ، فالتفت فرأى ماريا تومئ إليه أن تعال فخفق قلبه ، واستيقظ قلقه وذهب إليها وقد دثرته رهبة . كانت فى ثوب أحمر زاد فى روعتها ، فبدت كتمثال للجمال . واستدارت على عقبيها وأولته ظهرها ، وقالت له فى رقة :

— ساعدنى فى تزرير أزرار الثوب من فضلك .

كان ثوبها مشقوقا حتى خاصرتها ، به أزرار كثيرة ، فوقف فى مكانه مأخوذا ، زائغ البصر ، ثم دنا منها وهو فى اضطرابه ، ووقعت عيناه على ظهرها الناصع ، الذى كان كأنما خلق من شمع مصفى ، فسرت فى صدره رهبة ، ومد يدا مضطربة وجعل يزرر أزرار الثوب فى حرص حتى لا تلمس أنامله لحمها . واستدارت بوجهها ، ورنت إليه بعينيها الزرقاوين ، ولفحت أنفاسها الحارة وجهه ، ولو أنها لفحت لوحا من الثلج لأذابته ، ولكنه كان مشغولا بتلك الأزرار التى كان يعالجها فى حرص وحذر !

وأرادت أن تخرجه عن صمته فقالت وهى تميل إلى الوراء قليلا ليلمس ظهرها صدره :

— إنى ذاهبة إلى السينما .

كانت تأمل أن يعرض عليها الخروج معها ، وكانت تتأهب لتشكر له

لطفه ، ولكنه لج فى صمته ، فاستأنفت حديثها ، لتخرجه من ذلك الجمود الذى يجرح كبرياءها .

— بها رواية رائعة .

فقال فى صوت مضطرب خافت كأنما ينبعث من أغوار نفسه :

— أية رواية ؟

وأرضاها أنه نطق أخيرا .

فقالت فى خفة :

— جيلدا .

— رواية رائعة : رأيتها فى القاهرة .

وصمت ، فأحست كأنما صفعها على وجهها ، فثارت ثورتها ، ولم تعد تحتمل أن تبقى أكثر من ذلك ، فانطلقت فى الدرج الخشبى ، وجعلت تهبط فيه حانقة متبرمة . وارتمى على أول مقعد صادفه ، وجعل يلتقط أنفاسه فى جهد ، فقد أدار عرفها الطيب رأسه ، وأيقظ دنوها منه مشاعره ، حتى كاد يضعف ويضمها إلى صدره ولكنه أحجم ، خشية أن يغضب السيدة التى رعته وأكرمت وفادته !

ومرت أيام وماريا تتودد إليه ، وهو منطو على نفسه ، ينظر إليها بعين التقدير والتبجيل ، فلم يخطر له على بال أنها تشتهيه ، وأن كل جارحة من جوارحها تهفو إلى شبابه الغض الرطيب .

وضاقت ماريا بجموده ، وعزمت على أن تخرجه من قوقعة نفسه ، ففى عصر يوم من الأيام ، بينما كان جالسا فى الردهة يقرأ ، خرجت من غرفتها وحيته متطلقة الوجه ، ثم راحت تهبط فى الدرج قفزا فراح ثدياها يترجرجان فى رعونة ، وقبل أن تبلغ نهاية الدرج تظاهرت بأن رجلها قد زلت ، فندت

منها صرخة ، واستلقت على الأرض ، وأسبلت عينيها .

صكت صرختها أذنيه ، فأسكنت الرهبة فؤاده ، وهرع إليها مضطربا ، رآها مغشيا عليها ، فراح يتلفت فى حيرة ، ولم يعد يدرى ما يفعل ، وفيما هو يتلفت فى ارتباك ، خطر له أن يدعو الخادم العجوز ، فانطلق فى الحجرات يبحث عنها ، فلما لم يجدها عاد إلى ماريا ، وراح يتطلع إليها بعينين شاردتين ، ثم صعد فى الدرج وثبا ، ولم يغب لحظات حتى رجع وفى يده زجاجة « كولونيا » أدناها من أنفها ، ولكنها ظلت فى إغمائها ، ولم يجد مفرا من حملها ، فمد يديه وحملها بين ذراعيه ، فالتصق جسمها اللدن بصدره ، وراح يصعد بها فى حرص وأناة ، وقد اطمأنت ماريا ، فقد سقط فى شباكها .

بلغ الردهة العليا ، وذهب إلى غرفتها ، ودفع بابها بقدمه ، ثم سار إلى السرير ، ووضع فيه ماريا ، وأخذ يفرك يديها بين يديه ، ثم بلل كفه بالكولونيا ، وراح يمررها على جبينها وعنقها وجيدها .

وأحست أنفاسه الحارة تلفح وجهها ، ففكرت فى أن تطوقه بذراعيها ، وأن تضمه إلى صدرها الذى يعلو وينخفض فى ثورة ، ولكن لماذا الإسراع إن هى إلا لحظة حتى يهوى بشفتيه على شفتيها .

وفتحت عينيها فى وهن ، ورنت إليه رنوة لو أنها صوبتها إلى رجل آخر لزلزلت كيانه ، ولكنه ابتعد عنها وهو يغمغم :

— حمدا لله على السلامة .

وتأوهت ، فقال لها فى إشفاق :

— إنك فى حاجة إلى الراحة .

وانسحب من الغرفة ، وأغلق الباب وقد خلفها وهى تكاد تنفجر حنقا

وغضبا .

وانقضى الليل وماريا ثائرة ، تحس كبرياءها تدمى ، فيما طالما صرعت رجالا من أول نظرة ، وعز عليها أن يظللها ومن أذل كبرياءها سقف واحد ، فما أن شقشق الفجر حتى ذهبت إليه ، وطرقت بابه ، ففتحه ، ووقع بصره عليها ، فأومأ إليها برأسه محييا ، ولكنها لم ترد تحيته ، بل قالت فى غضب :

— أرجو أن تغادر اليوم بيتى ، إنى فى حاجة إلى هذه الغرفة .

رمقها فى دهش ، وقبل أن يفتح فاه كانت قد أولته ظهرها ، وولت عابسة مقطبة ، دخلت حجرتها ، وصفقت الباب خلفها فى حنق شديد .

وقف مشدوها يفكر ، ما الذى فعله لتثور عليه كل هذه الثورة.إنه كان يحترمها ويبجلها ، وما أغضبها يوما ، كان يعاملها كما يعامل أمه ، وتحرك وهو مذهول ، وتناول حقيبته الكبيرة ، وراح يجمع متاعه ، وتزاحمت حوادث الأمس فى رأسه ، وأخيرا هز رأسه فى اقتناع ، فقد خيل إليه أنه اهتدى إلى سبب ثورتها ، أغضبها أنه حملها بين ذراعيه ، وأن جسدها الطاهر التصق بصدر رجل غريب !

فنـــان

١

نظر فى المرآة لآخر مرة ، وأصلح من هندامه ، ثم استدار ليخرج ، وقطع الغرفة وهو يصفر لحنا خافتا فى بهجة ، حتى إذا ما بلغ الباب مد يده وضغط الزر الكهربى ، فساد الغرفة ظلام ، وأغلق الباب خلفه ، وهبط فى الدرج منشرحا ، فقد أتم كتابة الرواية الكبيرة التى شغلته عن العالم شهورا ، إنه خارج الليلة ليستريح من أفكاره ، وليمضى سهرته فى ملهى من الملاهى ، ينعم بمباهج الحياة كما ينعم بها سائر الناس .

وبلغ وصيد الباب ، فألفى السكون يسيطر على المكان ، والظلام يلف الكون ، فوقف يجيل عينيه فيما حوله ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فرأى النجوم تتألق فى رقعة صافية زرقاء ، فأحس حركة تدب فى نفسه ، وشعر بعقله يعمل ، يترجم عما ترى العين بألفاظ ، إنه يذكر أن أحدهم وصف ما يراه الآن بزنجية تحلت بجمان ، وشاء أن يجد الألفاظ التى تصور ما يحسه ويراه ، فأغرق فى التفكير لحظة ، ولكن سرعان ما أفاق إلى نفسه ، وفطن إلى ما يعتمل فى جوفه ، نزل وقد انفرجت شفتاه فى سخرية وغمغم : « مالنا وهذه الليلة ! لقد انتهينا من الكتاب ، وما خرجنا إلا لنتمتع بالحياة كما يتمتع بها الناس » .

وسار ، وعاد إليه هدوؤه بعد قليل ، جعل يدندن فى انشراح ، حتى إذا بلغ الطريق العام ، ورأى المصابيح القوية الممتدة على جانبيه ، أخذ يرمقها بعينه الفاحصة ، فبدت له كشموس رفعت على قضبان ، ونظر إلى صقال الطريق فخيل إليه أنه يرنو إلى صفحة هادئة من ماء تعكس ما يسقط عليها من ضياء ، ولمح « تاكسى » قادما ، فأشار له ، ثم ركب ، ومد بصره إلى السائق ، فأحس رضا ، ففى سحنته خصائص بارزة ، إن أنفه الكبير المقوس تلك التقويسة التى تجعله أقرب إلى منقار ببغاء ، وهاتين العينين الضيقتين ، والشارب المتدلى على الفم ، وهذه الجبهة المتغضنة ، والشعر المفلفل المنقوش البارز من « البيريه » تجعل منه شخصية متميزة ، إنه يستطيع أن يستعير هذه الملامح ، ليمنحها شخصية من شخصياته التى يرسمها ، وأطرق يفكر فى شخصية تصلح لها هذه الملامح ، وأغرق فى التفكير ، ولكنه تذكر فجأة أنه ما خرج الليلة إلا لينعم بالحياة كما ينعم بها سائر الناس ، فتململ فى جلسته ، ثم نظر من نافذة السيارة ، يتسلى بما يمر أمام عينيه من مشاهد .

٢

ووقفت السيارة أمام الملهى ، فهبط ومد يده بالنقود إلى السائق ، وأدام النظر إلى وجهه فى إمعان ، كأنما يلتقط له صورة ، لتحتفظ فى مخيلته مع الصور العديدة التى يلتقطها فى كل آن . ودلف من باب المقهى ، فألقى نظرة شاملة على المكان ، ولمح فى مكان منزو نضدا خاليا ، فاتجه إليه ، وبقى لحظات وهو ساكن فى جلسته ، ولكن ما لبثت عيناه أن دارتا كما تدور الكاميرا ، فجعل يتطلع إلى الأضواء الخافتة الحمراء ، التى أضفت على المكان

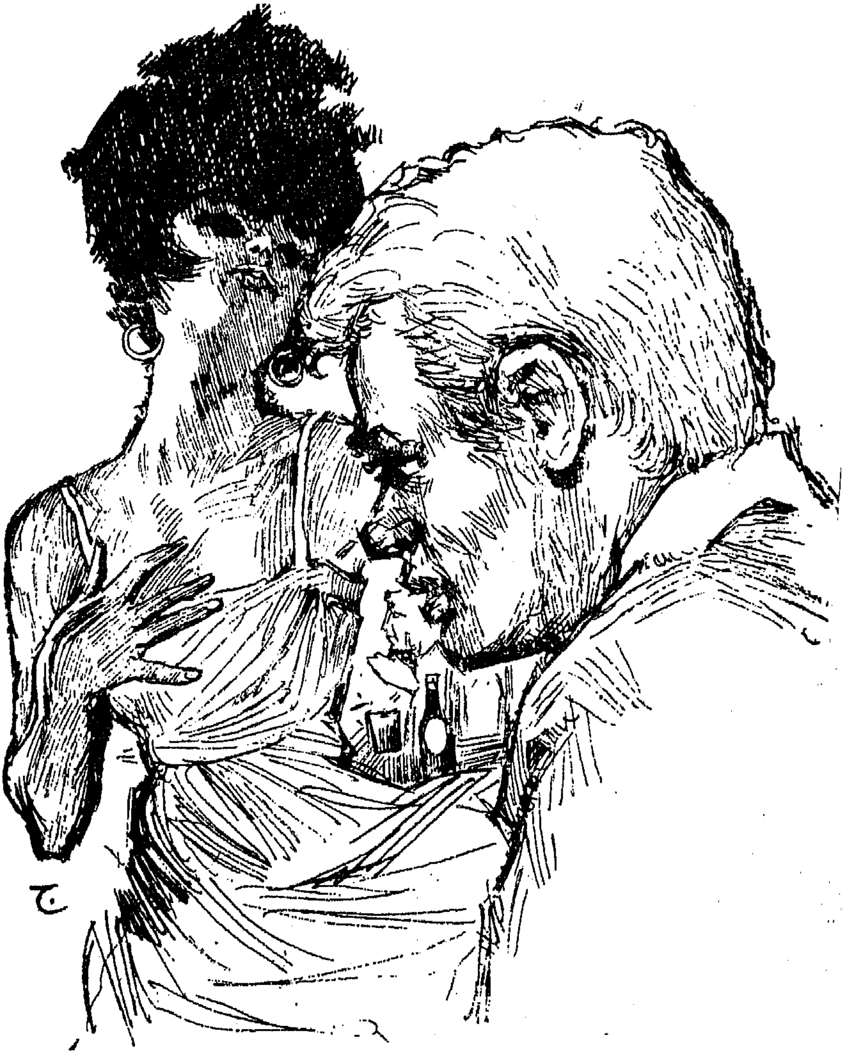
جوا شاعريا ، ثم راح ينقل بصره بين الجالسين إلى الموائد ، يرمقهم بنظراته الفاحصة ، كأنما يحاول أن يتغلغل فى أعماق نفوسهم ،ليستبشف سرائرهم ، ويكشف عن الأسرار المدفونة فى صدورهم . وأقبل النادل يلبى الطلبات ، فأخذ يتبعه نظره ، ويرقب حركاته ، ويحاول أن يفسر كل حركة وانحناءة .

وعزفت الموسيقا ، فأرهف السمع وأحس نشوة تغمره ، ولكن ما لبث أن انقشعت النشوة ، فقد طأطأ بصره ، يفكر فى ترجمة الإحساس الذى يحسه إلى ألفاظ ، وأخذ يدخره فى نفسه حتى إذا ما احتاج إليه يوما وجده مذخورا، ورنا إلى الفرقة الموسيقية ، فانشغل بأفراد الفرقة عن الأنغام ، وجذب بصره عازف الكمان ، القمىء الجسم ، ذو الوجه الجاف ، والشعر المسترسل كشعر فتاة ، فأخذ يرقبه مدة ، ثم راح يتخيله فى أوضاع وأشكال .

وسكتت الموسيقا عن العزف ، فصفق الناس استحسانا ، فعاد إلى نفسه وقد أحس تبرما ، فقد شغل عن الموسيقا ، وحرم متعتها ، وشعر بضيق يستولى عليه ، فما باله-لا يمد بصره إلى شيء أو يسمع شيئا أو يحس إحساسا حتى يحيله عقله إلى مادة لفنه ، إنه يود أن يتمتع بالدنيا كما يتمتع بها الناس .

وفكر فى أن يفر من فكره ، فرأى أن يدعو فتاة يعرفها من فتيات الملهى لتشاركه فى جلسته ، إنها فتاة لطيفة خرجت معه مرات ، وقاسمته بعض لياليه . وأخرج ورقة خط فيها سطرا ، ودفع بها إلى النادل ليبلغها الفتاة ، وأقبلت بعد لحظات ، فصافحها فى رقة ، ثم جذب لها مقعدا ، فجلست إلى جواره ، فابتدأ يحادثها صافى النفس ، ثم راح يرقبها .

كانت رائعة الحسن ، فلم يهزه حسنها ، ولم يمس وترا فى قلبه ، ولكنه حرك فكره ، فجعل يتطلع إليها كما يتطلع إلى تمثال من الجمال يوحى بفكرة ، فيالشعرها السبط الفاحم السواد الذى صفف تاجا ، ويا للعينين الواسعتين



اللتين تطلقان سهاما ، ويا للفم الفاتن ، والشفتين الممتلئتين ، وراح خياله يحلق ، ولكن رن فى أذنه صوتها ، فعجب لحاله ، فقد شغل عن الفتاة الجالسة إليه ، وأحالها إلى مشاهد وأفكار .

وأقبل عليها بنفسه ، وأصغى إليها ، فتحدثت وتحدث ، ولكن سرعان ما جذب حديثها فكره ، فجعل يصغى إليها بعقله ، ويختزن حديثها فى واعيته ، فسيحتاج إليه يوما ، ونهضت لتتأهب للخروج معه ، وما أولته ظهرها حتى راح يفحصها بنظرة الفنان ، الذى يخشى أن تشرد منه شاردة .

وما اختفت عن عينه حتى تململ ، فما بال فنه يفسد عليه سهرته ، إنه يود أن يمضى ليلة كما يمضيها أى رجل !

٣

وجاءت بعد أن تفننت فى إبراز فتنتها ، فاصطحبها وخرج ، وانطلقا إلى الجزيرة . كانت الليلة من ليالى الربيع المنعشة ، فما هب النسيم رقيقا حتى انتعشت روحه ، فمد يده وقبض على يدها ، فسرت نشوة فى صدره ، وما أحس تلك النشوة حتى جعل يفكر فيها ، كأنما أحس إحساسا ، فأسرع يعتقله قبل أن يفر منه ، وضايقه ذلك التفكير الذى يحد من نشوته ، فشاء أن يتخلص منه بأن يندمج فى إحساس فوار ، فضمها إلى صدره ، وراح يقبلها قبلة حارة ، نسى فيها نفسه ، ولكن ما رفع فمه عن فمها حتى هرع فكره ، ليسجل ذلك الإحساس .

وعاد إلى البيت حانقا متبرما ، فإنه لا يستطيع أن يرى الأشياء كما يراها الناس ، ولا أن يسمع الأحاديث كما يسمعها الناس ، ولا أن يحس

الإحساسات كما يحسها الناس ، ودخل فراشه وهو يحسب أنه غضبان ، وحاول أن ينام ، ولكن كانت تتلاحق فى مخيلته صور وأفكار ويعتمل فى صدره شعور وإحساسات ، واكتملت الصور ، ونضجت الأحاسيس فنهض يدون ما تولد فى ذهنه ، وما اعتمل فى صدره ، فى لذة لا يحسها إلا الفنان .

شرف

هب نسيم خفيف ، فراح يداعب قطع الغسيل المنشورة فى شرفات بيوت الحى العتيق ، ويحرك الرايات الخضر الممزقة التى كلح لونها ، والتى مرفوعة أمام مقهى المعلم أبو سريع من أيام العيد التى انقضت منذ شهور ، وحمل صبى المقهى الإناء النحاسى الأصفر المعد لغسل الفلجانات ، وراح يرش الطريق الضيقة المتعرجة ، ليطفئ حرارة الأرض وليلطف الجو للرواد الذين ابتدءوا يفدون مع الليل ، وشربت الأرض وارتوت واستمر الصبى يدور بإنائه النحاسى الأصفر ينثر الماء نثرا ، ولم يكف حتى امتلأت حفر الطريق المبعثرة هنا وهناك ، فغدت كبحيرات صغيرة متقاربة قد تعكر ماؤها وهدأ سطحها ، وراح المارة من الرجال يرفعون جلابيبهم ، حتى لا تتلوث أطرافها ، وما كان أحد من الجالسين ليحس مرورهم ، أو يلتفت إلى حركاتهم ، وكانت النساء الملتفات بملاءات سود يرفعن أطراف ملاءاتهن ، ويسرن على أطراف أصابعهن ، حتى لا تتلوث كعوب أقدامهن العارية المدسوسة فى (شباشب) متباينة ، فكانت السيقان العارية تبدو مشدودة ، فتصوب العيون الخائنة إليها ، وتنطلق هتافات الإعجاب : « يا دين النبى » « اسم النبى حارسك » « على مهلك يا غزال » .

وخيم الظلام قبل الأوان على المكان ، فقد كانت مبانى الحى متقاربة متشابكة ، حتى ليخال إلى المرء أن فى مقدور الجارين المتقابلين أن يتصافحا

من النوافذ وابتدأت المحال الممتدة على جانبى الطريق تضىء مصابيح الغاز الخافتة ، فانبعث منها ضوء باهت مرتعش ، وأضاء المعلم أبو سريع مصابيحه الكهربية ، فبهرت النظر ، وأعلنت عن المكان .

وخرج المعلم أبو سريع من باب منزله القريب من المقهى ، واتجه بجلبابه الأبيض النظيف ، ولاثته الحريرية المزركشة ، وسار بخطوات منتصب القامة ، مرفوع الجبين ، ثم ارتقى درجة ، فأشرف على المقهى ، ورفع يده إلى رأسه وقال فى صوت أجش خشن « السلام عليكم » ، فرد الجميع فى احترام ظاهر « السلام السلام » .

وتناول المعلم كرسيا وانتحى جانبا ، وجلس بالقرب من شيخين يتناولان « التعميرة » فى هدوء ، وسقط النور على وجهه ، فبدا أسمر اللون ، واسع الفم ، ضخم الأنف غزير الشارب ، فى خده الأيسر أثر جرح عميق ، ورفع يده ، وراح يمرر أصابعه فوق فمه المطبق ، ثم تناول شاربه بين أصابعه ، وراح يفتله فى خيلاء .

وساد الصمت قليلا بعد إقبال المعلم ، ثم عادت الضوضاء سيرتها الأولى ، فارتفع صوت صبى القهوة ينادى : « واحد تعميره ناديه » ، « اتنين ينسون » .

وابتدأ باعة النهار الجوالون يعودون إلى حجرهم وأكواخهم . فكانوا يدفعون أمامهم عرباتهم فى استسلام وخمول ، وابتدأ باعة الليل ينسلون من دورهم ، ويخترقون الطريق الضيق ، يبغون الميدان الفسيح ، وينتظرون رواد الليل ، ولاحت فى نهاية الطريق عربة صغيرة ، قد صنعت جميعها من الزجاج ، ليس بها من الخشب إلا الإطارات ، وقد جهزت بمصابيح قوية تضيئها ، وأخذت العربة تقترب حتى وقفت فى الضوء الذى فرشته المصابيح

الكهربية المتألقة فى مقهى المعلم أبو سريع ، وارتفع صوت من كان يدفعها فى نبرات منغمة « عاشورا مبشورة » .

انتشر الدخان فى المقهى وتكاثف فعبق الجو وسيطر على المكان كسل وخمول ، وخرجت من الدار المواجهة للمقهى فتاة فى الثالثة عشرة ، ممتلئة الجسم ، ناهدة الصدر ، خمرية اللون ، ترتدى جلبابا ضيقا قصيرا كشف عن ساقيها الممتلئتين وأظهر تفاصيل جسمها فى إغراء ، وصارت تتخلع وتتمايل تمايل أغصان يداعبها النسيم ، فجعل جسمها يهتز كأنها زئبق يترجرج ، وما إن أحس الجالسون خروجها حتى التهبت منهم الحواس ، ودبت فيهم الحياة ، وتحولوا إلى عيون .

واتجهت زنوبة إلى بائع العاشوراء وتناولت صحنا وراحت تلتهم ما فيه ، والتفت البائع إليها وابتسم ، والتقت نظرتها بنظراته ، فارتبك وقال مغازلا وهو لا يدرى : « على مهلك يا جدع » فضحكت زنوبة ضحكة طويلة ممدودة ، كهربت الجو ، فما بلغت آذان الشباب حتى سرت فى أبدانهم رعشة لذيذة ، وحتى تدفقت الدماء الحارة فى العروق ، وهب أكثر من شاب ، وانطلقوا إلى عربة العاشوراء ، ليلتهموا زنوبة بعيونهم ، قبل أن يلتهموا ما فى الصحون التى دفعها الرجل إليهم .

كان المعلم أبو سريع يرقب ما كان يجرى عند عربة العاشوراء فى انتباه ، فامتلأ صدره غيظا ، وبان الضيق فى وجهه ، وجعل يتململ فى كرسيه ، وينفخ فى صوت مسموع ، ثم التفت إلى الشيخين الجالسين بالقرب منه وقال فى تأفف : « أعوذ بالله ، بنت تستحق قصف رقبتها ، لو كانت بنتى لشربت من دمها » .

فرفع أحد الشيخين التعميرة عن فمه وقال :

— آخر زمن .

فقال المعلم أبو سريع :

— أين أهلها ؟ أين الغيرة ؟

فقال الشيخ الآخر فى تحسر :

— لم يعد هناك غيرة يا معلم . الله يرحم أيامنا .

فقال أبو سريع وقد أمسك قميصه بين أصابعه ، وراح يحركه :

— والله إنى لأغار من قميصى .

وانتهت زنوبة من التهام العاشوراء فناولت الرجل الصحن وسارت وكأنما كان هناك من يخزها بإبرة فى خصرها الأيمن ، فينفر عجزها إلى الناحية اليسرى ، ثم يعود ويخزها فى خصرها الأيسر ، فينفر عجزها إلى الناحية اليمنى ، أو لكأنما كانت ترقص على تقرات موزونة ، فنظر أحد الشيخين إليها من بين أهدابه المسبلة فى إعجاب ، فقد كان فى سالف العصر والأوان زير نساء ، وقد تاب — أو بمعنى أصح أرغم على التوبة إرغاما — ولو كان به حركة لاشتهاها .

ونظر المعلم أبو سريع إلى جسم زنوبة الرجراج نظرة تمن ، فإنه كان يريدها،ولكنه ما كان يريدها لنفسه،بل كان يرغب فى أن يضمها إلى النسوة اللاتى فى داره ، فلو أنه ضمها إليهن لضمن إرضاء شباب الحى الذين ابتدءوا يزهدون فيما عنده ، بل لضمن وفود شباب الأحياء المجاورة ، ولعاد إلى البيت عزه الذى ولى يوم ولى شباب أخته .

وأطرق المعلم أبو سريع يفكر ، وراح يعبث بأصابعه فى شاربه المنتصب فى خيلاء ، وقد رفع حاجبه الأيمن ، وضيق من عينه اليسرى ، فقد كان يفكر ، وطأطأ رأسه برهة ، ثم رفعها وقد أشرق وجهه ، فقد هداه فكره إلى

أن يبعث بأخته إلى زنوبة ، لتربط بينها وبينها الأسباب ، ولتدعوها لزيارتها ، واطمأن إلى فكره ، وأحس غبطة ، فعما قليل تكون زنوبة فى داره ، وإنه من ذلك على يقين ، فإنه ليعرف أخته جيدا ، فهى شيطانة لا تعييها الحيل ، ولا يقف فى سبيلها العراقيل .

ومرت أيام ، وأقبل أول الشهر ، ولاحظ المعلم أبو سريع أن الشقة الخالية فى البيت المواجه لبيته قد نزلها سكان جدد ، فوقف فى الشباك ، وراح يرقب الوافدين على الحى العتيق . فرأى فتيات منهوكات ، قد لطخن وجوههن بالمساحيق ، ليخفين شحوب بشرتهن ، ولمحهن يرحن ويجئن فى تراخ وخمول ، كأنما قد استيقظن بعد نوم طويل ليستقبلن وفود الليل ، وما كانت حركاتهن غريبة عنه ، فقد شب فى بيت من هذه البيوت ، ومد بصره الحديدى يتفحص داخل الشقة ، فلم يجد كثير أثاث ، وماحاجة أمثالهن إلى الأثاث ، إنهن اليوم هنا ، لا يعلمن كم يمكثن ، فقد يمكثن يوما أو بعض يوم ، وقد يمكثن شهرا أو بعض شهر ، إن بقاءهن رهن بانكشاف أمرهن ، وعلى مقدار ما فى الحى من غيرة و .. شرف !

وأحس المعلم أبو سريع ضيقا ، فما كان يظن أن يجرؤ غريب على أن يقتحم عرينه ، وينافسه فى عقر داره ، وهبط إلى المقهى ، وتناول كرسيا ، وجلس بحيث استقبل باب البيت الذى نزله المنافسات الجديدات ، فقد عزم على أن يرقب الدار .

ومر أسبوع ، وخفت الرجل فى دار المعلم ، وانحرف طلاب الشهوات إلى الناحية الأخرى ، فإن لكل جديد زهوة ، فلم يستطع المعلم أبو سريع صبرا ، فعزم على أن يستعين ببعض أعوانه ، ليتخلص من هذه المنافسة التى أضجرته وأقلقته ، وأن يعمل على أن يكسب تأييد الشيوخ واحترامهم ، فما

كان بمستطيع أن يفاتح الشباب فى هذا الأمر ، فإنه يفهمهم ويفهمونه .

وجلس المعلم أبو سريع فى جلباب أسود عتيق ، وفى يده « الحاجة » ، وهى هراوة غليظة ، إذا حملها كانت نذير شر ، فإنه لا يحملها إلا إذا عزم على شجار ، ووقف خلفه اثنان من أعوانه ، فى يد كل منهما عصا طويلة ، وكان كلما وفد وافد ، ورأى المعلم فى عدة القتال قال مستفهما :

— كفى الله الشر !

فكان يرد عليه بابتسامة ، يحاول أن توحى بالثقة والاطمئنان ، حتى إذا ما اكتمل عقد معامليه اتجه إلى ركن كان يحتله رهط الشيوخ ، وتكلف الثورة والغضب ، فسأله أحدهم :

— خيرا ؟

— لم يعد هناك خير .

— مالك ثائرا اليوم ؟

فقال المعلم فى ثورة وغضب :

— لقد ترك لنا أهلنا هذا الحى طاهرا ، فوجب أن نحافظ على طهارته .

— إنه طاهر يا معلم .

— يا ليت ، لقد دنسته نساء عاهرات ، وما كان فى حينا فسق ، وما ينبغى أن يكون .

— وعلام عولت يا معلم .

— على دك هذا البيت الفاسد ، وإن كان نصيبى فى السجون ، لقد عشت شريفا ، ولا أحب إلا أن أعيش شريفا ، إنى رجل أغار من قميصى .

ولوح بعصاه ، وسار مرفوع الرأس ، منتفخ الأوداج ، وخلفه عوناه .

فنظر الشيوخ إليه فى إعجاب ، وغمغم أحدهم :

ـــ رجل شريف .

فقال آخر :

ـــ إنه أسد .

وهجم أبو سريع ومن معه على دار المنافسات ، وأعملوا عصيهم فيمن كانوا فى الدار ، ففر الرجال ، ووعدت النساء بالرحيل ، وفى سكون الليل خرجت نسوة متسللات ، كما جئن متسللات ، وانصرف أبو سريع هادئ النفس ، مطئن البال .

وفى صبيحة اليوم الثانى استيقظ المعلم أبو سريع بعد القيلولة ، فوجد أخته وزنوبة جالستين تتحادثان ، فانشرح صدره ، وهزه السرور ، فقد سقط الطير فى القفص ، ونظر من النافذة إلى البيت المواجه ، وتطلع إلى شقة المنافسات ، فألفاها قاعا صفصفا ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة فوز ونصر ، فقد أصبح الحى له وحده ، لا ينافسه فيه منافس ، وفى داره تحفة جديدة ، يرجو أن تدر عليه الخير الكثير .

وخرج إلى المقهى متهلل الوجه ، راضى النفس ، وأقبل الشيوخ يصافحونه فى حماسة ، والتفت إليه أحدهم وقال :

ـــ عينى باردة عليك ، وجهك مضىء اليوم .

فقال المعلم أبو سريع وأصابعه تعبث بشاربه فى خيلاء :

ـــ ما أحلى الشرف يا أبا خليل ؟؟؟

رسالة حارة

عزيزى خيرى :

هذه الرسالة ليست بنت اليوم ، روادتنى فكرة الكتابة إليك أول مرة منذ شهور ، وأخذت تراودنى كل ليلة منذ ذلك اليوم . كنت أدخل غرفتى ، وأغلق على بابى ، وأتهيأ للكتابة ، ولكنى كنت كلما جلست إلى القرطاس لأبثك لواعج نفسى أحسست خجلى حائلا بينى وبين تسطير ما أحس ، فما كان لفتاة أن تبعث إلى شاب لا يعرف عنها شيئا ـــ وإن كانت تعرف عنه كل شيء ـــ برسالة تشكو له فيها ما تقاسى من وجد .

ظل ذلك الخجل يقهرنى حتى ليلتى هذه ، فقد دخلت إلى فراشى بعد أن اطمأننت إلى عودتك من مقهاك ، وحاولت النوم ، ولكنى أرقت ، ولم تغمض لى عين ، وتقلبت فى فراشى كأنما أتقلب على جمر ، فقد تآمر على خيالى ، فأحضر صورتك أمام عينى فى شكول تؤجج النار فى الفؤاد ، فطغت إحساسات الحب ، فملأت صدرى ، حتى كادت تكتم أنفاسى ، فلم أجد لها منفسا إلا أن أقوم فى هجعة الليل لأسكب شواظ القلب على رسالة أبعث بها إليك ، لعل نارى تبرد ، وقلبى الذى أضنانى يهدأ ، والخيال الشارد السارح يئوب ، ويطوقنى ملاك النوم بجناحيه ، فيدثر نفسى القلقة الحائرة هدوء ، وإن كان هدوءا إلى حين .

رأيتك يا حبيبى أول مرة بعد ظهر يوم لن أنساه ، كنت ذاهبة إلى

طبيب الأسنان ، وكنت عائدا من عملك ، فما وقعت عيناى عليك حتى تملكنى إحساس غريب ، شعرت بروحى تهفو إليك ، وانطلقت فى طريقى ، وما ابتعدت خطوات حتى تلفت خلفى لأمتع العين برؤيتك .

وانتهت زيارتى للطبيب ، وعدت إلى البيت ، فجلست فى الشرفة أستروح نسيم الأصيل ، وفجأة شعرت كأن جناح حمامة يخفق فى جوفى ، كان قلبى يضطرب ، رأتك عيناى وأنت مقبل من دارك ، منطلق إلى الميدان ، فقفز قلبى فى سرور الولهان .

تتبعتك بعينى مضطربة النفس ، حتى إذا اختفيت عن ناظرى ظل قلبى يتبعك ، وانقضى النهار وأقبل المساء وأنا أفكر فيك ، وجاء أوان مغادرتى الشرفة ، وتحركت لأدخل إلى غرفتى ، ولكن لم يطاوعنى قلبى ، لم يشأ أن يغادر الشرفة قبل أن يطمئن إلى أوبتك . مرت من الليل ساعات وأنا جالسة أرصد الطريق ، فإذا لمحت شبحا قادما حسبته أنت ، فتسرى فى بدنى رهبة لذيذة ، وطال مكثى وما تسرب الملل إلى ، فقد كنت مفعمة بالنشوة ، لأنى أرقب عودة رجل خفق له القلب .

علمنى حبك يا حبيبى أن الظلام مرتع خصب للخيال . راحت الأوهام تنمو فى فكرى ، وتزدهر فى نفسى ، فتنتشى روحى ، ويرضى فؤادى . وفجأة اشتد وجيب قلبى ، رآك فى حلكة الليل قبل أن تميزك عيناى ، وبقيت أتبعك بنظرى حتى اختفيت ثانية فى الظلام ، فغادرت الشرفة وأنا أحس خفة وانشراحا .

صارت الشرفة مأواى ، فى الصباح أهرع إليها لا ستجلاء طلعتك ، وفى الظهر أنتظر عودتك ، وعند الأصيل أرقب خروجك إلى مقهاك ، أما الليل فكان مسرح الأحلام .

فكرت مرة فى أن أتبعك ، لعلى أستطيع أن ألفت نظرك إلى ، فارتديت ثيابى قبل موعد خروجك عند الأصيل ، ووقفت فى شرفتى قلقة ، تتجاذبنى خواطر تترجح بين الإقدام والإحجام : ولمحتك قادما ، فاندحر ترددى ، ووجدت نفسى أهرول ، وأنطلق كأنما كنت واقعة تحت تأثير منوم مغناطيسى ، وهبطت الدرج قفزا ، ووصلت إلى الطريق وقلبى فى حيرته واضطرابه ، وأحسست رهبة تسرى من قمة رأسى إلى أطراف أصابع قدمى ، مشت فى بدنى رعدة ، وتدفق الدم حارا إلى وجهى ، وتلفت بعيون زائغة ، فألفيتك تسير أمامى ، فأغذذت سيرى ، حتى إذا اقتربت منك ضيقت من خطوى ، كأن قوة خفية أرغمتنى . وتبعتك على البعد ، كأنما كنت منجذبة إليك ، حتى إذا لمحتك تدخل مقهاك وقفت أديم النظر وأنا سعيدة ، ثم عدت راضية من حيث جئت .

فى يوم تقابلنا وجها لوجه ، ولا أكذبك القول فأقول إنها مجرد مصادفة ، فما أحب وأنا أعترف لك بحبى ، أن أكذب عليك ، كانت هذه المقابلة ثمرة تدبير فكرت فيه ليالى وأياما ، يا طالما قابلتك فى خيالى وابتسمت لك ، ثم حدثتك وحدثتنى ، ونعمنا باللقاء ، ولكن ما إن قابلتك فى الحياة ، وهممت أن أبتسم لك كما فعلت فى الخيال ، حتى جمد وجهى ، وعز على الابتسام . فكرت فى أن أدعوك ، أن أهتف باسمك ، وفتحت فمى وأطبقته ، و لم ينبعث منه صوت ، تحطمت الألفاظ على شفتى ، فعدت إلى البيت حانقة على نفسى ، وثار قلبى ، فأخذ يخزنى وخزا ما أقساه .

ومرت على ليلة ليلاء ، ليلة لن أنساها ما حييت ، جلست فى الشرفة أرقب عودتك ، وكان الظلام يرخى ستوره السود ، والسكون يسيطر على المكان ، فراح خيالى يرتع حرا طليقا ، ينعم بأعذب الرؤى وألطف

التخيلات . ومر الوقت ، ووافى ميعاد أوبتك ، فأرهفت منى الحواس ، وجعلت أتفرس أشباح الغادين ، لأطمئن إلى عودتك ، وانقضت ساعة ، ثم ساعة و لم تقع عليك عيناى ، فتحرك قلقى ، وثارت نفسى ، واستولى على ضيق ، وزاد فى كربى أن هجس فى صدرى هاجس جرح روحى ، راح يوسوس لى أنك تنعم اللحظة بحبيبة الفؤاد إذ كنت أنتظرك وقد اندلع فى جوفى نار .

تحركت عقارب غيرتى ، وراحت تلسعنى لسعا ، وأحسست جمرة نار فى حلقى ، وعبرات تخنقنى ، وحنقا يلفنى ، وتمنيت بكل جوارحى أن تعود ، لأنجو من ذلك العذاب ، ولكن الوقت راح يمر و لم تلمحك عيناى ، فخطر لى أن أنسل فى هدوء الليل إلى مقهاك ، أنقب عنك حتى أستريح من حواسى التى تآمرت على ، ولكنى جبنت عن تنفيذ ذلك الخاطر الذى طفق يلح على ، يؤازره القلب الواله الحيران .

وبرد الجو ، وصفرت الرياح ، فمشت فى جسدى قشعريرة لم ألتفت إليها ، كنت شاردة فى تيه الخيال ، غارقة فى بحور الأفكار ، وأشرف الليل على الانقضاء وأنا فى مكانى ، وأخيرا انسللت من الشرفة محطمة النفس مهيضة الجناح .

وأشرقت الشمس ، وتسللت إلى غرفتى ، وما إن فتحت عينى ورأيت الضياء ، حتى شعرت بخوف يسرى فى صدرى ، خشيت أن يكون ميعاد خروجك إلى عملك قد انقضى ، وكتب على ألا تكتحل عيناى ذلك اليوم برؤيتك ، ولكنى شعرت بثقل فى جسمى عاقنى عن النهوض ، فتحسست جبهتى بيدى ، فألفيتها تكاد تنصهر ، لقد سقطت فريسة للحمى ، وما فطنت إلى هذه الحقيقة حتى ارتجفت ، لم أرتجف لمرضى ، بل خشية أن

أهذى باسمك ، فيتبدى مكنون نفسى ، ويفضح سر قلبى الذى ائتمنت عليه ضلوعى ، وطويت عليه صدرى .

ولازمت الفراش ، وراحت الدقائق واللحظات تمر وئيدة بغيضة ، وعادنى طيفك فى ساعات صحوى ، فأنعش روحى ، وأرضى فؤادى ، وفى يوم من أيام مرضى لججت فى التفكير فيك . وأخذت أناجيك ، حتى غلبنى النوم فرحت فى سبات ، وفيما أنا غارقة فى نومى رأيت كأنما أنا وأنت فى حديقة رائعة ، تفتحت أزهارها ، وغنت أطيارها ، نخطر خفافا على زرع أخضر بهيج ، وقد انسدل شعرى على كتفى ، فأخذ النسيم يداعبه ، وأنت ترنو إلى فى عطف .

ولمحنا نهرا فهرولنا إليه مسرورين ، حتى إذا بلغناه ألفيناه من لجين ، ووجدنا زورقا رائعا زين بالزمرد والياقوت ، انتثر فيه الورد والياسمين ، فركبنا فيه ، وأخذنا نجدف فى البحر العجيب ، وقد سرى صوت سماوى أخاذ يغنى بأعذب الألحان ، فعبث بقلبينا ، فملأنا نشوة ، وفاضت سعادتنا ، فالتصق رأسانا .

والتفت إلىّ وفى عينيك حب ، ولففت ذراعيك حولى ، وضممتنى إليك ، ولم أستطع أن أحتمل السعادة التى كنت فيها ، فاستيقظت خافقة القلب ، مرهفة الإحساس ، وما إن هدأت مشاعرى حتى أخذت أفكر فى حلمى اللطيف ، منشرحة الصدر ، راضية النفس ، قريرة العين .

وكأنما كان ذلك الحلم الحبيب البلسم الشافى لمرضى ، فما أشرقت شمس النهار حتى أبللت مما كنت أقاسى ، ولكننى لم أبرأ من حبى ، فما ملكت قواى حتى هرعت إلى الشرفة خافقة الفؤاد ، أرقبك فى الغدو والآصال ، وطغى حبى وفاض فلم يعد يسعه جوفى ، ولم يعد يقنع بسبحات الخيال ، وطمع فى أن

يغمر الحبيب بالإحساسات الفوارة .

إننى أكتب إليك وليس لى على نفسى سلطان ، قهرنى حبى ، وتمرد على قلبى ، واستبد بى وأرهقنى ، حتى أرغمنى على أن أكتب إليك ، فنزلت على حكمة مقهورة ، وإن كان فى ذلك طعنة لكبريائى نجلاء .

القلم يرتجف بين أصابعى ، وقلبى يطفو ويغوص ، ويملى على كلمات ، والعرق البارد ينبثق من جبينى ، ليتنى أستطيع أن أعصى ما يأمر به قلبى ، ولكن هيهات ، فها هى ذى يدَى تسطر ما يمليه الفؤاد .

سأنتظرك عند محطة الترام فى الميدان ، فى الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ، ولن أذكر لك عنوانى ، حتى لا تجيب بأنك لا تستطيع أن توافينى فى ذلك الميعاد ، فإنى أريد أن أحيا الأيام الباقية وأنا سعيدة ، يداعينى أمل لقياك . وإلى ذلك اليوم المرتقب أتمنى لك ولنفسى أسعد الأحلام .

« فتحية »

وطوى خيرى الرسالة وهو نشوان ، يحس خدرا لذيذا ، فما دار بخلده أن هناك من تحبه هذا الحب العارم الجبار. كانت حياته مجدبة قبل أن تصل إليه هذه الرسالة الحارة . فما كان ممن يتفيئون ظلال واحة الخيال ، كان يضرب فى صحراء الحياة محدود الآمال ، ولكن ما إن قرأ هذه الرسالة حتى شرد بصره ، وفتحت فى رأسه أبواب التصورات .

راح يفكر فى فتحية ومن تكون ، وما شكلها ، وتفتق ذهنه فراح يجلب له ممثلات السينما الحسان ، فيستعير لفتحية من هذه قوامها ، ومن تلك نضارتها ، ومن ثالثة عينيها النجلاوين ، ومن رابعة صدرها الفاتن الرائع ، واسترسل فى تخيلاته حتى تجسمت فتحية فى ذهنه نموذجا للحسن والجمال .

وخرج إلى الطريق ، وسار يتلفت يمينا ويسارا ، وفوق وتحت ، يتفرس فى

الشرفات ، فلمح أكثر من فتاة جذابة ، تصلح أن تكون صاحبة الرسالة النابضة بالحب والحياة ، طفق يوزع ابتساماته هنا وهناك ، لعل ابتسامة منها تكون من نصيب فتحية ، فتنزل السكينة بالقلب الولهان .

وخطر له أن يحيى من فى الشرفات الممتدة على جانبى الطريق بكلتا يديه ، كما يفعل الزعماء ، والأبطال ، فابتسم لذلك الخاطر الساخر الذى اقتحم عليه خياله فى هذه اللحظة الحاسمة من لحظات حياته ، لحظة التنقيب عن الجميلة التى فتحت له قلبها قبل أن يطرقه ، ووهبت له السعادة والحب .

انطلق وهو يحس كأنما بعث خلقا جديدا ، إنه محبوب ، وما أسعد أن يكون المرء محبوبا ، وتدفقت فى عروقه دماء حارة ما أحس حرارتها قبل يومه ، وسرى فى صدره أمل حلو أنعشه ، وأحيا نفسه من الموت .

ولمح فى شرفة من الشرفات ، فتاة جذابة ، ممشوقة القد ، دقيقة الخصر ، تهدل شعرها الكستنائى المتموج ، فأخفى فى دلال جزءا من وجهها الحلو الناصع البياض ، زادها حسنا ، وبدت ذراعاها البضتان كأنما خرطتا من الشمع ، خفق قلبه لجمالها الآسر ، الذى يلعب بالقلوب ، ويعبث بالرجال .

وقف يرنو إليها مذهولا ، وبقى مدة ، ثم انتبه إلى نفسه ، وراح يتلفت حوله ، فرأى رجلا مسنا أبيض الشعر ضئيل الجسم ، محدودب الظهر ، جذب حسنها عينيه ، فراح يتفرس فى جمالها ، ويتلفت نحوها كلما خطا فى الطريق خطوات ، فابتسم خيرى مزهوا ، فجمال من أحبته سبى الرجل الفانى ، وجعله يتلفت وفى عينيه إعجاب ، كشاب فوار الحواس .

وأشرق وجهه بابتسامة عذبة ، ومرر يده على شعره تحية ، فخيل إليه أنها ابتسمت له ، ومدت يدها تصلح شعرها المتهدل ، فانشرح صدره ، وصدق

ما حزره قلبه ، إنها هى بعينها ، فتحية التى بعثت إليه برسالتها الحارة ، ترد عليه تحيته بتحية مثلها .

وسار فى طريقه وهو نشوان ، سره أنه اهتدى إلى فتحية ، ووجدها نابضة بالحياة كرسالتها ، ووسع فى خطاه ، فقد دب فيه نشاط غريب ، وما إن بلغ الميدان حتى أحس رغبة فى أن يعود ويتطلع إلى فتحية ، فدار على عقبيه ، وقفل عائدا من حيث جاء ، فلما لاحت له الشرفة ظلت عيناه متعلقتين بها ، وانداح فى صدره خدر لذيذ .

ودنا من الشرفة ، فخفف من خطوه ، ورفع رأسه ، وراح ينقل فيها عينيه ، وقد تحرك فى جوفه اضطراب شهى . كانت شفتاها ممتلئتين مغريتين ، ووجنتاها فى لون الورد ، وعيناها آسرتين ساحرتين ، فانبعث من عينيه بريق أخاذ ، وسار الهوينى وهو يتلفت ، حتى اختفت الشرفة عنه .

وعاد إلى داره ، فاسترخى فى مقعد وثير ، وأخرج الرسالة ونشرها ، وراح يعيد تلاوتها ، فغمرته نشوة أعظم من النشوة التى غمرته أول مرة ، إنه يرى الآن بعين خياله فتحية : بشعرها الكستنائى المتموج ، ووجهها الحلو الصبيح ، توجه إليه خطابها فتنتشله من دنياه المحدودة ، لترفعه إلى عوالم رحيبة من السعادة والهناء .

وضع الرسالة على ركبتيه ، وأطلق لخياله العنان ، فرأى نفسه وفتحية فى تلك الحديقة البديعة التى رأتها فى منامها ، وهما يهرولان إلى النهر الرقراق ، ثم يتجهان إلى الزورق الرائع . ويركبان فيه ، وينطلقان ليسبحا فى عالم السعادة ، وقد أسند رأسه إلى رأسها ، واسترسل فى تخيلاته ، فألفى نفسه يضمها إلى صدره فى وله ، ويمطرها بقبلاته الحارة ، فأحس وهو فى مقعده نشوة عارمة .

وتبدل خيرى ، دب فيه نشاط بعد خمول ، واستيقظت حواسه بعد سبات ، وسبح خياله ، فهام فى سماوات التصورات ، بعد أن كان مشدودا إلى الأرض ، وصار يعتنى بهندامه ، يقف أمام المرآة سويعات ، وما كان يرتدى جاكتته إلا وهو هابط فى الدرج لا يلوى على شيء .

وراح يحيا على الأمل ، يعد الدقائق والساعات ، يرصد يوم الخميس فى قلق ورجاء ، وما انبلج صبح ذلك اليوم الموعود ، حتى فتح صوان ملابسه ، وأخذ يتفرس فى حلله ، يقلب هذه ، ويفحص عن تلك ، حتى اطمأن إلى حلة رمادية جذابة فتناولها ، ونادى الخادم الصغيرة ، وأمرها أن تذهب بها إلى الكواء .

واتجه إلى حيث يضع أحذيته ، وانتقى منها حذاء وضعه فى عناية بالقرب من المشجب ، ثم ارتدى ملابسه وخرج إلى الطريق ، وسار نشيطا ، حتى إذا بلغ الشرفة لم يجدبها أحدا ، فانقبض ، وتريث قليلا لعلها تقبل فيبتسم لها ، مؤكدا أنه سينتظرها فى الموعد المضروب ، ولكن مرت لحظات دون أن تفد إلى شرفتها ، فانطلق وهو يحس ضيقا ، لكن سرعان ما انقشع ضيقه ، فقد خطر له أنها تتأهب للقاء الذى يهفو إليه قلبها .

وذهب إلى عمله وهو جذلان ، راح يداعب زملاءه طلق الوجه ، ولم يستطع أن يطوى صدره على سره ، فأخذ يقص عليهم قصة الفتاة الفتانة التى أحبته ، وبعثت إليه تلتمس منه أن يوافيها اليوم ، لتطفئ لهيب الغرام ، وأرضى ذلك الحديث غروره ، فجعل يحدثهم عما سيفعله بعد اللقاء .

وانقضى ميعاد العمل فى الديوان ، فأسرع بالعودة وهو فرحان ، وما بلغ أول الطريق الذى يقطن فيه ، حتى سرى فى جوفه قلق لذيذ ، ومد بصره إلى شرفتها فلمحها ، فرقص قلبه سرورا ، وأغذ السير ، حتى إذا أصبح تحت

شرفتها رفع رأسه ، وافتر ثغره عن ابتسامة ، فخيل إليه أنها تبادله الابتسام ، فسار إلى بيته وهو هيمان .

وجلس إلى طعامه ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان شارد اللب ، مشغولا بما يجرى فى رأسه من رؤى وتخيلات ، فنهض وغادر السفرة ، وذهب إلى مقعد طويل تمدد فيه ، وأرخى لخياله العنان .

راح يفكر فيما سيفعله عند اللقاء ، فرأى أن يذهبا إلى مصر الجديدة ، ثم يستقلا سيارة إلى كازينو مونترو الضارب فى صحراء الماظة ، لينعما بالهدوء وهواء تلك المنطقة الجاف ، واستراح إلى تلك الفكرة ، ولكن سرعان ما قفزت إلى رأسه فكرة أخرى ، إنها رأت فى منامها أنهما بذرعان حديقة بديعة ثم انطلقا إلى زورق راح يتهادى بهما فى نهر صاف رقراق ، فلماذا لا يحقق لها فى الحقيقة ما رأته فى المنام ؟

واطمأن إلى ذلك الخاطر الجديد ، فقر رأيه على أن يذهبا إلى قصر النيل ، يجوسان خلال حدائق الجزيرة كفراشتين طليقتين ، ثم يركبان زورقا من الزوارق المنتشرة هناك ، يخطر بهما فى النيل ، عند الأصيل ، فيمتعان الطرف بمشاهدة الغروب الفاتن ، الذى يملأ النفوس بالجلال .

وأخذ الوقت يمر وهو غارق فى بحور النشوة المستمدة من الخيال ، ودقت ساعة الحائط الرابعة ، فأحس رنينها فى نفسه ، ارتفعت دقات قلبه ، وأرهفت مشاعره ، وزحفت إلى صدره رهبة خفيفة .

وقام يتأهب للانطلاق للقاء ، فذهب إلى المرآة ، وقرب وجهه ، وراح يتفرس فى صقالها ، فألفى شعرة نابتة فى خده ، فجذبها بالملقاط ، ثم أخذ يرجل شعره اللامع ، وارتدى قميصا أبيض هفهافا ، وتناول رباط عنق جذابا ، راح يعقده فى حرص ، ومد يده إلى العقدة يتحسسها فى رفق ، ليزيل



ثنية خفيفة فى طرفها .

وتناول حلته الرمادية فى حرص بالغ ، ثم ارتداها ، وأخذ يصلح من هندامه ، ويمد يده إلى المنديل المتدلى من جيبه ، يرفعه قليلا ، ثم يخفضه قليلا ، ثم يعود ليرفعه ، حتى إذا استراح إلى وضعه تقهقر خطوة ، وجعل يفحص عن صورته فى المرآة .

وأخذت اللحظات تمر فى بطء ، فطفق يذرع الغرفة صاعدا هابطا ، وقد سيطر عليه اضطراب مشوب بلذة ونشوة ، وخطر له أن يقرأ رسالتها ، فمد يده ، وأخرجها وراح يقرؤها خافق القلب ، مرهف الحواس .

ونظر إلى الساعة ، فألفاها الرابعة والثلث ، فتململ فى ضيق ، واتجه إلى الشرفة ، ووقف يستنشق الهواء ، ولكنه لم يطق أن يبقى فيها طويلا ، فدخل يقطع الحجرات جيئة وذهابا فى حيرة واضطراب . واستقر رأيه أخيرا على مغادرة الدار ، فراح يهبط فى الدرج متمهلا ، حتى يحافظ على رونق حلته .

وسار يتهادى ، حتى إذا بلغ شرفتها زاد وجيب فؤاده ، ورفع عينيه فلم يجدها ، فسرت الطمأنينة فى صدره ، إنها الآن أمام المرآة تتأهب للقياه ، آه لو تدرى لأسرعت بالهبوط ، لينعما بأسعد الأوقات ! وبلغ الميدان ، فوقف عند محطة الترام ، يمد بصره إلى الطريق الذى ستقبل منه فتحية بقامتها الممشوقة ، ووجهها الحلو الصبيح ، الذى يزينه عينان صافيتان رائعتان ، وفم فى لون العقيق ، يغرى باللثم والعناق .

ونظر فى ساعته ، فارتفع نبضه ، وزاد خفقان قلبه ، وسرى الدم حارا فى عروقه . إن هى إلا عشر دقائق ثم تقبل فتحية بذاتها اللطيفة . يا طالما حادثها فى الخيال أرق حديث ، وإن هى إلا لحظات حتى يناجيها فى الواقع الملموس ، الذى يفوق سحره سحر الخيال أعذب مناجاة ، وراح يغدو ويروح على

الطوار ، وعيناه ترقبان منفذ الطريق ، الذى ستقبل منه الفتنة والإغراء .

ووقعت عيناه وهو يتلفت على فتاة مقبلة نحوه ، إنها تبتسم له وإن ابتسامتها تتسع وتتسع ، فرمقها فى دهش ، فما كان يحسب أن تبلغ الجرأة بفتاة أن تغازل شابا مثل هذه المغازلة المفضوحة ، ودنت منه وهمست :

ـــ لقاء سعيد يا خيرى بك .

ومدت يدها تصافحه ، فأحس رأسه يدور ، وقلبه يغوص فى قدميه ، وضيقا ينتشر فى صدره ، إنها فتاة سمراء ، مفلفلة الشعر ، واسعة الفم ، جاحظة العينين ، أنفها أقرب لأنوف الزنوج ، وقد انتشر فى وجهها بقع سوداء زادت فى دمامتها .

وهمس فى صوت مفزوع :

ـــ فتحية هانم ؟!

فانفرج فمها الواسع عن أسنانها الصفراء ، فوقف مذهولا لا يدرى ما يفعل ، بعد أن انجلت لعينيه الحقيقة البشعة ، ثارت إحساساته وامتزجت ، حتى كاد يتعطل تفكيره ، وأقبل الترام ، فصعدت فتحية مسرعة ، وصعد خلفها دون أن يدرى .

وأخيرا أفاق من المفاجأة البغيضة ، والترام يجد فى سيره وقفزت إلى رأسه فكرة ، فنهض مسرعا ، وقفز من الترام ، وراح يعدو برهة وهو من الخوف يتلفت !

(صدى السنين)

غيرة القصير

وقف أمام المرآة يصلح من هندامه وهو شارد اللب ، فقد كان يحاول أن يمسك بأطراف أفكاره التى انتشرت فى ذهنه كأبخرة لم تتبلور ، لينسج منها قصة ، وخطر له أن يستعير ملامحه لبطل روايته ، فتفرس فى صورته المنعكسة على صفحة المرآة ، وأدام النظر إلى وجهه الأبيض المستدير وعينيه الواسعتين ، وحاجبيه اللذين كانا يبدوان كأنما قد رسما بقلم من الفحم ، وشفتيه الرقيقتين ، كانت صورته مقبولة ، وعضلاته مفتولة وعلى الرغم من ذلك لم يرض عن صورته يوما ، فقصر قامته حال بينه وبين الرضا ، فكان يشعر فى قرارة نفسه بشىء من الهوان ، وإن حاول جاهدا ألا يبدى إحساسه بهذا النقص الذى يضايقه .

وأقبلت زوجه ، فلمحها فى المرآة فى ثوب بديع أبرز جمال تكوينها ، فرفع رأسه قليلا ليرنو إلى وجهها الحلو الدقيق ، فقد كانت أطول منه قامة ، فرأى خصلة من شعرها قد تهدلت على وجهها ، فزادت من فتنتها ، ولمحها وهى تمد يدها لتعيد الخصلة إلى مكانها ، وتحرك رأسها الصغير حركه لطيفة ، فراح يرقبها وقد ارتسمت على شفتيه طلائع ابتسامة . كانت مصدر إلهامه ، ومنبع وحيه ، ولطالما أوحت إليه بأفكار .. فجمالها الرائع كان ينبت فى صدره وسوسات ، فكان يغذى وساوسه بخياله ، حتى تترعرع فى ذهنه ، وتستوى قصة .

وارتديا ثيابهما ، وخرجا معا إلى الطريق ، فراحت تخطر كحلم رائع

هادئ ، وسار إلى جوارها وقد نفخ صدره ، وزها كالطاووس ، لا تيها بالتحفة النادرة التى تشاركه فى حياته بل تحديا للغادين والرائحين ، فقد كان يتلفت يمنة ويسرة يرقب عيون الناس ، فإذا رأى رجلا يصوب إلى امرأته نظره السفيه ، رماه بنظرة ثائرة غاضبة عابسة فيرغمه على أن يغض من بصره ، ويوسع من خطوه ، كان رنو الأبصار إلى زوجه يحنقه ويضايقه وقد يسر هذا الحنق وهذه المضايقة قصر قامته وخياله الخصيب .

انطلقا وهو منتفش كالديك ، واقتربا من فاكهى جوال فارع الطول ، يملأ وجهه شارب ضخم فتل ورفع ، حتى كاد طرفاه المدببان يمسان الأنف المفلطح الكبير ، فرفع بصره إليه ، فألفاه يتطلع إلى زوجه فى فضول بغيض . بعينين براقتين ، فشعر بحنق شديد ، ورماه بنظرة شزر غاضبة ، فلم يحفل به الرجل ، ولم تختلج عيناه خلجة واحدة ، بل ظلتا مصوبتين إلى الجمال اللطيف الآسر للقلوب والأبصار ، فشعر الزوج بعضلات وجهه تتقلص وبمرجل غضبه يفور ، ولكنه كظم غيظه وانطلق ، وما ابتعد عن الرجل خطوات حتى صك أذنيه صوته المنغم ينادى :

ـــ أنا فى حبك ظلمونى يا حلو .

فتدفق الدم حارا إلى رأس الزوج ، وشعر بشواظ من نار تسرى فى عروقه ، وأحس عقدة من الحنق تعقد فى جوفه ، فتضيق من صدره ، وانتفض من الغيظ ووقف وهو يلتقط أنفاسه فى ثورة وجهد ، وهم بأن يدور على عقبيه ، ليعود لذلك المتغزل الوقح ، فيحطم له وجهه ، ولكن زوجته فطنت إلى ما يدور فى رأسه ، فمدت يدها وجذبته بخفة من ذراعه ، فرفع وجهه إليها فرآها ترنو إليه عاتبة ، فكبح جماح نفسه ، وكبت عواطفه الثائرة وانطلق نافخا صدره ، يتلفت يمنة ويسرة ، منفوشا كالديك .

كانا قد خرجا لزيارة أخت زوجته ، فلما اقتربا من دارها التفت إلى زوجته وقال :

— لن أستطيع أن أمكث معك طويلا ، عندى موعد هام .

كانت زوجته تعلم شدة غيرته ، ولطالما أضنتها هذه الغيرة ، فقالت لتسكن فى صدره الطمأنينة :

— انتظرنى لنعود معا .

— لا . يمكنك أن تعودى وحدك .

ودخلا على الأخت ، فألفياها وحيدة ، فانشرح صدر القصير ، وطفق يمد بصره ، ويدور بعينيه فى المكان ، فلم يلمح أحدا فشعر بطمأنينة ، وانتشبت روحه ، ولكن لم تدم طمأنينته طويلا ، فسرعان ما غاضت وانتشر فى صدره قلق لما أقبل عديله وصافحه ، ثم اتجه إلى زوجته يصافحها ، ويبالغ فى الترحيب بها .

كان عديله أسمر اللون ، عادى الملامح ، ولكنه كان محدثا لبقا ، وكان طويلا ، فكان هذا من أسباب نكد القصير ، وكان يضايقه لباقته فى الحديث ، فلو أنه كان عييا لما أنصتت زوجته إليه ، ولما انشرحت لما يرويه من أحاديث . جلس صاحب الدار وهو يرحب بها ، ثم أخذ يروى قصة وقعت له فى أسلوبه الفكه ، فضحكت الأختان ، فشعر القصير بيد قوية تهصر قلبه ، وبطعم الصاب من فيه ، فتململ فى كرسيه ، فقالت زوجته :

— لن نستطيع أن نمكث طويلا .

فقالت أختها :

— ولماذا ؟

— حامد عنده موعد هام .

ـــ يذهب إلى موعده وابقى معنا .

وقال صاحب الدار مجاملا :

ـــ وسأوصلك عند عودتك إلى دارك .

فتحركت عقارب الغيرة فى صدر حامد ، وجعلت تلسعه . ولم يطاوعه قلبه الغيور أن يترك زوجته لرجل غريب وإن كان عديله ، فقال وهو يتبسم ابتسامة كادت تفضح ما يكنه صدره .

ـــ أوه تذكرت .

فقالت زوجته باهتمام :

ـــ ماذا ؟

ـــ الموعد غدا لا اليوم .

واستأنفوا أحاديثهم ، وشرد ذهن حامد ، فقد كان يفكر فيما كان المتوقع حدوثه لو انصرف وترك زوجته لعديله . رآهما فى الخيال سائرين جنبا إلى جنب ، هى بقوامها الممشوق ، وهو بقامته المديدة ، وما كان يستطيع أن يتصوره صامتا ، فرآه يتحدث إليها متفكها ، ويتودد إليها فى ظرف ، وهى تنصت إليه جذلانة ، كما تنصت إليه الآن . واستسلم لخياله ، وتهيأ لينسج ما يوحيه خياله المريض ، ولكن ضحكات رنت فى أذنيه ، قطعت عليه حبل تفكيره ، فانتبه واغتصب ابتسامة ، ليوهم الآخرين أنه يشاركهم حديثهم ومرحهم.

ولم تدم انتباهته طويلا ، فسرعان ما شرد ذهنه ثانية ، وجعل يجتر حوادث قصة كتبها ، كانت تشبه ما يجول فى ذهنه الساعة ، ولم يفطن من قبل إلى أنها تترجم عن إحساسات اللحظة ، لعل نفس الإحساسات التى يحسها الآن ، بذرت فى صدره دون أن يدرى من أول يوم رأى فيه عديله ، ثم ترعرعت هذه الإحساسات فحسب أنها من وحى خياله ، فكتبها دون أن يفطن ، إلى أنه

كان يترجم عن مخاوفه ووساوسه .

كانت القصة تدور حول شاب وزوجته ، وأختها التى تعيش معهما ، وفى يوم كشف الزوج أنه يحب أخت زوجته . فحاول أن يكتم إحساسه ، وأن يئد حبه ، ولكن حبه كان طاغيا جارفا ، فاجتاح الحوائل ، وهجر الزوج زوجته ، وفر مع من أحبها .

هذا ما حدث فى القصة ، وهو ما يتصور الآن أنه سيحدث فى يوم من الأيام ، لو أنه ترك كل شيء يجرى فى مجراه ، ولكنه لن يدع ذلك يحدث ، سيفر بزوجته من طريق عديله ، ولن ييسر لهما المقابلة بعد اليوم ، وما وصل تفكيره إلى ذلك حتى هب منتصبا ، وأشار برأسه لزوجته ، فنهضت وانصرفا ، وقد وطن العزم على أن يخاصم عديله ، ليحول بينه وبين زوجه ، وليدرأ ما يهدده به خياله المريض من أحداث .

وراح يبدى نفورا مستترا من عديله كلما قابله ، ويسخر منه سخريات مغلفة بغلاف رقيق من الذوق ، ويستفزه ويخز كبرياءه وخزا ، فتحلم الرجل ، واعتصم بالصبر الجميل ، ولكن ذلك الصبر أحنق حامدا ، فراح يفسره بأن الرجل يحتمل أذاه إرضاء لزوجته التى يهواها ، فكشف عن نفوره ، وهتك الغلاف الرقيق الذى كان يغلف به سخرياته ، وجعل يجرح كبرياء الرجل ، فحلت الجفوة بينهما ، وامتنعا عن التزاور ، فتنفس القصير فى اطمئنان ، وهدأ صدره المكروب ..

ولم يدم هذا الهدوء طويلا ، ولن يدوم ما دام حامد يشعر فى أعماقه بالهوان لقصره ، ويدع نفسه مطية ذلولا لخياله المريض ، ففى يوم مرضت الزوجة ، وعادها أكثر من طبيب ، فقرروا علاجا يحتاج إلى بعض العناية ، وفضلوا انتقالها إلى مستشفى تمرض فيه ، كانت الزوجة تفضل أن تعالج فى بيتها ،

ولكن القصير راح يقنعها بأفضلية العلاج فى المستشفى ، فاقتنعت .

ودخلت الزوجة المستشفى ، وأقبل حامد فى عصر ذلك اليوم ، الذى دخلت فيه ليزورها ، وسار منبسط الوجه ، هادئ النفس ، حتى إذا ما دخل غرفتها ، ورأى طبيبا شابا بجوارها وهى تبتسم ، أو خيل إليه ذلك ، اكفهر وجهه ، وتلبد بغيوم الغيظ ، وثارت نفسه ، وهب خياله يغذيه بشكوكه فيضنيه .

كان الطبيب معتدل القامة ، فيه وداعة محببة ، يرنو إلى زوجته بعينين جذابتين ، وهو قابض على معصمها يجس نبضها ، فأحس غيرته تكاد تعصف به ، وشعر بوخز فى صدره ، وبجفاف فى حلقه ، وتذكر أنه كتب قصة حول طبيب كان يعالج فتاة ، فتوطدت الألفة بينهما على مر الأيام ، ثم تطورت إلى حب عميق ، إن هذا الطبيب الشاب الوسيم ، سيقابل زوجته الجميلة فى الليل والنهار ، فما يدريه أن هذه المقابلات لن تتطور إلى ألفة ، ثم إلى حب عميق ؟

وأطرق وقد نزل بصدره ضيق ، وخرج الطبيب ، وبقى وحده فلم يحادث زوجته ليرفه عنها ، بل ظل فريسة طيعة لأفكاره ، التى أخذت تعذبه وتضنيه ، وفيما هو فى إطراقه ، أحس حركة عند الباب ، فرفع رأسه ، فرأى عديله وزوجته ، فزاد امتعاضه واستياؤه وزاد كربه ، أما يكفيه الطبيب حتى يأتيه العديل !

وانتزع ابتسامة كانت تقطر مقتا ، ومد يده يصافح الأيدى الممدودة ، ولم يبد ترحيبا ، وانطلق العديل إلى فراش المريضة ، وجلس على حافته ، فما وجد مقعدا فى الحجرة ، وراح يحادثها متلطفا محاولا التخفيف عنها ، فكانت تبتسم فشعر حامد بسكين تمزق قلبه ، وبأظافر حادة تنهش صدره . ومر

الوقت ثقيلا بطيئا ، وأخيرا انصرف عديله وزوجته ، ولكن حامد لم يحس ارتياحا ، فالخطر جاثم هنا فى هذا المستشفى ، يهدده فى كل لحظة ، وفى كل ساعة .

وشرد ذهنه ، فرأى الطبيب بعين خياله بجوار زوجته ، بقامته المعتدلة ووجهه المشرق الصبيح ، فانقبض ، ورأى عديله يأتى فى الصباح ، وفى المساء ، فباب المستشفى مفتوح ، فزاد انقباضه ، وأقبل الليل ، فتراكمت فى مخيلته أفكاره السود ، فعزم على ألا يترك المستشفى ، قبل أن يأخذ زوجته معه ، فلن يدعها لعديله ، ولذلك الطبيب .

اقترب من زوجته وقال :

ـــ سنعود إلى البيت الآن معا .

فبان الدهش فى وجه الزوجة ، وقالت فى عجب :

ـــ ولماذا ؟

ـــ لا أحتمل دخول البيت ، وأنت بعيدة عنه .

وحزرت زوجته ما يكابده من وساوس ، فنهضت ترتدى ثيابها لتنصرف معه ، فقد كانت تعلم أنه عنيد ، وانفلتا من المستشفى متسترين بالظلام ، وأسرع فى سيره ، ليفر بزوجته من المصير الذى صوره له خياله المريض !

قصرٌ في الجنّة

رفع بصره عن الكتاب الذى كان يقرأ فيه ، ونظر إلى ساعته ، فألفى أن ميعاد ذهابه إلى الزمالك لزيارة خطيبته قد اقترب ، فوضع الكتاب المطبوع فى ورق أصفر على حافة مكتبه الأنيق ، ثم نهض ليتأهب للخروج .

إنه شاب متوسط القامة ، متناسب التقاطيع ، حلو القسمات له عينان سوداوان ، وأنف دقيق ، وفم صغير يحرسه شارب خفيف ، تلوح عليه البراءة والصفاء ، تلقى علومه فى الجامعة ، والتحق عقب تخرجه بوزارة الخارجية ، وعشق القراءة ، فما كان يغادر داره بعد عمله إلا لماما ، ولكنه ما كان يقرأ الكتب الحديثة أو الكتب العربية القديمة ، بل كان يهوى الكتب الصفراء التى تبحث فى الجنة والنار ، والبعث والحساب ، وقصص الأنبياء والأولياء ، وحكايات الصالحين والمتصوفين ، فيقبل عليها فى شغف ولذة .

وكان إذا تعب من قراءته يجلس إلى أمه وأقاربه ، يصغى فى اهتمام إلى القصص العجيبة التى يرددونها عن الأقطاب ، الذين كشف عنهم الحجاب ، أو يقص عليهم بعض النوادر التى قرأها فى كتبه الحبيبة عن الأولياء ، الذين أتوا فى كل خطوة معجزات يعجز عنها الرسل !

كان متدينا ، وما كان يعرف دينه الصحيح ، فقد شب وهو يصغى إلى البدع ، ويتلقى تعاليم دينه من أفواه العوام وأمه العجوز .

دخل غرفته ليرتدى ملابسه ، وفتح الصوان ، وأخرج حلة فاخرة ،

وقميصا أبيض هفهافا ، وهم بتبديل ثيابه ، ولكنه تذكر أنه سيمضى الوقت بين المغرب والعشاء فى بيت خطيبته ، فذهب يتوضأ حتى لا تفوته الصلاة .

ولبس ثيابه ، وخرج يتلفت ، فلما لمح سيارة قادمة أشار إليها ، ثم ركبها ، وانطلقت به وهو غارق فى غمرة من النشوة . فقد احتلت فكره صورة خطيبته الشابة الجذابة . وأمام قصر فاخر من قصور الزمالك وقفت السيارة ، فهبط منها فى عظمة ، وتقدم فى ثبات ، وأقرأ البواب النوبى السلام ، وسار فى الحديقة المنسقة تنسيقا بديعا بضع خطوات ، ثم راح يصعد فى الدرج الرخامى الفاخر ، فى تؤدة ووقار ، وقلبه يخفق فى جوفه طربا .

ودخل غرفة الاستقبال ، وغاص فى مقعد وثير ، وراح يتلفت فى إعجاب ، كان كل ما فى المكان ينطق بالبذخ والروعة ، فالصور الزيتية التى تزين الحيطان تسلب الألباب ، والرياش الفاخر والطنافس الفخمة ، والأثاث الرائع ينتزع الإعجاب ، وسمع حركة ، فنظر صوب الباب ، فرأى خطيبته قادمة بقامتها الممشوقة فى ثوب وردى ، فبدت كملاك ، فخفق قلبه فى صدره ، وانتصب واقفا ، وأقبلت تخطر فى خفة الغزال ، فلما دنت افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ، أضاءت نفسه ، فابتسم فى انشراح ، ولكنه لم يقدم يده ليصافحها ، كان يخشى أن تنقض وضوءه .

وقعدت وقعد ، وجعل يرنو إلى وجهها المليح وهو جذلان ، ويتحدث إليها وهو نشوان .

وأقبلت حماته ، فنهض وحياها فى أدب ، ولم يصافحها ، وجلسوا يتحدثون ، ومر بعض الوقت ، وفر النهار ، ووفدت طلائع الليل ، ورأت الحماة أن تنهض ، متظاهرة بقضاء حاجة ، لتخلى الجو للخطيبين ، فقامت مستأذنة ، وغادرت المكان .

ورنت الفتاة إليه بعينيها الرائعتين ، وقد انبعث منهما بريق خاطف عبث بأوتار فؤاده ، وألقت رأسها إلى الخلف فتهدل شعرها السبط الحالك السواد كليلة ظلماء ، وزمت شفتيها الممتلئتين ، فكانت فتنة ، إنها تهيأت للقبل ، وباتت تنتظر أن يهوى بشفتيه على شفتيها ، وصدرها فى علو وانخفاض ، وغض من بصره ، وقال فى صوت خافض :

ــ سجادة الصلاة من فضلك .

فنهضت وهى تحس خيبة ، وانطلقت متبرمة لتحضر ما طلب ، وما غابت عن عينيه حتى أخذ يلتقط أنفاسه المكروبة ، ويجفف العرق المنبثق من جبينه ، وعادت وفى يدها سجادة جديدة لم تستعمل من قبل ، زخرفت برسوم وتهاويل تشغل العابد عن صلاته ، فتناولها منها شاكرا وفرشها ، وخلع حذاءه ، ووقف يصلى فى خشوع .

وغاصت فى مقعد وثير ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها عن الفتنة والإغراء ، وأخذت تنظر إليه وقد انتشرت فى صدرها سحائب من الضيق ، وجاءت الأم ، فلما ألفته قائما يصلى لوت شفتها السفلى ، وقعدت بعد أن فطنت إلى أنه ليس هناك ما يدعوها إلى انتحال الأعذار لمغادرة المكان .

والتفت إلى اليمين وهو يسلم ، فوقعت عيناه على الساقين الجميلتين ، فأسبل جفنيه ، ثم التفت فى سرعة ناحية الشمال ، ونهض وهو يتمتم بالاستغفار ، وقالت له الأم وهى تبتسم :

ــ حرما ..

فقال فى حرارة :

ــ جمعا إن شاء الله .

وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتذاكرون ما فعلوه استعدادا لليلة

الزفاف .

وعاد إلى داره وهو يحس خفة ، وفرحا يلفه ، فقد جلت تلك الزيارة صدره ، ودخل فراشه ، وأطلق لخياله العنان . فأخذ يجتر ما حدث له فى يومه ، رأى خطيبته وهى ترنو إليه بعينيها الساحرتين فى وله وهيام ، وقد ألقت رأسها إلى الخلف ، واستدارت للقبل فاضطرب ، واستيقظت مشاعره الكوامن ، وانبعث من جوفه صوت راح يؤنبه على أنه لم يضمها إليه ويقبلها قبلة حارة ، تترجم عما يكنه لها من حب ووجد ، إنها خطيبته وعما قليل تصبح زوجته ، فلماذا لا يداعبها مداعبة لطيفة ، ويناجيها مناجاة رقيقة ، ويهمس فى أذنها بحديث عذب يدغدغ حواسها ، وينعش فؤادها ؟!

وظل ذلك الصوت يحرضه على أن يبدى لها حبه حتى استجاب له ، فعزم على أن يعتصرها إذا ذهب لزيارتها ، وأن يغمرها بقبلاته ، وأن يسمعها وجيب قلبه الولهان . وما كاد يستريح إلى ذلك العزم حتى هب خاطر جديد قوض ذلك العزم ، وجعله ككثيب من الرمال .

تذكر أن صديقا من أصدقائه خطب فتاة ، فكانا يخرجان معا ، يقضيان شطرا من الليل فى الملاهى ودور اللهو ، يعبان كئوس الحب مترعات ، وفى لحظة من لحظات النشوة انطلقا فى حبهما حتى النهاية ، فلم يفزعا ، فما كان يفصل بينهما وبين ليلة الزفاف إلا أيام ، وقبل الليلة الفاصلة وقعت حادثة ذهب ضحيتها الشاب ، مخلفا خطيبته للذل والعار .

واحتلت هذه الذكرى أقطار نفسه ، فمشت فى يديه رعدة ، ولفه خوف ، ونكص عن عزمه ، وصمم فى نفسه على ألا يرتكب ما قد يقوده إلى مثل تلك النهاية البغيضة ، فما يدرى ما تخبئه الأقدار ؟!

وفى عصر يوم من الأيام ، دخل مكتبه ، وأخذ يقرأ « حكايات

الصالحين » ، ومر الوقت وهو فى مطالعته ، حتى بلغ حكاية استحوذت عليه ، فراح يقرؤها مرهف الحس مشغوفا ، وما أتمها حتى أغلق الكتاب وهو مفعم بالنشوة ، وغادر مكتبه ، وذهب ينقب عن أمه فى غرف الدار .

ألفاها جالسة بالقرب من النافذة تستنشق الهواء ، وتقطع الوقت بالتطلع إلى الغادين والرائحين ، فدنا منها وقال فى صوت خافت :

ـــ هنيئا له .

فالتفتت أمه إليه ، وقالت فى استفسار .

ـــ من ؟

ـــ شاب رأى ما أعد له فى الجنة قبل أن يموت .

فنظرت إليه أمه وفى عينيها اهتمام ، وقالت :

ـــ كيف ؟

فقعد بالقرب منها ، وتهيأ للحديث ، ثم قال :

ـــ خرج جيش من جيوش المسلمين يغزو أرض الروم . وكان فى ذلك الجيش شاب يصوم النهار ويقوم الليل ، وجعل ذلك الجيش يتقدم فى زحفه ، حتى حاصر حصنا من الحصون ، وفى ليلة من الليالى خرج ذلك الشاب فيمن خرج ، ليحرس القوم ، فظل يتعبد دون نصب أو كلال ، فلما طلع الفجر دنا منه رجل ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، إن رحمتها كانت خيرا لك » فقال له الشاب : « يا أخى ، إنما هى أنفاس تعد ، وعمر يفنى ، وأيام تنقضى ، وأنا رجل أرتقب الموت » . فجعل الرجل يقسم له أن يدخل الخيام ليستريح ، فدخل ونام ، وفيما هو فى نومه أتاه رجلان لم ير أحسن منهما ، فسلما عليه ، فرد عليهما السلام ، فقالا له : « أبشر فقد غفر ذنبك ، وشكر سعيك ، وقبل عملك ، واستجيب دعاؤك ، وعجلت لك البشرى ،

فانطلق معنا حتى نريك ما أعد الله لك من نعيم » .

فانطلق معهما ، وإذا بخيل لا تسبقها خيل ، كأنها البرق الخاطف ، أو هبوب الريح ، فامتطوها .

وانطلقوا حتى انتهوا إلى مجالس ذات أسرة من ذهب وهاج ، مكللة بالجواهر ، محفوفة بكراسى من اليواقيت ، وعلى كل سرير جارية أحسن من القمر ، وفى وسطهن جارية أحلى من الحسن ، وأنضر من الورد ، كأنها الشمس تحف بها الأقمار ، فقال الرجلان للشاب : « هذا منزلك ، وهؤلاء أهلك ، وهنا مقيلك » ثم انصرفا عنه ، فوثبت الجوارى إليه بالترحيب ، ثم حملنه حتى أجلسنه على السرير الأوسط ، إلى جانب الجارية اللميحة ، ثم قلن له : « لقد طال انتظارها لك » .

وأخذ الشاب والجارية يتجاذبان أطراف الحديث ، قال الشاب : « أين أنا ؟ » فقالت الجارية : « فى جنة المأوى ! » فقال : « ومن أنت ؟ » فقالت : « زوجتك الخالدة » ، ومد يده ليضمها إليه ، فردتها ردا رفيقا ، ثم قالت : « أما اليوم فلا ، فإنك راجع إلى الدنيا ، فتقيم ثلاثة » . فقال لها : لا أحب أن أرجع » . فقالت : لابد من ذلك » .

واستيقظ من نومه لا صبر له عنها ، ثم قام فتطهر وتطيب ، وأخذ سلاحه ، وتوجه إلى موضع القتال وهو صائم ، فقاتل إلى الليل ، ثم انصرف ، فتحدث الناس بقتاله ، ثم مكث قائما يصلى حتى آخر الليل ، ثم أصبح صائما يقاتل أبلغ مما فعل بالأمس ، فلم يزل يلقى نفسه فى المهالك إلى غاية النهار ، وهو لا يصل إليه شيء مما كانوا يرمونه عليه ، وظل يتقدم كليث كاسر كشر عن أنيابه حتى بلغ باب الحصن ، وجعل يعالجه حتى فتحه ، وفى هذه اللحظة جاءه سهم فى منخره فخر صريعا ، وصعدت روحه إلى جنة

المأوى ، لتنعم بالزوجة الخالدة .

وصمت قليلا ثم غمغم :

ـــ هنيئا له .

وقالت أمه فى ابتهال وهى ترنو إلى السماء من النافذة :

ـــ اللهم عدنا !

وأطرق يفكر فى الجنة وقصورها .

وأفاق من حلم يقظته ، فنهض يتأهب للذهاب إلى قصر الزمالك ، ليقدم لخطيبته هدية .

ودنا من القصر ، فلمحه البواب النوبى ، فهب واقفا يرحب بمقدمه بشا ، وقد لمعت عيناه وأسنانه البيضاء فى رقعة وجهه السوداء ، وراح يصعد فى الدرج الرخامى متمهلا ، وهو ينمق مقالة رقيقة يقدم بها هديته .

وقادته الخادم إلى شرفة رحبة ، تطل على حديقة الدار ، فراح يقلب ناظريه فى الورود والأزهار ، ويملأ رئتيه بالعبير الفواح وهو نشوان ، وجاءت فى ثوب سماوى أبرز فتنتها ، وما إن وقعت عيناه عليها حتى خفق قلبه ، ورفت على شفتيه ابتسامة ترحيب ، وحيته فى رقة ، وجلسا يتحادثان .

كان يتلفت نحو الباب بين لحظة وأخرى ، يرصد إقبال حماته . وكان يرجو من كل قلبه أن تقبل ، وأن لا تغادر الغرفة حتى لا ينفرد بخطيبته ، ولكنها لم تظهر ، فقال فى رقة :

ـــ أين ماما ؟

ـــ خرجت .

فأحس رهبة تنتشر فى صدره ، وتمامل فى جلسته ثم دس يده فى جيبه ، وأخرج علبة فأخرة من القطيفة ، وقدمها إليها وهو يقول :

— تفضلى .

وسكت و لم يتفوه بكلمة من المقالة التى نمقها ، فتناولت العلبة وفتحتها ، فانبسطت أساريرها .. كانت هديته عقدا من اللؤلؤ ، فراحت تقلبه وهى تقول دون أن ترفع عينيها عنه :

— متشكرة .

ورفعت العقد بين يديها ، ثم وضعته على جيدها ، وحاولت أن تشبكه حول عنقها ، ولكنها وجدت عنتا ، فالتفتت إليه وعيناها تفيضان بالبشر ، وقالت :

— تسمح ؟!

واستدارت له ، فمد يده وجعل يشبك العقد فى أناة ، وإن كان الدم يتدفق حارا فى عروقه ، وقلبه يخفق فى شدة واضطراب ، وثارت مشاعره ، وتآمرت عليه ، فجعلت تهتف به أن يحتويها بين ذراعيه ، وأن يضمها إلى صدره الذى اشتعلت فيه النار ، وأن يهوى على عنقها بقبلة تطفىء ذلك اللهيب .

وكاد يضعف ويستجيب لهواتف نفسه ، ولكن خيل إليه أنه فى قصر فى السماء ، وقد التف حوله الوصيفات ورحن يهتفن به : « مهلا حتى يتم الزواج » ، فكبت عواطفه التى كانت تمور فى صدره فوارة دافقة .

ونهضت بقامتها الممشوقة ، واتجهت إلى مرآة قريبة لترى العقد فى جيدها : فأخذ يتبعها بعينين براقتين وفى جوفه ثورة ، ورأى أنه لو مكث أكثر من ذلك فقد تقهره رغبته ، فوطن النفس على الفرار .

أقبلت تخطر فى روعة ، وجلست إلى جواره ، وقد التصقت كتفها بكتفه ، فأحس دبيب النمل يسرى فى جسمه ، وملأت رائحتها الزكية أنفه ،



فدار رأسه ، وكاد يضعف ، ولكنه ملك نفسه ، ونهض وهو يقول :

— أرجو أن تسمحى لى بالانصراف .

فنظرت إليه وقد اتسعت حدقتاها ، وقالت :

— هكذا سريعا ؟

— إنى ذاهب لقضاء بعض الحاجات .

فقالت فى دلال :

— انتظر حتى تعود ماما .

ولو طاوع نفسه لجلس ، ولكنه كان يخشى ذاك السكون المخيم عليهما ، وتلك النزوات التى كانت تستبد به أحيانا كمارد جبار ، فقال :

— بلغى تحياتى لماما .

ومد يده وصافحها ، فألفى نفسه يضغط على يدها فى خفة ، ويجذبها إليه قليلا ، فلمعت عيناها ببريق أخاذ ، وتضرجت وجنتاها بحمرة ، فقد تدفق الدم الفوار إلى وجهها ، وترددت أنفاسها سريعة ، فاضطرب وإن كانت النشوة قد ملأت أقطار نفسه .

وغادرها وأخذ يقطع الردهة الطويلة فى خطا واسعة . وصدره مسرح لإحساسات متضاربة ، انتشرت فيه مشاعر الحب ثائرة مزمجرة ، كما انداحت فيه راحة لطيفة لانتصاره على هواتفه ، وبلغ الدرج الرخامى ، فراح يهبط فيه متمهلا ، ولفحه النسيم المنعش ، فهدأت ثورة مشاعره .

وفى ذات يوم خرج ليشترى بعض أشياء ، وفيما هو سائر لمح جنازة متواضعة فى طريقها إلى مسجد الحسين ، فوقف يتشهد ، وخطر له خاطر ، لقد سمع من أمه وممن خالطهم ، أن من يحمل ميتا ويسير به إلى قبره يبنى له قصر فى الجنة ، فلماذا لا يتقدم ويشارك فى حمل النعش ، فيضمن لنفسه قصرا

يغص بالجوارى والولدان والحور العين ؟!

واستولى عليه ذلك الخاطر ، واطمأن له ، فتقدم ثابت الخطو ، وحمل النعش ، وقد انتشرت فى جوفه إحساسات الرضا ، وسار ووجهه منبسط : وما فطن إلى أن الناس قد وقفوا يرمقونه فى دهش ، كان الرجل الوحيد الأنيق ، فى جنازة من الحفاة ولابسى الجلابيب الزرقاء .

وانطلقت الجنازة ، ووقفت شابة وسيدة تنظران إلى ذلك الأنيق الذى يحمل النعش ، وما وقعت عيونهما عليه حتى أنكرتا ما رأتا ، وأخذتا تتبادلان النظر فى دهش ، كانتا خطيبته وأمها ، خرجتا لاستكمال بعض الحاجات قبل ليلة الزفاف .

وغمغمت الأم فى أسى :

ـــ يا للفضيحة !

واربد وجه الفتاة : ولاح فيه الحنق الشديد والغضب الثائر ، وأحست خنجرا يطعن كبرياءها ، ففكرت فى الفرار ، ولكنها عادت وصممت على أن تدنو منه ، لتريه أنها قد رأته فى موقفه الشائن ، فجذبت أمها من يدها وقالت لها :

ـــ تعالى .

واندفعت إليه ، وأخذتا تحملقان فى وجهه وعيونهما تقذف حمما من الغضب ، ووقع بصره عليهما فارتبك ، ولكن لما ابتعدتا عنه أقلع ارتباكه ، ولج فى سيره ، حتى لا يقوض القصر الذى بدأ يبنيه فى السماء .

وبلغت الجنازة مسجد الحسين ، فوضع حمله ، وعاد مهرولا ، ينقب عن خطيبته وأمها هنا وهناك ، وقد تفصد عرقه ، ولما يئس من أن يعثر عليهما ، عزم على أن يذهب لزيارتهما بعد صلاة المغرب .

وقضيت الصلاة ، فانطلق فى سيارة إلى الزمالك ، وهو يحس قلقا ، ولما وقفت السيارة أمام القصر ، زاد ارتباكه ، وهبط منها وهو يضطرب ، وتقدم فى خطا ثقيلة وهو يتلفت ، وقع بصره على البواب النوبى ، فألفاه متجهما ، فانقبض وأحس خوفا . ودنا من البواب ، وقال فى صوت متهدج :

ـــ السلام عليكم .

وهم بالدخول ، ولكن البواب لم يفتح الباب ، وقال فى لهجة خشنة :

ـــ إلى أين ؟

فقال فى تخاذل :

ـــ الهانم فوق ؟

ـــ الهانم لا تريد أن تقابلك .

وقف مشدوها لا يدرى ما يفعل ، وثارت كرامته وغضب وتركه البواب وغاب فى غرفة صغيرة ، وعاد وفى يده لفافة ، دفعها إليه وهو يقول :

ـــ وقد نصحتنى أن أعيد لك هذه .

تناول اللفافة فى تراخ ، وقفل عائدا منقبض النفس ، مطأطئ البصر ، لقد أعادت إليه هداياه ، وقطعت كل ما بينه وبينها من سبب ، وسار حزينا محطما ، وفى ذلك اليأس المرير قفزت إلى ذهنه فكرة ، بددت بنورها الظلام الذى يخيم على كهف صدره ، فغمغم :

ـــ إن كنت خسرت قصر الزمالك ، فقد كسبت قصرا فى الجنة !

قصة الحذاء

سمعت طرقا خفيفا على باب مكتبي ، كان متناهيا فى الرقة ، ففطنت إلى أن صاحبه يحاول أن يوحى إلىّ أنه رجل مهذب ، لا يحب إقلاق الناس ، وإن حزرت أنه صاحب حاجة ، جاء إلى الديوان يلتمس منفذا لحاجته ، فقلت :

ـــ تفضل .

فدلف إلى الحجرة إنسان قمىء ، ترف على فمه ابتسامة ، وما إن وقعت عيناه علىّ حتى حنى رأسه فى أدب وقال :

ـــ حضرتك مصطفى بك ؟

ـــ نعم . أية خدمة ؟

ـــ لى موضوع هنا أحب أن أعرضه على سعادتك .

فأشرت إلى كرسى قريب منى ، وقلت :

ـــ تفضل .

وقعد وسحب الكرسى واقترب منى وقال :

ـــ تقدمت فى مناقصة لتوريد زيوت للوزارة ، ورسا علىّ العطاء ، وحدد يوم ١٠ لانتهاء التوريد ، ومضى ذلك التاريخ ، ولم أستطع تنفيذ العقد ، كان التأخير لأمر خارج عن إرادتى ، اشتريت من تجار كثيرين ، ولم أتسلم الزيوت فى الميعاد الذى اتفقنا على أن أتسلمها فيه ، ولقد قرروا هنا الشراء من السوق على حسابى وتحميلى فرق الأسعار ، ولو تم ذلك كان فيه خرابى .

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أن تمد أجل التوريد .

— هذا ليس من شأنى ، هذا من اختصاص وكيل الوزارة .

— قيل لى إنك تستطيع أن تقنع الوزارة بمد أجل التوريد . أرجو منك أن تفعل شيئا ، اشتريت بكل أموالى زيوتا ، سأتسلمها قريبا ، فإذا لم أوفق فى مد أجل التوريد ، فسأصاب بكارثة .

— سأهتم بهذا الموضوع .

— أرجو منك .. مستقبلى بين يديك .. لن أنسى هذه المكرمة ما حييت .

وصافحنى الرجل وهو يشد على يدى ، وخرج وهو ينحنى فى أدب . وجلست أكتب مذكرة للوزارة أطلب فيها امتداد أجل التوريد ، وذهبت إلى الوزارة ، وقابلت هذا وذاك ، وتمكنت بعد لأى أن أحصل على الموافقة المنشودة ، وأخطرت الرجل ، فجاء إلى يسعى ، يزجى إلىّ عبارات الشكر والتقدير .

ومرت أيام ، ووفد إلى مكتبى ذلك الرجل القمىء ، يبتسم فى رقة ، وينحنى فى احترام ، فلما وقعت عيناى عليه قلت :

— خيرا ؟

— أتممت التوريد ، ولم أصرف بعد ثمن ما وردت .

فاستفسرت عن سبب تأخير الصرف ، فعلمت أن هناك بعض الإجراءات لم تستوف بعد ، فوعدت الرجل خيرا ، وانصرف من عندى وهو يكرر الشكر ، ويدغدغ أذنى بعبارات الثناء .

وما انقضى على انصرافه يومان حتى تسلمت رسالة سرية من الوزارة ،

ففضضتها فإذا بها شكوى من ذلك الرجل القمىء . يتهمنى فيها صراحة أننى أتعمد تأخير صرف قيمة الزيوت التى أتم توريدها ، فانتشر الضيق فى صدرى ، وأحسست دماء حارة تتدفق فى عروقى ، وشردت قليلا ، فتذكرت قصة الحذاء ، فخمدت ثورتى ، وارتسمت على شفتى ابتسامة زراية . كانت تلك القصة البلسم الشافى لنفسى ، كلما أساء إلىّ من أحسنت إليه :

كنت رئيسا لفريق كرة القدم بالمدرسة الابتدائية ، وفى يوم من أيام الخميس جاءنى ثلاثة أقارب لزملاء لى فى المدرسة ، وقالوا لى :

ـــ سنتبارى اليوم مع فريق من فرق الحى ، ونحب أن تلعب معنا ، إنها مباراة هامة ، إذا فزنا فيها انعقدت لنا بطولة الحى .

فاعتذرت بأنى أرسلت حذاء الكرة للإصلاح ، ولن يتم إصلاحه قبل يوم الجمعة ، فقال أحدهم :

ـــ عندنا أكثر من حذاء .

وقال آخر :

ـــ عندنا حذاء جديد يليق بك .

وعرضوا على أن أذهب معهم ، فانطلقنا إلى دارهم يتملقوننى ، ويتحدثون عن براعتى فى اللعب ، وأنا مطرق حياء ، حتى إذا بلغنا البيت ، دلفنا إلى غرفة بها أرائك عتيقة ، وبعض أحذية الكرة ، وملابس مبعثرة ، أجلسونى فى الصدر وغاب أحدهم ، وعاد يقدم لى كوب شراب الليمون ، فشربته وقد شاعت فى نفسى إحساسات الرضا ، وقدموا إلىّ حذاء جديدا ، فخلعت حذائى ، وهممت بلبس حذاء الكرة ، فامتدت أكثر من يد تعاوننى على لبسه ، وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، وأنا أنظر إلى الحذاء ،

وأضرب به الأرض ، فقال أحدهم :

ـــ رائع .

فذهبت إلى الأريكة ، وجلست ورفعت رجلى لأخلع الحذاء ، فإذا بأصوات تقول فى استنكار :

ـــ ماذا تفعل ؟

ـــ أخلعه .

ـــ لا .. لن تخلعه .

ـــ لماذا ؟

ـــ سيبقى فى قدميك حتى تذهب به إلى الملعب .

فقلت فى إنكار :

ـــ أسير فى الطريق وفى قدمى حذاء الكرة !

ـــ كلنا نفعل ذلك .

ولفوا حذائى فى ورقة ، ووضعوه تحت إبطى .

واستأذنت فى الانصراف ، فعرضوا على أن أتغدى معهم ، وألحفوا فى العرض ، فاعتذرت بأننى لم أخبر أهلى ، وهبطت إلى الطريق ، والثلاثة من حولى ، حتى إذا بلغت رأس الشارع ودعونى فى حرارة ، فانطلقت وأنا نشوان ، هزتنى تلك المعاملة الطيبة ، ومست شغاف قلبى .

وذهبت إلى الملعب ، وما إن لمحونى قادما حتى خفوا إلىّ مرحبين وأحاطونى بعطفهم ، حتى غرقت فى السعادة .

وبدأت المباراة ، فعقدت العزم على أن أبذل غاية ما فى وسعى من مجهود ، فهذا أقل ما أقابل به ذلك الكرم .

ووفقنى الله ، فسجلت لهم إصابة ، ثم أردفتها بأخرى ، وانتهت المباراة

وقد فازوا بهاتين الإصابتين ، وتفرقت الجموع ، وأقبل الثلاثة إلى يهرولون ، فحسبتهم قد خفوا إلى يزجون آى الشكر وعبارات الإطراء ، فرقص قلبى فى جوفى ، وإن تدفقت إلى وجهى دماء الخجل .

قال أحدهم وهو ملهوف :

ــ الحذاء ؟

فقلت فى بلاهة :

ــ ماذا ؟

ــ نريد الحذاء .. اخلع الحذاء .

فقلت فى إنكار :

ــ الآن ؟!

ــ نعم الآن .

ــ ليس معى حذاء آخر ، ولا أستطيع أن أسير حافيا .

ــ هذا ليس من شأننا ، نريد الحذاء .

ــ تعالوا معى إلى بيتنا .

ــ لا .. إننا نريد الحذاء .

وجلست على الأرض مقهورا ، وقبل أن تمتد يدى إلى رباط الحذاء ، امتدت أكثر من يد ، وما هى إلا لحظات حتى كنت فى الأرض الفضاء وحدى ، عارى القدمين إلا من الجورب .

هذه هى قصة الحذاء التى أتذكرها كلما وقعت على إساءة ممن أحسنت إليه ، فتجلب على شفتى بسمة ازدراء ، وتنزل بصدرى تلك الراحة التى يحسها من فقد إيمانه بالناس .

فارس وامرأة

١

أتم منصور الرواية التى كان يقرؤها ، فطواها وهو يزفر زفرة ارتياح ، ولاح فى وجهه انشراح ، ووضعها على ركبته ، ثم ألقى برأسه إلى الخلف ، وأسبل عينيه ، وأخذ يجتر فى لذة وشغف فعال البطولة والشهامة التى قام بها البطل ، ثم ما لبث كما هى عادته ، أن أقحم نفسه فى غمار الحوادث ، فانتزع من البطل بطولته ، وتسربل بها ، ورأى نفسه بعين خياله فارسا مجلى يركب الصعاب ويقتحم الأهوال ، ويقاسى فى سبيل حبه النبيل أشد المقاساة ، حتى ينعم فى الختام بالحبيبة ربة الطهر والعفاف .

رزق منصور بسطة فى الجسم ، وقوة فى الذراعين ، وسذاجة لا تتفق ومظهره الجبار ، وكان فى قرارته راضيا عن نفسه كل الرضا ، مع أنه لم ينل إلا قسطا ضئيلا من التعليم ، ثم اضطرته قسوة الحياة أن يحترف حرفة لتدر عليه رزقا ، إلا أن ذلك لم يفت فى عضده ، بل راح يعمل على أن يثقف نفسه بنفسه ، فعكف على قراءة الروايات ، فشغف بها حبا ، فما كان يسير فى الطريق ، إلا وفى يده رواية ، وما كان يرى فى البيت إلا قارئا أو سابحا فى بحور الخيال .

وباتت أمنيته فى الحياة أن تهط عليه من السماء ، فتاة كتلك الفتيات

الرائعات ، اللائى يهبطن على أبطال الروايات ، يرعاها بعطفه ، ويغمرها بحبه ، ويبثها مكنون نفسه ، ويكافح فى سبيلها ، وينافح عنها حتى تخلص له وحده ، ويعيشا فى سعادة وهناء . وكان يرى فتاته بعين الخيال ، فى لحظات التأمل التى تعقب قراءة الروايات ، لذلك ما كانت تستقر على حال ، بل كانت تتغير وتتبدل بتغير البطلات ، فمرة سوداء الشعر بيضاء البشرة ، سوداء العينين ؛ ومرة ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، ومرة سمراء خفيفة لطيفة . وما كان يغوص فى نفس فتاته ، فما كانت الروايات التى يقرؤها لتهتم إلا بالمظهر الخارجى الجذاب للفتيات ، إن كل ما يطلبه أن تكون مثال العفة والوفاء .

وظلت أمنيته تداعبه فى خلوته ، فعاش يترقب اللحظات السعيدة التى ستهبط عليه فيها حبيبة الفؤاد ، لتحيل حياته الفارغة إلى قصة جذابة ، ينعم فى عالمها الواقعى بما ينعم به فى دنيا الخيال ، وكان يؤمن فى نفسه ، أن القدر يخبئ له مفاجأة كتلك المفاجآت السعيدة التى يدخرها مؤلفو الروايات ، ليمنحوها أبطالهم مكافأة لهم على ما قاسوه من مشقة وحرمان ، وكان يعتقد أن ذلك لن يتأخر طويلا ، ولكنه ما كان يدرى على أية صورة من الصور البهيجة ، ستقع هذه الحادثة المرتقبة ، فما كان يرفع بصره عن الروايات ليرى الفتيات اللاتى يملأن الدنيا حوله حياة ..

وفى صباح يوم من أيام الصفاء ، خرج منصور من داره ، ولم يكن فى يده كتاب ، فقد أتى قبل طلوع النهار على الرواية التى كانت معه ، انطلق ساهما يقطع الطريق التى اعتاد أن يذرعها كل يوم فى ذهابه إلى العمل ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يحادثها وتحادثه ، وملأ خياشيمه فجأة عبير حلو نفاذ ، فإذا فتاة على قيد خطوات منه ، راعه منها دقة خصرها ، وتناسب جسمها ،

وحسن تكوينها ، فوسع فى خطاه ، حتى إذا ما حاذاها أحس رعدة خفيفة تسرى فيه ، والتفت إليها يتفرس فى وجهها ، فبهره جمالها ، وكان قد وطن نفسه على أن يهمس لها همسات إعجاب ، ولكن بريق العينين الواسعتين ألجم اللسان ، فتأخر قليلا ، وراح يتبعها كالمأخوذ الذى فقد الحواس .

وبلغت محطة الترام ، فوقفت تنتظر ، ووقف على بعد خطوات منها يمعن النظر ، وهمس فى جوفه هامس بأنها فتاة الأحلام التى هبطت عليه من السماء ، فرنا إليها رنوة حبيب ولهان ، وأقبل الترام فقفزت إليه فى خفة الغزال ، فشعر بقلبه يخفق فى صدره خفقات ، فلبث قليلا شاخصا ببصره إلى الترام ، ثم استأنف سيره وهو يفكر فى الفتاة ، رآها فى الخيال تسير بالقرب منه ، ورأى نفسه يلملم أطراف شجاعته ، ويهرع إليها يحييها فى جرأة ، فترد تحيته بابتسامة عذبة ، فيحادثها وتحادثه حديثا حلوا يشرح الصدر ، ويبهج الفؤاد ، وأحس نشوة تملأ نفسه ، ولكنه لم يركن إلى هذه النشوة طويلا ، فإن هذه الصورة البسيطة من صور التعارف لم ترض خياله الجموح ، فراح يجتر مشاهد الروايات ، فرآها أول ما رآها فى عربات السفر ، التى تجرها الجياد تقطع القفار . ورأى نفسه على صهوة جواد فى أعلى الجبل ، يرقب العربة المنطلقة فى الفضاء ، وإذا بالجياد تجمح فجأة ، فتنطلق كريح عاصفة لا تلوى على شىء ، فيلوى عنان جواده ، وينحدر كسيل جارف حتى يبلغ الجياد الجامحة ، فيقفز فوقها ، ويجذبها من أعنتها ، وقبل أن يتم هذا المشهد فى ذهنه ، زال ليحل مكانه مشهد آخر لا يقل عنه روعة وفخامة ، رآها سجينة فى قلعة من قلاع العصور الوسطى وهو فى عدة الفرسان شاهرا سيفه ، ينازل الرجال ، ويجدل الأبطال ، ليصل إلى آسرة الفؤاد ، وظلت المشاهد تقفز إلى ذهنه متتاليات وهو غارق فى نشوته ، محلق فى عالم وردى من الأحلام .

وعاد مع االليل إلى بيت الأوهام ، فتمدد على أريكة عتيقة ، وأرخى لفكره العنان فراح ينسج من خيوط خياله حول فتاة الصباح مواقف رائعة من البطولة والغرام ، واستمر فى تحليقه اللذيذ فى سماوات الأحلام ساعات ، حتى إذا ما فاضت بهجته وارتوى خياله ، هبط إلى الأرض لحظات ليفكر كما يفكر الناس ، ففكر فى نفسه المقيدة بقيود وأغلال ، رأى فقيرا لا يقوى على إقامة عش هانئ لزوجين سعيدين ، فقد تعقدت الحياة ، فشاعت فى صدره سحابة خفيفة من الكدر ، لكن سرعان ما تبخرت تلك السحابة ، فقد عاد ثانية ليسبح فى بحور الخيال ، فأقنع نفسه أنه اليوم فى البداية يتعثر ويقاسى الحرمان ، أما فى الغد فستبتسم له الدنيا ، سينساب فيها لينعم بخفض العيش وبهجة الحياة .

وظل كطيف يتشكل فى شكول لطيفة ، وينعم برؤى اليقظة ، حتى غلبه النوم ، فنام واستمر فى رقدته الهنيئة ، حتى داعب أذنيه صياح الديكة ، مبشرة بدنو طلائع النهار ، فنهض يرجل شعره ، ويسوى هندامه ، فقد عزم على أن يتودد إلى الفتاة . وترك الدار قبل ميعاده الذى اعتاد أن يخرج فيه ، ووقف على وصيد الباب يرصد الطريق ، ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال . ومر الوقت بطيئا فلم يحس مللا ، فقد كان ممتلئا أملا ، وخفق قلبه فجأة ، ثم اشتد وجيبه ، وصعد الدم حارا إلى وجهه ، فقد لمحها تخرج من دار قريبة من داره بقوامها الممشوق ، ومرت أمامه ، فملأ خياشيمه عبيرها الحلو النفاذ ، فانتشت روحه ، وهم بأن يومئ لها برأسه محييا ولكنه لم يجرؤ ، فظل ثابتا لا يريم ، ولولا البريق المتألق فى عينيه لحسبته تمثالا .

وبعدت عنه خطوات فعاد إلى نفسه وتملك حواسه ، فجعل يقتفى أثرها ، و لم يجد فى نفسه الشجاعة ليدنو منها ليسمعها ما نمق طول الليل من كلمات ،

وما انفك يرقبها على البعد حتى ركبت الترام ، فانطلق إلى عمله وهو يحاول أن يجد لنفسة الأعذار ، فما هو من الرقعاء الذين يعترضون الفتيات فى الطرقات ، إنه يتمتع بما يتمتع به الفرسان من حميد السجايا ونبل الأخلاق !

٢

وترادفت الأيام وهو ينتظرها فى الصباح ، ويتبعها على البعد خافق الفؤاد ، وكانت تترفق فى السير أحيانا ، وتتلفت أحيانا ، وابتسمت مرات ، ولكن كل ذلك لم يشد أزره ، ويشجعه على هجر السجايا الحميدة ونبل الفرسان ! وكأنما شاء القدر أن يترضاه ، فجعل تعارفه على الصورة المشتهاة ، ففى ليلة من الليالى بينما كان يسير عند أوبته فى الميدان القريب من داره ، إذ لمح ذلك الجسم المتناسب الذى انطبع فى الفؤاد ، ينساب فى لألاء الضياء المنبعث من مصابيح الميدان ، فيسرى فيه اضطراب لذيذ ، وانطلق إليها خفيفا ، حتى أصبح على مرمى حجر منها ، وعرجت إلى شارعهم الضيق ، فخطر له أن يذهب إليها ، ليلقى عليها فى رقة تحية المساء ، فالشارع هادئ ساكن ، والظلام سائد ، لا تقوى على هتك غلالته تلك المصابيح الخافتة القليلة التى تكاد تلفظ الأنفاس ، ولكنه كبح ذلك الخاطر ، فقد كره أن يقوم فى الظلام بما أحجم عن تنفيذه فى وضح النهار .

ورآها على بصيص النور الواهن تنفر من شىء . وسرى فى أذنيه همس زجر ، فحملق وقد أرهفت منه الحواس ، وأغذ فى السير حتى اقترب منها ، فلمح شابا يطاردها ، فثارت ثورته ، وتدفق الدم حارا فى عروقه ، وصك أذنيه صوتها وهى تنهر الشاب ، فلم يشعر إلا وهو ينقض عليه ، ثم يلكمه

لكمة قوية ترنح بعدها الشاب ، وهوى على الأرض ، وداعبه صوتها وهي تغمغم : « متشكرة » ، فأحس خدرا لذيذا ، وتحركت أحاسيس البهجة فى نفسه فغمرته بالسرور والهناء .

وحنى لها رأسه فى أدب جم ، ثم انصرف ودخل داره هيمان ، وتمدد على أريكته العتيقة ، وأسبل عينيه ، وجعل يستعيد ما حدث من لحظات فى نشوة ، رأى نفسه وهو يلكم الشاب تلك اللكمة الجبارة ، فشعر بزهو ، وأنصت إلى صدى صوتها الرقيق ، فأحس دغدغة فى الحواس ، ولاحت له فى ظلام الغرفة عيناها البراقتان الواسعتان ترنوان إليه ، فانتفض كأنما سرى فيه تيار كهربى ، وانطلق خياله ليحلق فى أجوائه ، ولينسج ما تشتهى النفس ، فغمرته سعادة شاملة .

٣

وصارا يتلاقيان كل صباح ، وتواعدا يوما من أيام الربيع ، فهب النسيم عليلا فأنعش روحيهما ، وسارا ملتصقين ، فهبت العواطف النائمة تتصارع فى جوفيهما . أحس حنينا إليها ورغبة فى أن يضمها إلى صدره الذى ضاق بأحاسيسه الفوارة ورنا إليها فى وله ، ونظر إلى عينيها الجذابتين فانتشى ، وضيقت من عينيها ، وألقت برأسها على صدره ، ورفعت وجهها فى دلال وإغراء كأنما تتأهب للقبل ، وملأ عبيرها خياشيمه ، فكاد يهوى بشفتيه على شفتيها المغريتين ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وترفع عن أن ينتهز لحظة من لحظات ضعفها ، فقد كان فارسا !

وبلغا مقعدا فجلسا يلتقطان الهواء فى قوة ، فقد أجهدتهما أحاسيسهما ،

وبقيا صامتين برهة ، ثم تناول منصور يدها وضغطها فى رفق ، وقال فى صوت متهدج :

ـــ أحبك .

وصمت كأنما عقد لسانه ، وأشرق وجهها ، فتملك روعه ، وعاد إليه بعض هدوئه ، فقال فى أناة :

ـــ أحبك . ولما كنت أمقت أن أرتكب ما يرتكبه الشاب العابث فإنى ..

ثم عاد فصمت ثانية ، كأنما ألجمه حياؤه ، ولكنه قهر خجله وقال :

ـــ أتقبلين ؟

فهمست فى صوت خفيض .

ـــ ماذا ؟

ـــ التزوج بى .

فترقرق ماء الحياء فى وجنتيها ، وبرقت عيناها ببريق السعادة ، ولاح فى محياها الرضا كل الرضا ، وهمت بالكلام . ولكنه أسرع وقال :

ـــ يكفينى ما أرى ، إنى سعيد ، أسعد مخلوق فى الوجود .

٤

دقت الدفوف ، وأطلقت الزغاريد ، وأغلق الباب خلف العروسين ، واختلى منصور بفتاة الأحلام التى هبطت عليه من السماء فغمرته السعادة ، وراح قلبه يرقص فى صدره طربا ، فقد نال فى النهاية حبيبة الفؤاد ، وربة الصون والعفاف .

وقادها إلى مقعد طويل ، وجلسا ، فأطرقت ، فمد يده إلى ذقنها ، ورفع



(صدى السنين)

وجهها فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع ، فانقبض وقال بصوت مبحوح :

ــ ماذا ؟

فقالت فى انكسار :

ــ إنى تاعسة . منكودة .

فزاد انقباضه ، وأحس رأسه يدور ، وقال فى حشرجة :

ــ ماذا جرى ؟

فقالت وقد نكست رأسها :

ــ لا فائدة من الكتمان ، سأبوح بكل شيء .

فحملق فيها مشدوها ، وراحت تعترف :

ــ خطبنى فوثقت فيه ، وغرر بى فاستسلمت له ، وفى لحظة من لحظات الضعف نال كل شيء .

وصمتت ، وساد الغرفة سكون الرموس ، ولكن كان صدر منصور مسرحا لصراع هائل جبار ، فقد بات بين أمرين : أن يطرد المدنسة من البيت ، أو يستر عرضا ، وظل فريسة لأفكاره تتجاذبه وتتنازعه ، وأخيرا نهض إليها كفارس كريم ، يحنو على ضعيف ، ويقيل عثرات المتعثرين ، وربت على كتفها وقال :

ــ عفا الله عما سلف .

٥

ووطن العزم على أن يتناسى ما عرفه تلك الليلة الهائلة ، وراح يمنى النفس بأن يحيا حياة سعيدة ، بعد أن ضحى واحتمل تلك الصدمة المروعة فى ثبات ورباطة جأش ، إنها ستقدر نخوته ولا ريب ، وستمنحه الحب ، بل ستجود له بالنفس ، تقديرا لما أسدى إليها من معروف .

ومرت شهور ، فأبدت نفورها منه ، فراح يتألفها ويتودد إليها ، وكان كلما أظهر لها الحب ازدادت منه نفورا ، وجعلت تنغص عليه حياته ، وترهقه بما لا يطيق ، حاول أن يرضيها ، فما كانت ترضى ، وحاول أن يلبى رغباتها ، فكانت تزداد تعسفا ، فجعل يفكر بعقلية الفارس ، ولو فكر بعقلية المرأة لفطن إلى أنها كرهته من تلك الليلة ، ليلة العفو الكريم !

وتجرأت عليه على مر الأيام ، فكانت تسخر منه وتهزأ به ، وفى يوم أخذ السباب يتدفق منها ، فقالت له فى ثورتها :

ـــ اخرج يا ..

وقالت كلمة تملأ الفم ، فخرج منكس الرأس ، كفارس ثلم شرفه ، وكسر سيفه .

في العيد

عضها الجوع ، فجعلت تتلوى فى فراشها ، و تفتح عينيها ، خشية أن يفر منها النوم ، ولكنها كانت سادرة فى الوهم ، فقد نأى النوم عنها وأمعن فى الهجر ، فما كان يجود بوصال المحرومين الجائعين .

وأحست سكاكين تمزق جوفها ، ووهنا يدب فى أوصالها ، فدفعت عنها غطاءها الذى كونته من قطع شتى من الأنسجة اختلفت ألوانها ، فبدا الحصير الممزق فى ضوء الذبالة الخافت ، كأعواد من القمح ، صفت على ظلال سود ، وتحاملت على نفسها ونهضت ، قصيرة هزيلة نحيلة ، عبث الزمن بصفحة وجهها ، فخلف غضونا ، وترك الجوع آثاره ، فكانت ذبولا .

وانطلقت كالطيف صوب الذبالة وحملتها ، وسارت يسترها جلباب أدكن فقد شبابه ، فذهب سواده ، واستحال إلى لون الزيتون ، وهرعت إليها قطتها تتمسح بها ، فتزيد فى اضطراب خطوها ، إنها قطة نقاسمها ليلها ، وتغادرها نهارها ، فما كانت تستطيع أن تصبر على الحياة المتقشفة القاسية .

وراحت تجوس خلال حجرتها التى كانت أشبه بكهف ، فما كان بها للهواء منفذ ، إلا ذلك الباب اللافظ إلى بضع درجات متهدمات ، تؤدى إلى فناء الدار الرطب ، الذى ينبعث منه روائح ماء آسن ، وتنطلق فيه أسراب الجنادب والخنافس ، وما كان بها كوة ، تسمح لأشعة الشمس أن تنفذ منها ، لتبدد ذلك الليل السرمد . ثم اتجهت إلى قلة ذليلة طاح رأسها ، رفعتها

وتجرعت منها جرعة .

وعادت إلى حصيرها وتمددت ، وسحبت غطاءها ، ولكن ما كانت تلك الجرعة لتكتم أنفاس ذلك الغول الذى كان يعوى فى أعماقها ، وينشب أظافره فى أحشائها ، فسرعان ما أنت وتلوت .

ولم تطق صبرا ، فهبت ثانية من رقدتها ، أحضرت قطعة خبز يابس ، كانت تدخرها ، ورشتها بالماء ، ثم جاءت بقليل من الملح ، وقعدت تأكلها ، لتسكت ذلك الصراخ المنبثق من أغوارها ، وخفت إليها قطتها ، تنظر بعينيها الخضراوين المتألقتين فى الظلام كمصباحين ، فتغافلت عنها ولكن القطة راحت تتمسح بها ، فشعرت كأن اللقمة وقفت فى حلقها ، وتحركت شفقتها . فأشركتها فى كسرتها .

وارتفع ثغاء الخراف ، فمشى الصوت فى أذنيها ، حقيقة موجعة ، فأطرقت وقد ارتسم الأسى فى وجهها الجاف الذابل ، فغدا هو عيد الأضحى ، ولم تعد تملك ما تبيعه لتحتفل بالعيد كما يحتفى به جيرانها ، باعت كل شىء ، ولم يبق فى حجرتها إلا الحصير والقلة ، والموقد والقدر .

وخطر لها أن تبيع القدر ، ولكن سرعان ما تبدد ذلك الخاطر ، فلو أنها باعتها لتشترى بثمنها لحما ففيم تطهوه ؟ وغزتها همومها ، فظلت فى إطراقها ، وأخيرا رأت أن تخرج إلى الدنيا ، تبحث وتنقب ، لعلها تعود بقطعة من اللحم ، تجعلها تستقبل العيد مستبشرة ، كما يستقبله آلاف الناس .

وصلك أذنيها أقدام الجيران القاطنين فوقها ، فكان ذلك إيذانا بأن الليل قد أدبر ، وأن النهار قد أقبل ، فقامت تلف ملاءتها حول جسمها النحيل ، أطفأت الذبالة ، وذهبت تتلمس طريقها ، فتتحسس الجدار ، وتهبط الدرج المتهدم ، وتنساب فى الفناء الرطب ، وتستنشق رائحة الماء الآسن ، دون أن

تنقبض فى وجهها المتغضن عضلة ، فقد أسنت حياتها ، وخرجت إلى الطريق ، فبهرها النهار ، ولفحها الهواء ، وسارت وئيدة تتلفت ، فألفت دكان الجزار ، وقد زين بالرايات ، وتدلت الخراف والعجول ، وازدحم الناس عنده يشترون ، فوقفت على البعد تنظر ، والحزن يرعى فى جوفها ، والحرمان يخزها وخزات أليمه قاسية ، تزيد أساها ضراما .

وخيل إليها أن الناس فطنوا إلى وقفتها الذليلة المتطفلة ، فانسابت فى الطريق مطرقة ، ينفجر الحزن فى جوفها ، وبلغت دار بعض من تعرف ، ممن رزقهم الله بسطة فى الرزق ، فدخلت يداعبها طيف من أمل .

وجلست تتحدث مع ربة الدار ، وتصرم الوقت ، ووافى ميعاد الغداء ، فدعتها السيدة إلى الطعام ، فتمنعت تمنع الراغبات ، ثم لبث ترفرف فى جوفها فرحة ، وفى مثل لمح البصر طاف بذهنها أطياف أكلات شهية ، فتحلب ريقها ، وجلست إلى المائدة ، وإذا بالطعام قطعة من جبن وزيتون أسود ، فحنقت ، وزاد فى حنقها اعتذار السيدة بأنها لم تطبخ اليوم لأن غدا العيد الكبير !

وانقضى النهار وهى تدور على البيوت ، وأقبل الليل ، وقد دب التعب فى أوصالها ، فعادت إلى حجرتها ، عابسة الوجه ، تملؤها خيبة ، وتجر رجليها جرا ، وعادت كما خرجت خالية الوفاض ، وقد ذاب الأمل تحت وهج الواقع الأليم ، وراح اليأس يرتع بين جوانحها مخلفا المرارة والأسى .

وارتمت على حصيرها مكدودة ، يدثرها الحزن ، ويجثم على صدرها الضيق ، وأخذ الوقت يتصرم وئيدا ، وأخيرا طاف بها ملاك النوم فهجعت ، وتقضى الليل ، وأقبل نهار العيد ، فخرج الناس إلى المسجد مكبرين ، وارتفعت أصوات التهليل ، فقامت من رقدتها تتلفت ، ونفذت دقات الهاون فى البيوت المجاورة إلى مسامعها ، فكان لها على نفسها وقع ثقيل ، وتسرب

دخان الشواء إلى حجرتها ، ومشى إلى خياشيمها ، فأحست غصة ، وأدارت عينيها فى المكان فى ذلة ، وخيل اليها أن آذان الجيران أرهفت إلى ذلك الصمت السائد فى حجرتها ، وأن عيونهم تتطلع إليها ، فعز على نفسها أن يفطنوا إلى أن الفقر قد أقعدها عن أن تحتفل بالعيد ، فقامت إلى الموقد وأشعلته ، ثم وضعت عليه القدر وقد ملأتها بالماء القراح ، وجعلت تحركه بالمغرفة ، وتتعمد أن تدق جدار القدر ، ليسرى صوت رنينه إلى الآذان المنصتة إلى ما يجرى فى كهفها ، لتدخل فى روع الجميع أنها مثلهم بالعيد مستبشرة ، ونظرت حولها تبحث عن قطتها فلم تجدها ، وظلت هى فى حجرتها تقاسى الحرمان الشديد ، ولم تقو على احتمال ما هى فيه ، فتركت الماء يغلى على النار ، وارتمت على حصيرها تبكى وتنتحب .

من أجلك أنت

راح المطر ينهمر فى الخارج ، وأخذت الريح تولول ، تكاثف الضباب على النوافذ ، وأسدل الظلام ستوره السود ، وسرت قشعريرة فى جسم حمدى ، فهرع إلى المدفأة ينتفض من البرد ، وجعل يدس أعواد الحطب ليؤجج النار ، لعل حرارتها تنتقل إليه ، فتنقضى تلك الرعدة التى تملكته . كانت ليلة من ليالى لندن الباردة ، التى لم يألفها بعد ، فسرى الدفء فى جسمه ، فأحس راحة ، وأطرق رأسه ، واستسلم لأفكاره ، فراحت الصور تتتابع فى مخيلته كشريط السينما ، فرأى الأهل والأحباب ، وراح يجتر الذكريات ، فكان يتمهل أحيانا ، ويسرع أحيانا ، حتى إذا ما فكر فى سهام تريث فى تفكيره ، وانعكس على وجهه أثر ما يعتمل فى صدره فشابه كدر خفيف .

كانت سهام آخر فتاة عرفها فى القاهرة ، قبل أن يسافر إلى إنجلترا ، قابلها فى حفل أقامه صديق ، وعرفها هناك ، وجذب بصره إليها ابتسامتها ، كانت ابتسامة غامضة ، لم يعرف كنهها أول ما وقعت عليها عيناه ، ولكنها أسرته ، فتودد إلى صاحبتها ، وواعدها اللقاء ، فقبلت ، وعلى فمها الابتسامة التى شغف بها ، ومست أوتار قلبه .

وقابلها مرات ، وفى ذات يوم راح يبثها حبه ، وقد زاد نبضه ، وتدفق الدم حارا فى عروقه ، فحسب حرارته ستشعل نار الصبابه فى جوفها ، فتبادله الغرام ، ولكن راعه ما بدا فى عينيها ، وما ارتسم على شفتيها ، وقد نظرت إليه

فى ازدراء . وعلى شفتيها ابتسامتها الغامضة ، وقالت فى سخرية :

ـــ واها لك ، لا زلت صبيا فى الغرام .

فأحس كأن ماء باردا صب عليه ، وعقد لسانه ، وسار صامتا يحاول أن يلم شتات نفسه التى ذهبت شعاعا ، وقبل أن يفيق من سخريتها ، استأذنت فى الانصراف ، وفى عينيها بريق خبيث كان يصرخ به هازئا ، فيذل كبرياءه ، ويخز نفسه وخزا قاسيا .

واستمرا فى مقابلاتهما وكان كلما غازلها رمقته بنظرتها الهازئة ، وارتسمت على ثغرها تلك الابتسامة التى بات يرتجف منها ويهابها ، لم تعد ابتسامة غامضة ، وعزم على ألا يقابلها ، ولكنها راحت تعترض سبيله ، وتحاول أن تجعله ألعوبة ترجحها فى لذة ، فقد كانت تجد فى تعذيبه بهجة ، فأخذ يحادثها فى تحرز ، ويعاملها فى حرص ، متحاشيا أن يعرض نفسه لهزئها ، أو أن يكون هدفا لابتسامتها الساخرة المريرة .

وقابلته قبل أن يترك الديار ، فحاول أن يضمها إليه ، ليقبلها قبلة الوداع ، فقد حسب أن الظرف ليس ظرف سخرية وعناد ، ولكن ما أن مد ذراعيه ليلفهما حولها ، حتى جفلت منه ، وقالت وهى تبتعد وعلى شفتيها ابتسامتها الساخرة :

ـــ أحسبت نفسك لبقا ، فحاولت أن تستغل ساعة الوداع ؟! هيهات ، سافر يا حبيبى وفى مخيلتك ذكرى هذا الوداع .

وتململ فى مقعده أمام المدفأة ، وأحس مرارة ، وخطر له أن يكتب إليها رسالة ينتقم لنفسه فيها ، لما ناله من هوان ، وألح عليه ذلك الخاطر ، فراح يكتب :

عزيزتى سهام :

راودتنى فكرة الكتابة إليك ، وألحت على . فأخذت أسطر لك هذه الرسالة من بلاد الغربة ، كنت أحب أن أقول لك فى أولى رسائلى أننى أعيش هنا فى محرابى أصلى من أجلك ، وأن طيف الحبيب يؤنسنى فى وحدتى ، ولكن ابتسامتك التى تمزق قلبى ، تنهانى عن الخوض فى حديث صبيانى للغرام ، لطالما قلت لى إنك تمقتين فى الرجال اللف والدوران .

إننى ما فعلت شيئا هنا إلا بوحى منك ، أقولها صادقا لا هازئا ولا ساخرا ، وأرجو أن تؤجلى ابتسامتك ، حتى أفضى إليك بما يثبت ادعائى ، ويدعم قولى .

ذهبت بعد أن استقر بى المقام فى لندن إلى مطعم من المطاعم ، وكان الليل قد انقضى منه ثلثه ، وقعدت أتناول طعامى ، وأنصت إلى الموسيقا الهادئة ، التى كانت تعزف ألحانا خفيفة ، ورفعت رأسى عن الطعام ، وألفيت فى النضد المواجه لى فتاة ذهبية الشعر ، كان شعرها يحاكى شعرك ، فخطر لى أن أحدق فيها إكراما لك ، بل أقصد أن أقول إكراما لشعرك ، وتلاقت عينانا . وابتسمنا ، وخرجنا من المطعم وقد تعارفنا ، وأمضينا ليلة شاعرية وأنا أمرر يدى على شعرها ، أستغفر الله بل شعرك ، فلولا شعرك يا سهام ما جذبت تلك الفتاة بصرى .

وفى دار من دور السينما التقيت بفتاة زرقاء العينين ، فذكرتنى بعينيك ، ففكرت فى أن أتودد إليها إكراما لعينيك ، فاقتربت منها ، وحادثتها فحادثتنى ، وخرجنا من الدار صديقين ، وأمضيت ليلتى أنظر إلى عينيها ، بل إلى عينيك ، لقد أسعدتنى تلك الفتاة ، وجعلتنى أعيش ليلة لن أنساها ، فشكرا لعينيك ، فلولاهما لما خطر لى أن أتودد إلى الفتاة .



وفى ذات يوم التقيت بفتاة فى حديقة من الحدائق ، كان قوامها يشبه قوامك ، فهفت نفسى إليها ، ولا ضرورة أن أكرر أننى فى الواقع قد هفوت إليك ، فمشيت إليها وحييتها ، فابتسمت لى ، فجلست بجوارها وتبادلنا أعذب الحديث ، وما غابت الشمس فى الأفق البعيد ، حتى كنت أضم إلىّ قوامها البديع الذى يشبه قوامك الذى عز على يوم الوداع .

إننى يا سهام أعيش فى لندن أنقب عن الفتيات اللاتى يذكرننى بك ، ففى الواقع إنى أعيش هنا من أجلك أنت .

وتقبلى قبلات المخلص .

« حمدى »

وطوى الرسالة ، وقد أحس راحة ، فقد راح يتصورها وهى تقرأ رسالته فى ضيق ، وبات ينتظر طلوع النهار ، ليبعث إليها بوخزة ، ردا على وخزاتها القاسيات . ومرت أيام وأسابيع ، وجاءته منها رسالة ، ففضها وراح يقرأ :

حبيبى حمدى :

تسلمت رسالتك الأولى ، وأصدقك القول إنها أول حديث لك مس وترا حساسا فى قلبى ، إنها رسالة رائعة ، ما كنت أتصور صدورها عنك ، أحسست غيرة لما قرأتها وسألت : كيف لم يخطر على قلبى أن أمارس ذلك النوع من الحب ، إنى أحبك يا حمدى بعد أن قرأت رسالتك ، وقد صممت على أن أبادلك حبا بحب .

ورحت أتفرس فى وجوه الشباب ، فرأيت شابا يشبه فمه فمك ، فابتسمت له ، إكراما لفمك ، فابتسم لى واقترب منى وتودد إلى ، وحادثنى وحادثته ، وانطلقنا إلى الجزيرة ، وقعدنا على مقعد هناك ، واقترب منى ، ثم لف ذراعه حولى ، وهوى بفمه ، بل فمك ، على فمى وطال العناق . أمضينا

ليلة يا حمدى لن أنساها ما حييت ، فشكرا لفمك ، فلولاه ما هفت نفسى إلى ذلك الشاب .

وقابلت شابا طويل القامة ، كانت قامته كقامتك ، فرحت أرنو إليه ، ولفت نظره تطلعى إليه ، فدنا منى ، وهمس فى أذنى بكلمات ما كنت أقبلها من شاب ، ولكنى استرحت إليها إكراما لك ، وسرت بجواره ، كان لبقا ذكرنى إياك ، فعشت معه ساعات من أبهج ساعات العمر ، إننى يا حمدى مدينة بما أنعم به من سعادة لحبك ، فلولا تنقيبى عمن يذكروننى بك ، لأمضيت أيام حياتى هباء .

وفى حفل من الحفلات التقيت بشاب ذكرنى إياك ، وكان أثره فى نفسى عميقا ، فقد تقابلنا أنا وأنت فى حفل كذلك الحفل ، فخفق قلبى لما رأيته ، حسبته أنت ، ودنوت منه ، وقد أفعم صدرى بإحساسات لذيذة ، وأقبل على يغازلنى ،فألنت له جانبى إكراما لك ، وعشنا معا فى عوالم لذيذة أنا وأنت .

إننى يا حمدى أكرر لك إعجابى بفلسفتك ، فعش يا حبيبى فى لندن من أجلى ، وأعاهدك أننى سأنتقل بين القاهرة والإسكندرية ، أبحث عن الرجال الذين يذكروننى بك ولن أعيش بعد اليوم يا حبيبى إلا من أجلك ، من أجلك أنت .

وتقبل قبلات

المخلصة جدا

« سهام »

سيدى !

زوجتى العزيزة :

ما كنت أظن أنى سأكتب إليك مثل هذه الرسالة فى يوم من الأيام ، وما دار بخلدى قط أنى سأعود يوما إلى البيت فلا أجدك ، وأجد تلك الرسالة الجائرة القاسية : « قرأت رسائل عشيقتك ، فبانت خيانتك . الوداع » ما أقساك فى أحكامك ، وما أشد غيرتك القاتلة ! وما ضرك لو انتظرت حتى أعود ، لأشرح لك كل شىء ، ولكنك تسرعت كما هى عادتك ، وأخطأت الحكم كما هى عادتك ، وأصررت كما هى عادتك على أنك كنت على صواب .

ما كنت أحب أن أقص عليك ما سأقصه ، لأننى أعلم أنه سيؤلمك بعض الإيلام ، وسيثير غيرتك — وما هى فى حاجة إلى ما يثيرها — وما أحب إيلامك أو إثارة عواطفك ، ولكنه تصرفك الثائر الغيور ، الذى يضطرنى الآن إلى رواية كل شىء ، وسرد ذكريات حسبت أنها كفنت فى حافظتى ، فإذا بك اليوم تبعثينها بما فيها من آلام وأحزان .

أما ما سأقصه عليك فسيحز فى نفسى بقدر ما ستلسعك عقارب غيرتك — وإن كانت غيرة ليس هناك ما يبررها — ولكن لا بأس ما دمت قد انقدت إلى أوهامك ، ورحت تنقبين فى مكتبى عما يدعم شكوكك ، ويثبت لك أن لى ماضيا ككل الناس .

كلنا له ماض ، وقد فكرت بعد زواجنا أن أفضي إليك بماضيّ ، وأن أقص عليك قصة هذه الرسائل . ولكنى أحسست أنك سعيدة ، وأن سعادتك تعود إلى اقتناعك بأن زوجك ليس له ماض ، إنه رجل خلق يوم زواجك ، رجل لم يمش إلى خطيئة ولم يدنس قط ، ولم يخفق قلبه لأحد قبلك قط . عرفت أنك ممن يعشن بخيالهن ، فلم أشأ أن أهبط بك إلى الأرض ، فتركتك فى عالمك ما دام فى ذلك هناؤك وسعادتك .

كنت أجد الغبطة تشيع فى وجهك ، والرضا يكتنفك، فكنت أشفق أن تصدمك الحقيقة يوما ، فتحطم أحلامك ، وتقوض هناءك ، فكنت أمد لك فى حبل الأوهام ، فأوحى إليك أنك أول امرأة خفق لها الفؤاد ، فكنت تتقبلين ذلك منى فى سرور الأطفال ، ولكنك كنت أحيانا تتشككين فيما أقول ، فتستفسرين فى هدوء متكلف — ما كان ينطلى على — عمن عرفت قبلك ، وما كنت بقادر على أن أقص عليك شيئا ، فإنى بك عليم ، فإن غيرتك هوجاء جامحة ، فإذا ما ثارت لا تبقى ولا تذر ، فما أدرانى أنك ما كنت تغضبين كما غضبت اليوم ، ولا تتركين البيت كما فعلت اليوم ، فكنت أؤكد لك أنك الوحيدة فى حياتى ، لأعيد إليك بشرك ولأملأ نفسك غبطة وحياة .

أصبحت هذه الرسائل تذكارا ، وصارت صاحبتها ذكرى . بينا أنت ملء القلب ، ملء النفس ، ومالى أقول ذلك لك وأنت تعرفينه وتحسينه ، فلأسطر فى القرطاس ما حاولت أن أخفيه فى صدرى ، وما فيه ما يشين ، ولكنها طبيعتك الواهمة ، هى التى أرغمتنى على أن أكتم ماضى ، وأغلق نفسى على ذكرياتى .

ففى شتاء عام ١٩٤٤ ، جاءنى صديقى الدكتور فتحى ، وقال لى : قم ،

فقلت له : إلى أين والدنيا برد شديد ؟ ، فقال : إلى مريضة مصابة بفقر دم حاد ، فقلت له : لا بالله دعني اليوم ، وخذ متطوعا آخر ، فإن دمي متجمد فى عروق ، فنظر إلىّ وابتسم وقال : قم ، إنك كالحصان ، وسحبنى من يدى ، فقمت فى تراخ ، وقلت : إلى المستشفى ؟ فقال ونحن نخرج : لا إلى بيتها .

وهبطنا فى الدرج ، حتى بلغنا سيارته ، فركبنا وانطلقنا إلى حى من أحياء المدينة الراقية ، ووقفت السيارة أمام منزل فخم . فأسرع الدكتور ، وحمل حقيبته ، وقفز وراح يجد فى السير . فأسرعت خلفه لألحق به ، وقابلنا عند الباب خادم نوبى ، وراح يسير أمامنا ونحن خلفه نخترق الردهة الخارجية ، ثم نسير فى ممر طويل ، ثم ندخل غرفة بها سرير ، قد تمددت فيه فتاة حلوة التقاسيم ، ولكنها كانت شاحبة اللون جدا ، حتى إن شفتيها كانتا باهتتين لا أثر للدم فيهما ، وعينيها غائرتان ، وبجوار سريرها رجل وخط الشيب رأسه ، وامرأة قد انعكس القلق على وجهها ، كانا والديها ، وما إن لمحانا حتى أسرعا يصافحاننا فى لهفة واغتباط ، وفتح الطبيب حقيبته ، وأخرج إبرتى العملية الكبيرتين ، وأنابيب المطاط ، والتفت إلى والديها ففطنا إلى ما ينبغى ، فانسحبا فى هدوء ، فأغلق الدكتور فتحى الباب ، وابتدأت عملية نقل الدم .

راح يسحب الدم منى ، فانتابنى اضطراب ، وشعرت بخفقان فى قلبى ، وكأنما روحى كانت تسحب منى ، فقد كان الدم يمر بقلبى فى سرعة ، وينطلق إلى الحقنة ، وازداد وجيب قلبى . وتفصد العرق البارد من جبينى ، وكأنما أحسست ما أعانى من ألم فى سبيلها ، فمدت يدها ، وراحت تربت على يدى ، ثم تمررها فى رفق فوق ذراعى ، وافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة كانت

عزائى فى كربتى .

وتمت العملية ، وبقيت أحس تعبا ، وقلبى فى صدرى يدق دقا ، ورفعت رأسى ، فلمحتها تتطلع إلى فى امتنان ، ثم قالت فى رقة :

— عاجزة عن شكرك .

— العفو .

وأقبل والداها علىّ ، وغمرانى برقتهما وظرفهما ، فأخجلانى ، وانعقد لسانى ، فصرت أتمتم بتمتمات لا معنى لها ردا على شكرهما واغتباطهما ، وهممنا بالانصراف ، وحاول والدها أن يدس فى يدى ورقة مالية لا أدرى قيمتها ، فاعتذرت فى لطف ، فألح على ، فأفهمه الدكتور أنى متطوع ، وأنى لا أتناول أجرا ، وزاد على ذلك أنى من أسرة لها مكانتها ، فصافحنى الرجل فى حرارة ، وكرر شكره ، وقال لى : أرجو أن تعتبر هذه الدار دارك ، إنى أحب أن أراك دائما .

ووفد الليل ، فدخلت إلى فراشى لأنام ، ولكننى وجدت نفسى أفكر فى عملية اليوم على الرغم منى ، فما كانت أول عملية أشترك فيها ، فقد قمت بذلك مرارا ، وما كانت هى أول فتاة ينقل إليها دمى ، ولكننى ألفيت صورتها تلح على مخيلتى . وتحتل فكرى . ولما كانت الأفكار تنمو فى الظلام ، أخذت أفكارى تنمو وتتضخم ، فرحت أتصور نفسى معها أحادثها وتحادثنى ، وجعلت أجتر أفكارى فى نشوة وطرب .

وتنفس الصبح ، فخرجت إلى عملى ، واندمجت فيه ، فما كان أمامى فسحة من الوقت لأخلو بنفسى ، ولكن ما انقضى وقت العمل ، وما عدت إلى البيت ، حتى ألفيت رغبة الانطلاق إلى دارها تراودنى ، إنى لم أزر مريضا بعد انتهاء العملية أبدا فما هناك ما يدعو إلى زيارته ، ولكنى أجد رجلى

تحملانى إلى هنالك ، وكأنما قوة تخفية تدفعنى دفعا ، ووجدت نفسى أجتاز باب الدار ، فأجفلت وهممت بالفرار ، واعترانى خجل شديد ، فماذا يقولون عنى إذا ما وجدونى بينهم دون أن يكون هناك ما يبرر وجودى ، ونكصت على عقبى ، وقفلت عائدا مضطربا ، ولكن ما سرت فى الطريق خطوات ، حتى أحسست تلك القوة الخفية تدفعنى إلى هنالك ، فسرت كالمسحور ، واجتزت الباب وقد أخذ قلبى يقفز فى صدرى ، وقطعت فى الردهة الخارجية خطوات ، فقابلنى الخادم النوبى ، فانتبهت كمن يهب من نوم عميق ، وفطنت إلى سخافة ما أقدمت عليه ، فسألت عن الهانم فى اقتضاب ، وابتدأت فى الانسحاب ، ولكن فوجئت بصوت يرحب بمقدمى ، فرفعت رأسى فرأيت والدها على رأس السلم يهتف فى انشراح : أهلا .. أهلا .. فما كان أمامى إلا أن أصعد فى الدرج مهرولا ، لأصافح اليد الممدودة لى .

ودخلت غرفتها ، فمدت يدها إلى فأخذت يدها بين يدى ، وسألتها عن صحتها ، فأجابت بحمد الله ، وتهلل وجهها وبرقت عيناها ببريق أحسست ضياءه فى قلبى ، وجىء لى بكرسى وضع بجوار سريرها ، فجعلت أحادث والديها ، وكنت أرنو إليها بين وقت وآخر ، وانقضى وقت أحسست بعده أن لابد من قيامى ، فنهضت وإن كنت فى قرارة نفسى أتمنى أن تطول جلستى ، بل أتمنى ألا تنقضى أبدا .

وتركتهم وسرت فى الطريق أفكر فيما فعلت ، فأغضبنى سلوكى ، فعقدت العزم على ألا أكرر الزيارة بعد اليوم أبدا . ولكن ما جاء اليوم الثانى ، وما خلوت بنفسى حتى انهار عزمى ، وانطلقت إلى هناك ، أنعم بالسويعات الحلوة التى أقضيها بجوارها .

كان فى وسعى أن أترضاك ، وأن أكذب عليك ثانية بأن أقول لك ما كنت أحس به نحوها كان عطفا .

إنى جد آسف يا زوجتى العزيزة لإيلامك ، ولكن ما ذنبى إذا كنت قد نكأت جرح قلبى ، ونبشت ذكرياتى ، وهيجت كوامن نفسى ، وبعثت إحساسات كاد يدركها الموت .

وفى يوم وصلتنى دعوة منهم ، فذهبت فألفيت الموجودين لا يتجاوزون أصابع اليدين عدا ، ولمحت الدكتو فتحى ، فاتجهت إليه وصافحته ، وجلسنا نتحادث ، وأقبلت فى ثوب أنيق أبيض ، فبدت لعينى كملاك لطيف ، وجاءت وصافحتنى وهى تبتسم ، فأحسست رعدة خفيفة لذيذة تسرى فى يدى ، ثم وجدت نفسى أضغط على يدها فى رفق ، فشاعت غبطة فى صفحة وجهها النقية ، وتركتنى وذهبت تحيى ضيوفها ، فالتفت إلى الدكتور فتحى ، وقلت : صحتها فى تقدم .

فلم يحرك الدكتور شفتيه ، ولم يعلق على ما قلت بشىء ، بل راح يخوض فى حديث آخر ، وقمنا للعشاء ، فلما انتهى ذهب المدعوون إلى غرفة يتحادثون ، ولما كنت لا أدخن ولا أطيق رائحة الدخان ، انسحبت إلى غرفة أخرى ، وما انقضت برهة حتى جاءت تشاركنى فى وحدتى ، أصبحنا وحدنا ، فلم أشعر إلا وأنا أقترب منها ، وأهمس لها بصوت مرتجف متهدج . أبثها لواعج نفسى ، وأشرح لها حبى ، وأطرقت تستمع إلى ، وكأنما حديثى لم يكن مفاجأة لها ، فرفعت رأسها الجميل ، ورنت إلى فى وله وحنان، ودنوت منها ، فاختلطت أنفاسى بأنفاسها ، فلم أستطع مقاومة نفسى ، فضممت جسمها الضاوى إلى صدرى وقبلتها قبلة هزت كيانى ، وتفتحت لها نفسى .

وانتهى الحفل المتواضع ، وخرجت والدكتور فتحى ، وكنت شارد اللب ، وجاشت فى صدرى رغبة الإفضاء إليه بحبى ، ولكن غالبت نفسى ، وأخيرا غلبت على أمرى ، فخرجت الكلمات من فمى تكشف ما بى ، فقلت له فى صوت حاولت جاهدا أن يكون هادئا لا أثر للتأثير فيه : سأخطبها يا دكتور . فقال الدكتور دون أن يلتفت إلى : إنها لا تجوز لك . فسألته : و لم ؟ فقال فى نبرات ساخرة : امتزج دمك بدمها . فلم أهتم بسخريته ، وقلت فى حماس : وما يهم وقد امتزجت روحى بروحها . فقال فى جد : بالله لا تتعجل . فسألته فى لهفة : وما الضرر ؟ فقال فى نبرات حزينة : لم تشف بعد . فقلت له فى يقين : غدا تسترد قواها . وصمت الدكتور ، فالتزمت السكوت حتى افترقنا .

وسافرت إلى الريف ، وبعثت إلىّ برسالتها الأولى تشرح حبها ، وتكشف مكنون نفسها ، وتبادلنا الرسائل ، فتأجج الحب فى صدرى ، كان حبا جارفا ، فلم أستطع عليه صبرا ، فذهبت إلى والديها لأخطبها . رحبا بى وأكرمانى ، وتقبلا خطبتى قبولا حسنا ، واتفقا على إتمام الزواج بعد عودتها من الريف سليمة قوية . فكتبت إليها أزف البشرى ، وأستحثها على الإسراع بالعودة .

وانقضى شهر خلته دهرا ، وعادت أخيرا إلى الدار ، فأسرعت لأقابل حبى ، وكانت صورتها طوال الطريق تشغل رأسى ، كنت أراها فى مخيلتى متوردة الوجنتين ، متسربلة رداء الصحة والعافية ، و ما أن دلفت إلى الدار ، وما أن سألت الخادم النوبى عنها ، حتى علمت أنها مريضة فى فراشها ، فانقبض قلبى ، وشعرت جفافا فى حلقى ، وكأنما عقدت عقدة فى صدرى ، فضيقت أنفاسى ، فرحت أصعد فى الدرج مسرعا ، واتجهت إلى حجرتها ،

فألفيتها ممددة فى فراشها ، لقد كانت طيفا .

كانت مقابلة قاسية ، حطمت نفسى تحطيما ، وودت دموعى أن تطفر من عينى ، ولكن رحت أغالب دموعى ، وجاهدت لأبدو هادئا مطمئنا ، فجعلت أبتسم وقلبى يقطر دما . واستأذنت فى الانصراف على أن أعود بعد قليل ، فأذنوا لى ، فانطلقت إلى الدكتور ، ودخلت عليه وقد بان الأسى فى وجهى ، وقلت بصوت حزين : عادت يا دكتور ، ولكنها عادت حطاما .

فتطلع الدكتور إلى ، ثم أسبل جفنيه و لم يتكلم .

فقلت : ما رأيك يا دكتور فى أن نعيد عملية نقل الدم ، إنى مستعد أن أجود لها بكل دمى .

فقال فى اقتضاب : لم يعد دمك ينفعها .

فقلت فى فزع : وكيف ؟

فقال فى أسف : تسمم دمها .

أطرقت حزينا ، وخرجت أجر رجلى جرا ، ونزل بى هم ثقيل ، فما عاد لها فى الأرض إلا أيام ، فرحت أذرف الدمع السخين ، وما انقضى أسبوع حتى انقضت كما ينقضى الحلم الجميل ، وصارت ذكرى بعد أن كانت بهجة نفسى ومنية قلبى .

وهذه يا زوجتى العزيزة قصة خيانتى التى أثارتك ، وجعلتك تفرين من البيت ، وما هى بالقصة البهيجة ، وما فيها ما يستحق أن يثير نقمتك وغيرتك ، إلا إذا كنت تعزمين على أن تغارى من طيف ، لقد انقضى الماضى ، فأصبح كأمس الدابر فعودى إلى زوجك المتلهف إليك ، ولنوصد على الماضى بابا ثقيلا ، فالماضى بأحزانه وآلامه لى ، والحاضر والمستقبل المشرق لك .

روميو

التفت الرجال الذين كانوا جالسين فى بهو الفندق الفخم ناحية الباب ، فانفرجت أسارير الشباب ، واتسعت عيونهم ، والتمعت ببريق أخاذ ، وراح الشيوخ ينظرون فى إعجاب من بين أهدابهم البيضاء ، ومن خلف نظاراتهم الذهبية ، فقد كانت فتاة حلوة رشيقة فاتنة مقبلة فى دلال ، يتبعها كلب أبيض ضئيل أنيق ، وكانت الفتاة ممشوقة القد ، ناهدة الصدر ، فاحمة الشعر ، واسعة العينين ، صافية البشرة ، تتدفق حيوية ، وكانت تسير الهوينى ، مرفوعة الرأس ، لا تتلفت يمنة أو يسرة ، بل كانت تنطلق فى ثقة ، وكانت ترتدى ثوبا بسيطا أنيقا ، ينم عن ذوق وبسطة فى العيش ، إنها غنية ولا ريب ، سعيدة من غير شك ، جمال رائع قاهر ، يفتن العابد ، ومال وفير يدنى الأمانى ، ويحقق الأحلام .

ووسعت خطوها ، وسارت فى الردهة الطويلة الموصلة إلى جناحها ، وكلبها خلفها يجد فى السير فى غبطة ، والتقت فى الممر بشاب طويل القامة عريض الكتفين ، فيه فتوة وشباب ، فالتقت العيون ، وابتسمت أسارير الشاب ، وظلت الفتاة فى طريقها دون أن تختلج عينها خلجة ، وبلغت جناحها ، وفتحت الباب وانتظرت فلم يسرع الكلب فى الدخول كما اعتاد أن يفعل كلما فتحت بابا ، فأدارت رأسها الجميل ، ونظرت من فوق كتفها ، فرأت الكلب بين يدى الشاب ، وهو يمسح على شعره الطويل ، فهتفت فى

صوت ساحر :

— روميو .. روميو .

فقفز الكلب من بين يدى الشاب ، وراح يعدو نحوها فى فرح ، ووقف الشاب ينظر ويبتسم فى رقة ، ولكن الفتاة كانت قد اختفت خلف الباب الذى أغلق فى رفق .

وخلعت ثيابها ، ولبست غلالة رقيقة أبرزت مفاتنها ، وتقدمت من المرآة تديم النظر فيها ، وتتطلع إلى محاسنها ومفاتنها فى زهو وإعجاب ، فغمرها سرور ، واجتاحتها نشوة ، ولكن ما لبث أن غاض السرور ، وفرت النشوة ، وغام وجهها بسحائب خفيفة من الحزن ، فطأطأت بصرها ، وجعلت الأفكار تتزاحم فى رأسها وتتلاطم ، فسارت نحو المقعد الطويل ، وتمددت فوقه ، ومدت بصرها إلى لا شىء ، وأطلقت لخيالها العنان .

رأت نفسها بعين خيالها فى ثياب عرسها ، فأحست غصة فى حلقها ، وضيقا فى صدرها ، فكأنما قد عقد فيه عقدة . ودمعة تترقرق فى مآقيها .. أحست فى مقعدها نفس الإحساس الذى أحسته ليلة زفافها ، فما أحست ليلتها بهجة أو فرحة أو نشوة ، وما سرها الحرير الغالى الذى كانت ترفل فيه ، فيزيد فى حسنها ، وما أحبت الحرير بعد ليلتها تلك ، فإنها لتحسبه أكفانها درجت فيها ، فإنها كانت تزف إلى شيخ فان مرتجف .

ورأت نفسها شابة حلوة متفتحة فى دار أبيها ، تعيش فى عالم وردى من الأحلام ، وتهيم فى دنيا فسيحة من الأوهام ، تنتظر فى نشوة فارسها ورجل أحلامها ، الذى سينقلها من دنياها الضيقة إلى عالم السعادة الرحب اللانهائى ، عالم الحب والصبابة والغرام ، فكم مرة رأته فارسا يمتطى جوادا ،

ثم يقبل ويخطفها ويعود بها صعدا ، ليعيشا فى السحاب ، وكم من مرة رأته شابا ظريفا لطيفا من هؤلاء الأبطال ، الذين رأتهم على الشاشة فى أدوار غرامية تلهب الحواس .

ورأت نفسها فى دارها ، غرفة زوجها المسدلة الستائر . المقفلة النوافذ ، الهادئة هدوء الرموس ، الساكنة سكون القبور ، تغدو وتروح ، لتناول الشيخ المريض الدواء ، إنها تمضى الشهور ، وأية شهور ، الشهور الأولى لزواجها إلى جواره تمرضه وتعنى به وتؤاسيه ، وهى فى أشد الحاجة إلى العطف والعناية والتسلية .

واعتدلت فى المقعد الطويل فى تبرم وضيق ، وحاولت أن تفر من أفكارها التى تتوافد عليها توافد الموج ، فما تنكسر فكرة حتى تفد أخرى ، إنها لتود أن تنعم بذلك النسيم اللطيف الذى يهب من البحر فى رقة ، فراحت تملأ صدرها بالهواء ، وتتكلف الهدوء ، ولكن فكرها كان يعمل ، فراحت تمرر كفيها على وجهها دون جدوى ، فإن أفكارها أخذت تغزوها فى إصرار ، فاستسلمت لها برغمها ، وتمددت ثانية وقد انحسرت الغلالة الرقيقة عن صدرها ، فبدت كتمثال رائع ، لفنان مبدع .

ورأت نفسها يوم خرجت من غرفة زوجها خلف الطبيب ، لتستفسر منه عن حال زوجها ، لما استشفت من وجهه القلق بعد أن فحص عن حاله ، فأنبأها الطبيب أن لابد من سفره إلى الخارج ، فإن جو القاهرة أضحى لا يلائمه ، ورأت نفسها وهى تحاول إقناع زوجها أن تصحبه فى سفره ، وأن تفل من عزمه ، ولكنه أصر على الرفض ، وعلى استصحاب خادمه .

ورأت نفسها اليوم وهى تودع زوجها قبل أن تقلع الباخرة به ، وقبل أن تعود إلى الفندق ، فأحست راحة عزتها إلى نسيم البحر المنعش ، وإن كانت



فى الحقيقة راحة تخلصها من ذلك العبء الثقيل ولو إلى حين .

وقامت إلى الشباك القريب منها ، وأطلت منه ، فداعبها نسيم الأصيل ، وراح يعبث بشعرها السبط ، ويقبل وجنتيها فى رقة ، فأنعشها ورد إليها هدوءها وطمأنينتها ، فراحت تمد الطرف إلى البحر الساجى فى نشوة وطرب .

وجاء الليل يرخى ستائره السود ، فاتجهت إلى النور وأضاءته ، ثم جلست إلى المرآة تتزين ، فقد عزمت على العشاء فى الخارج ، وما أتمت زينتها حتى نهضت ونادت فى رقة :

— روميو .. روميو .

فقام الكلب عن الوسادة الوثيرة التى كان نائما فوقها ، وأقبل عليها يهز ذيله فرحا ، فمدت يدها ، وفتحت الباب ، فخرج روميو يعدو ، فخرجت خلفه وراحت تقفل الباب فى هدوء ، وأحست شخصا بالقرب منها ، فالتفتت فإذا نفس الشاب الطويل العريض الكتفين ، الممتلئ فتوة وشبابا ، والذى قابلها فى الممر لما جاءت ، وداعب روميو ، يفتح الباب المجاور لبابها ، فقد كان جارها ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة حلوة ، ولكنها لم تعبأ به ، ولم تلتفت إليه ، بل انطلقت فى طريقها وروميو فى أثرها يبصبص بذنبه فى سرور .

وتناولت عشاءها ، وفكرت فى أن تذهب إلى السينما ، ولكنها أحست جسمها يحن إلى الراحة ، فعادت إلى الفندق ، واتجهت إلى جناحها ، وبدلت ثيابها ، ثم اندست فى فراشها ، وجعلت الأفكار الحلوة تداعبها قبل أن يمس ملاك النوم بأنامله الرقيقة جفنيها ، وراحت فى سبات عميق ، فرأت فيما يرى النائم أنها قائمة بين الضباب ، محلولة الشعر ، فى ثياب رقيقة شفافة ،

لا تكاد تستر جسمها ، وقد سرى فى الجو نغم حلو أخاذ ، آت من بعيد ، كان نغما ملائكيا عذبا يستحوذ على المشاعر ، ويهز القلوب ، فامتلأت نفسها نشوة ، وأخذ الضباب ينقشع شيئا فشيئا ، فإذا هى فى مكان من بلور ، وأخذت الأنغام تشتد وتقترب وتتضح ، فأحست نفسها خفيفة خفة الطيف ، فأخذت تقفز فى فرح ، وترقص فى طرب ، وتميل وتتثنى كما يميل الغصن إذا داعبه النسيم ، وفجأة لاح أمامها شاب جميل ، عارى الجسد ، مفتول العضل ، قوى البدن ، مد يده ، وتناول بها يدها ، وجعل يشاركها فى رقصها ، ويهيم معها فى الفضاء العريض ، ونظرت نحوه فإذا هو زوجها قد خلق من جديد ، فندت منها أنة فرح ، وانفرجت شفتاها عن لؤلؤ نضيد ، وانبعثت الموسيقى من هنا وهناك ، وغشى المكان ضياء عجيب ، ونظرت إلى زوجها فإذا هو قد تبدل ، وإذا بها تجد مكانه ذلك الشاب الطويل الذى داعب روميو ، والذى ينزل فى الغرفة المجاورة لغرفتها ، فأقبلت عليه فى انشراح ، فجذبها من يدها فى رفق وسار بها فوق السحاب ، ثم ركبا زورقا من ذهب ، وراحا يجدفان فى الفضاء ، ويسبحان فى غبطة حول النجوم ، وتركا الزورق ، ودخلا حديقة ، فرشت أرضها بالأزهار ، وقد توسطها سرير من الورد ، يحف به قنوات من زئبق رجراج ، وانطلقا إلى السرير ، فتمددت فيه ، واستنشقت عبير الأزهار فانتعشت روحها ، فتطلعت إليه فى دلال ، وقد تكسر جفناها ، فمال عليها فى رقة ، وضمها إلى صدره فى حنان ، وراح يلثمها هنا وهناك فى لهفة وسعار .

وفتحت عينيها ، فألفت نفسها وحيدة فى فراشها ، فأحست طعم الصاب فى فمها ، وجفافا فى حلقها ، ما كانت تلك السعادة إلا حلما من الأحلام ، لاحت فى الخيال لحظة ، ثم اختفت وقد خلفت وراءها لهفة وحسرة .

وحاولت أن تستأنف نومها ، ولكن النوم خاصم جفنيها ، فإن دمها ليتدفق حارا فى عروقها ، وإنها لتحس به يصعد إلى رأسها فى فورة ، وأن وجنتيها تكادان أن تنصهرا ، وأن قلبها ليدق فى ثورة وعنف ، ويقفز فى جوفها ، حتى ليكاد أن يفر من فيها ، وإنها لتحس شيئا يضغط أنفاسها . إن مشاعرها المذخورة قد ثارت عليها وتمردت ، فقد ضاقت بذلك الكبت المتواصل ، وتود أن تنطلق .

وأحست أنها باتت فريسة عواطفها ، فقامت من فراشها ، وفتحت الشباك القريب من مخدعها ، لعل الهواء العليل يلفحها ، فيخفف من إحساساتها المتمردة ، ولكنها كانت ليلة قمراء . توحى بالشعر والحب ، فما فتحت الشباك حتى انسل ضوء القمر الفضى إلى غرفتها ، فأجج عواطفها ، وزاد ثورتها ، وأشعل رغبتها ، فانهارت فى فراشها انهيارا ، وبقيت مدة لا تبدى حراكا ، إلا أن عواطفها كانت فى داخلها تتصارع وتتضارب .

وانتصبت واقفة ، وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهابا فى قلق ، فكانت تذهب إلى النافذة تملأ رئتيها بالهواء ، ثم تعود إلى حيث كان روميو نائما ، و لم تطق صبرا على الإحساسات التى كانت تعتمل فى صدرها ، فارتمت فى فراشها حانقة قانطة .

وهبت من فراشها ثانية ، وقد اتسعت حدقتا عينيها ، وبان فى وجهها عزم صادق ، وسارت إلى المرآة كالمسحورة ، وراحت تسوى من شعرها ، وتبرز فتنتها ، ثم مشت إلى الباب فى خفة ، وفتحته فى احتراس ، خشية أن يستيقظ روميو ، وخرجت وسارت خطوات ، حتى بلغت الباب المجاور لبابها ، ودقته فى رفق و لم تضطرب ، فقد كانت مأخوذة ، وكأنما كانت فى حلم من الأحلام .

وفتح الباب ، وظهر الشاب الطويل القامة ، العريض الكتفين ، وقد بان الدهش فى وجهه ، وعقدت المفاجأة لسانه ، فلم يدر ما يفعل ولا ما يقول ، ولاحظت ما اعتراه من ارتباك ، فقالت :

— هل رأيت روميو من فضلك ؟

فقال فى بلاهة :

— روميو ! .. روميو ! ..

فقالت بصوت منغم :

— روميو ؟ . كلبى .

وكان قد تملك روعه قليلا ، وسيطر على أعصابه ، فابتسم . وقبل أن يجيب أطل روميو من باب حجرتها ، وأخذ يعوى ، وكأنه ينادى سيدته ويحذرها ، والتفت الاثنان إليه وقد عاد الشاب إلى ارتباكه ، أما هى فقد صعقت فى مكانها ، وارتفع الدم حارا إلى رأسها ، ثم تنبهت كمن أفاق من حلم وجرت ، فحملت روميو بين ذراعيها ، ودخلت حجرتها ، وأغلقت بابها فى قوة ، كأنها تصفع به الشيطان ، وقضت ليلتها تبكى .. وحيدة !!

شجرة الشيطان

ريح عاصفة ، وبرق ورعد ، وزمجرة وزئير ، وظلام دامس حالك .. فقد ثار الكون ثورة هائلة ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرت الأرض عيونا ، ففار الماء وارتفع ، وبلع الدنيا فى جوفه ، وأخذت سفينة نوح تجرى فى موج كالجبال ليالى وأياما لا تستقر على حال ، حتى بعث الله ريحا على الأرض ، فهدأ الماء ، واستوت السفينة على صخرة .

وبعث نوح الحمامة فانطلقت ، ولم تلبث أن عادت ، فما زال الماء يغطى الأرض .. وتقضت أيام سبعة ، فعاد وأرسل الحمامة ، وانقضى النهار وهو يرقب عودتها ، وجاء الليل فجاءت بورق زيتون بمنقارها ، وطينة برجلها ، فأيقن أن المياه قد قلت عن الأرض .

وكشف الغطاء من الفلك ونظر ، فإذا وجه الأرض قد جف ، فأطلق الوحوش ، والطيور ، والهوام ، فانطلقت فى الفضاء ، وهبط إلى الأرض ليغرس ما معه من أشجار . وأراد أن يغرس شجرة العنب ، فلم يجدها ، وظل يبحث عنها هنا وهناك ، حتى أعياه البحث ، فأطرق فى حزن . وفيما هو فى إطراقه ، أوحى الله إليه أن إبليس قد سرقها ، فقال نوح لإبليس :

ــ أعد شجرة العنب .

ــ لا أعيدها حتى تشركنى فيها .

ــ وما قيمة هذه المشاركة .

فأطرق نوح قليلا ، وراح يفكر ، فقد كان يخشى أن يستغلها إبليس فى

فتنة الناس ، ولكنه لم يجد من إجابته بدا ، فقال فى استسلام :

— قد جعلت لك فيها الثلث .

— لا .. يجب أن يفوق نصيبى نصيبك .

— هذا جشع !

— هذا شرطى ..

فقال نوح فى نبرات المغلوب :

— قد جعلت لك الثلثين .

فانبسطت أسارير إبليس لهذه المشاركة ، وذهب ثم عاد بشجرة العنب فغرسها ، وما انتهى من غرسها ، حتى ذبح عليها طاووسا ، فشربت من دمه . ونمت الشجرة ، وطلعت أوراقها ، فذبح عليها قردا ، فشربت من دمه ، وراح يتعهدها ، حتى إذا ما أثمرت ذبح عليها أسدا ، فارتوت من دمه ، وقبل أن ينضج العنب جاء بخنزير ، وذبحه على الشجرة ، فشربت من دمه .

تدلت العناقيد منتفخة ، فكانت كأكياس ملئت دما ، ورأى إبليس نضج العناقيد ، فراح يجمع الأعناب فى فرح ، ثم راح يعصرها خمرا .. وأقبل رجل ، فقدم إبليس إليه ما عصر ، فعب الرجل من الخمر حتى ارتوى ، وأخذ إبليس يرقبه وقد ارتسمت على شفتيه البغيضتين ابتسامة شماتة وخبث !

ما دبت الخمر فى أعضاء الرجل حتى زها كما يزهو الطاووس ، وما سار خطوات حتى انتشى ، فذهب عنه الوقار ، وأخذ يصفق ويرقص كما يرقص القرد ، وقويت عليه الخمر ، فسكر وعربد ، وزمجر زمجرة الأسد ، وجعل يحطم ما تصل إليه يداه .. ولكن سرعان ما خدره السكر ، فنعس ثم استلقى ، وجعل يغط فى النوم غطيط الخنازير ..

وقهقه إبليس قهقهة عالية ، فقد صارت له شجرة يفتن بها الناس !

امرأة وألحان

ذهب وصاحبه لشراء أسطوانات موسيقية ، وما كان راضيا عن ذهابه ، فما كان يعرف شيئا عن الموسيقى الغربية . ولولا إلحاح صديقه عليه ليصاحبه ، لما غادر مقهاه ، ولفضل أن يبقى فى جلسته على إفريز الطريق يتبع بعينيه الغاديات الرائحات ، كما يتبع المشاهد فى اهتمام الكرة وهى حائرة ، فى مباراة حامية فى التنس .

ودلفا إلى المحل ، فطفق يقلب عينيه فيه فى استغراب ، فما كان يحسب أن فى قلب القاهرة مثل ذلك المكان ؛ رأى قاعة فسيحة ، قامت فى وسطها كعبة قسمت إلى آلاف الأدراج ، وضع على رأس كل منها اسم غريب لا يعرفه ، ورأى عشاق الموسيقى يطوفون حول الكعبة فى صمت وخشوع ، ينقبون عما يبغون فى اهتمام ، وألفى صديقه قد سلك فى الطائفين ، وشردت منه الأبصار ، فأحس نفسه غريبا ، وفطن إلى أن عليه أن يفعل شيئا حتى لا يبدو نشازا فى ذلك الجو المتآلف ، فراح يقرأ الأسماء اللاصقة بالأدراج ، وخطر له أنه قد يتورط فيما يسفر عن جهله ، فدبت فى نفسه رهبة خفيفة ، فهرع إلى حيث كان صاحبه ، ودنا منه يحتمى به .

ومس أذنيه صوت نسوى رقيق يقول فى نبرات خافضة .

ـــ أية خدمة ؟

فالتفت ، فرأى فتاة رائعة الجمال ، زادت من روعتها الأيدى الماهرة التى

صففت الشعر الأحمر الفتان ، ونشرت الظلال والأصباغ فى مهارة ، فى رقعة الوجه الحلو القسمات ، وتدلى من أذنيهما هلالان بديعان ، زانا الوجه الآسر ، ورفت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ليس لها سبيل إلا إلى القلب ، وتألقت عيناها الزرقاوان الواسعتان ببريق أخاذ ، ووقع بصره على الصدر الناهد الشامخ فى كبرياء ، كان جمالها من ذلك الطراز الطاغى ، الذى لا يقف فى طريقه شىء ، فظل يديم إليها النظر ، لم تتحرك شفتاه ، أما صديقه فقال فى بساطة :

ــ السيمفونية الثامنة شهر زاد ..

وانطلقت إلى الأدراج تحضر الأسطوانات ، وانطلق صديقه معها ، أما هو فوقف يرقبها ، ويفحص عنها بنظره ..

ساقان متناسقتان ، وجسم غاية فى الروعة والجمال ، إنها فتنة تسير على الأرض ، وتعبث بالقلوب ، وتسبى العقول .

وأحضرت الأسطوانات ، فسارت وصديقه إلى جوارها إلى غرفة صغيرة من الغرف الزجاجية الكثيرة التى ستر نصفها بستائر كثيفة ، ووضع بها فونغراف وكرسيان ، فأسرع إليهما وجلس على كرسى أمام صديقه ، أما هى فاتجهت إلى الفونوغراف ، ووضعت أسطوانة من الأسطوانات وهو يرقبها فى اهتمام ، ويرنو إلى ذراعها البضة ، وقد استيقظت عواطفه فى صدره .

وانسابت الأنغام ، فأطرق صديقه فى خشوع ، ووقفت هى عند باب الغرفة والابتسامة الحلوة ترف على شفتيها ، أما هو فلم يحفل بالأنغام ، وراح يرنو إليها ، يملأ عينيه من روائع الجمال ، وانسابت بعد قليل ، فجعل يرصدها من زجاج الباب . وأقبلت مرات تبدل إبرة الفونوغراف ، فكان يتطلع إليها خافق الفؤاد .

وسكنت الموسيقى ، فساد الغرفة هدوء ، وأراد أن يقول شيئا ، فقال :

ــ عندى فونوغراف مهجور ، ما كنت أحسب أن له قيمة قبل أن أرى هؤلاء الناس !

فابتسم صديقه ، ونهض يحمل الأسطوانات ، وقابلا الفتاة فى الردهة ، فقال الصديق :

ــ سآخذ اليوم شهر زاد ..

وظل هو يرنو إلى الفتاة فى اشتهاء ، ولو طاوع نفسه لسألها عن اسمها ولطلب منها أن تقابله هذا المساء .

وعاد إلى داره ، وما خلا بنفسه حتى ألفى طيف الفتاة أمام عينيه لا يريم ، وقد احتلت صورتها فكره ، وهفت إحساساته إليها . كانت ابتسامتها العذبة تدغدغ حواسه ، ونظراتها المنبعثة من عينيها الزرقاوين الآسرتين ، تعبث بأوتار قلبه . صار يراها بقوامها الممشوق ، وصدرها الناهد الشامخ غادية رائحة فى خياله ، وأمضى ليلته وطيفها فى رفقته ، وما لاح الصباح حتى كانت قد استولت على لبه ومشاعره .

وأصبح الصباح ، وصورتها تلح عليه ، ونفسه تهفو إليها ، وقلبه يهتف به أن ينطلق ليراها ، فقام وخرج ، وساقته رغبته إلى هناك ، فوقف أمام المحل لحظة ، وقد دبت الرهبة فى جسمه دبيب النمل ، ولمحها من خلل الزجاج الخارجى ، فخفق قلبه ، وراح يستجمع جأشه ، ينمق ما يقوله ، حتى إذا اطمأن إلى نفسه دلف إلى المحل ، واتجه إليها وهو يرصد جسمها الرائع وقد استيقظت فى نفسه مشاعره الكوامن . وانتبهت إلى وجوده ، فالتفتت إليه وعلى شفتيها ابتسامتها العذبة التى تعبث بالأفئدة ، وقالت فى صوتها الهامس المشحون أنوثة :

ــ أية خدمة ؟

فقال فى صوت متهدج :

ــ أريد أن أسعد بموسيقى تعجبك .

فانفرجت أساريرها ، وقالت وقد تكسرت أهدابها .

ــ المهم أن تعجبك أنت .

فقال وقد سكن روعه :

ــ ستعجبنى ولا شك .

وفتحت درجا ، وأخرجت أسطوانة ، وقالت :

ــ حلاق أشبيلية لروسينى ..

ولم يلتفت إلى ما تقول ، فما كان يفرق بين موسيقى وموسيقى ، كان يتطلع إلى جسدها وقد أفعم بإحساسات فوارة ، ولو طاوع نفسه لضمها إليه واعتصرها ، ولجعل يلثمها فى سعار ، ليطفئ النار التى تأججت بين حنايا ضلوعه .

وسار إلى غرفة من الغرف الزجاجية الكثيرة لتسمعه سريناد شوبير ، فجلس على كرسى ، وانحنت تضع الأسطوانة ، وتبدل الإبرة ، فدنا جسدها من جسده ، وملأ عبيرها أنفه ، فاضطرب ، وراح يرنو إلى صدرها الناهد وفى عينيه بريق .

وانسابت الأنغام ، فانسلت الفتاة فى خفة ، وأسندت ظهرها إلى باب الغرفة ، وأطرقت تنصت ، وعلت وجهها النشوة ، أما هو فراح يصعد عينيه فى جسدها الرائع ، وفى صدره نار ، وظلت خاشعة ، وظل يتطلع إليها فى اشتهاء ، وقد أصم أذنيه عن الأنغام ، حتى إذا ما انتهت القطعة ، وتحركت الفتاة صوب الحاكى « الفونوغراف » انتبه إلى نفسه ، فغمغم فى صوت

متهدج وهو يرميها بنظره الحار .

— رائعة .

وغادر المحل وهو يحمل لأول مرة أسطوانة موسيقية ، وانطلق إلى البيت ، وما خلا بنفسه حتى جعل يفكر فى الفتاة واحتل تفكيره صورتها ، وقد أسندت ظهرها إلى باب الغرفة الزجاجية ، وتراءى له جسدها الفتان ، فتدفق دمه حارا فى عروقه ، وخطر له أن يدير الأسطوانة التى اشتراها ، ليهيئ نفس الجو الذى عاش معها فيه لحظات ، فأحضر حاكيه « فونوغرافه » المهجور ، ووضع فيه الأسطوانة ، واسترخى فى جلسته ، وراح ينعم بالأحلام .

انساب النغم حلوا جذابا ، يشرح الصدر ، ويفتح الخيال ، فراح يهيم فى سماواته ، فأحس نشوة تملأ أقطار نفسه ، وراحة تدثره ، فرد ذلك الشعور الهانئ إلى أن نفسه باتت تستريح إلى التفكير فيها ، والحياة معها ولو فى الخيال .

ووافى اليوم التالى ، فألفى نفسه ينطلق على الرغم منه إلى من شغلت الفؤاد ، ودخل المحل ، وأدار عينيه فيه ، فلم يجدها ، فأحس انقباضا ، وفكر فى العودة من حيث جاء ، وقبل أن يدور على عقبيه لمحها خارجة من غرفة من الغرف الكثيرة الممتدة على جانبى الردهة ، فأحس الراحة ، وذهب إليها متطلق الوجه ، فلما رأته ابتسمت له ابتسامة هزت كيانه ، وأيقظت مشاعره الفوارة فى صدره ، وقالت له فى صوتها الخافض المشحون أنوثة :

— وجدت لك قطعة موسيقية رائعة .

فقال وهو يرنو إلى جسدها فى اشتهاء :

— وما هى ؟

— منتصف الليل لبيتهوفن .

وذهبت تحضر الأسطوانة ، وهو يتبعها بعينيه ، ثم دخلا ليسمعا القطعة



التى يروى بها « بيتهوفن » همسات العشاق فى منتصف الليل ، وجعل يحدج الفتاة بنظره ، ولكن ما إن انبعثت الأنغام ، حتى ألفى نفسه برغمه يصيخ إليها السمع ، وعجب فى نفسه كيف أن مثل هذه الأنغام شغلته لحظات عن التطلع إلى جسدها الحلو الجذاب ؟!

وعاد إلى داره ، وطفق يفكر فى الفتاة وهو ينصت إلى « منتصف الليل » ، وسرعان ما استولت الأنغام على حواسه ، حتى شغلته عن التفكير فى الجسد الحلو ، فراح يصغى إليها نشوان ، وقد تفجرت فى نفسه ينابيع جديدة من المشاعر . وتفتحت فى صدره إحساسات رقيقة هفهافة ، وسمت روحه . فأخذت تهيم فى عوالم نقية من الخيال .

ومرت الأيام وهو يتردد على محل الموسيقى ، ينتقى ما يشتهى من القطع الموسيقية ، وفى يوم عاد إلى داره ، وراح يصغى إلى القطعة التى اقتناها ، وقد امتلأ نشوة ، وأفعم بإحساسات لذيذة ، وظلت الأنغام حلوة عذبة رقيقة ، وهو فى محرابه جذلان ، وانتهت الأسطوانة ولما تنته القطعة الجذابة ، كان لها بقية فى أسطوانة أخرى ، فأحس رغبة فى أن ينعم الساعة ببقية القطعة التى ذهبت به فى دنيا وردية حبيبة ، وضايقته لذته المبتورة ، ففكر فى أن ينطلق ، ليحضر بقية القطعة ، ولكن الليل كان قد أرخى سدوله .

وما إن أصبح الصباح حتى هرع إلى محل الموسيقى . وقابل الفتاة ، وقد رفت على شفتيها ابتسامتها الساحرة الآسرة ، ولكنه لم يلتفت إليها ، وسألها عن الأسطوانة التى يبغيها ، ودخلا إلى الغرفة الزجاجية ، وانبعثت الأنغام ، ووقفت الفتاة عند باب الغرفة ، بجسمها الممشوق الفتان ، وقد استرخت فى وقفتها ، فربت فتنتها ، ولكنه لم يتطلع إلى الجسد الرائع الذى كان يهزه ويحرك

مشاعره الفوارة الكامنة ، إنه أطرق ليصغى إلى القطعة التى سمت بروحه ، وجعلته يسبح فى بحور صافية من الخيال .

وما انتهت القطعة حتى حمل الأسطوانة وهو مأخوذ ، دون أن يلتفت إلى الفتاة ، وهرع إلى البيت لينفرد بالأنغام .

رسول الشتاء

يوم من أيام الربيع ، النسيم يهب عليلا ينعش القلوب ، والوقت ساعة الأصيل ، والشمس تنحدر فى الأفق الغربى ، وقد توهجت كقرص من نار قبل الخفوت ، وخرج الناس من دورهم ، وصعدت أم وابنتها إلى السطح تستروحان النسيم .

كانت الأم فى الخامسة والأربعين ممتلئة الجسم ، موفورة الصحة ، تتألق عيناها ببريق أكثر ما يلمع فى الربيع ، ترتدى ثوبا أسود من تلك الثياب التى ترتديها زوجات الصناع والعمال والباعة الجوالين ، وجلست إلى جوارها ابنتها شامخة الصدر ، نحيلة الخصر ، حلوة جذابة نامية ، فى السابعة عشرة ، أنضر من وردة الربيع .. كانت فى السن التى تحلم فيها بالرجال الأشداء ، والزوج المنشود .

وجاء غراب ، ووقف على الحائط ونعق : غاق .. غاق .

فرمقته المرأة مستطلعة ، وقالت فى لهفة : خير ؟ . خير ؟ .

وفطنت ابنتها إلى لهفتها ، فقالت فى عجب :

ــ أى خير تنتظرين ؟

فقالت لها أمها فى إنكار :

ــ ألا تعلمين ؟

فقالت الفتاة فى دهش :

ـــ أعلم ماذا ؟

ـــ ما تعلمه جميع النساء .

ـــ عن أى شيء تتحدثين ؟

ـــ عن رسالة الغراب التى ذهب بها .

ـــ إية رسالة ؟

ـــ الرسالة التى أوفدته النسوة بها ، ولم يعد بعد بردها .

ـــ والله لا أدرى ماذا تقصدين . غراب .. نسوة .. رسالة ، ما كل هذا ؟

ـــ كبرت ، وصار الأمر يهمك ، فما من امرأة إلا تعرف هذا الأمر ، اسمعى .

وتعلقت عينا الفتاة بأمها ، وقد أعارتها سمعها ، وأخذت الأم تقص قصتها :

ـــ من مئات السنين ، أباح الله للرجال أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع ، وحرم على المرأة أن تتزوج أكثر من رجل ، فساء ذلك النساء ، واجتمعن فى مؤتمر يتدارسن الأمر ، فقر رأيهن على أن يقين من الله أن يسوى بينهن وبين الرجال ، أن يبيح لهن الزواج من أربعة رجال ، كما أباح للرجال الزواج من أربع نسوة ، وكتبن الرسالة ، ولكن من ذا الذى يحملها ؟ كان الغراب حاضرا ذلك المؤتمر فتطوع بحملها .. أخذها وطار . وغاب رسول النساء ، ومرت أجيال وأجيال ، ونحن ننتظر أوبته متلهفات ، كلما نعق غراب ، حسبناه الرسول قد عاد ، كلما صاح : « غاق » هتفنا به مستبشرات : خيرا ! » ، لعله قد جاء بالفرج .

وصمتت الأم ، والفتاة تنظر إليها ساهمة ، وجاء غراب ونعق : غاق .

فأفاقت الفتاة من أحلامها ، وقالت فى لهفة : خير .. خير إن شاء الله !

ليلة حمراء

وقف فى النافذة يرقب ساعى البريد فى قلق ، فقد وافى ميعاده ، وهو يخشى أن يتكرر ما حدث فى الأيام الثلاثة المنصرمة ، من إقبال الرجل ثم انطلاقه فى طريقه ، دون أن يعرج على داره ، ويترك الرسالة المرتقبة .

إنه طالب فلسفة فى السنة النهائية فى جامعة فؤاد الأول ، نفدت نقوده التى بعث بها إليه أهله ، ليعيش عليها طوال شهره ، فكتب إليهم يلتمس منهم مددا يعينه على مواجهة الحياة الباهظة فى العاصمة الشرهة ، التى فقدت فيها النقود قيمتها .

واشرأب بعنقه ، ونظر إلى الطريق ، فلم يلمح ساعى البريد المنتظر ، فدار على عقبيه فى ضيق ، وراح يقطع الغرفة ذهابا وجيئة وهو متبرم ، وفكر فى الرسالة التى كتبها إلى أبيه ، فألفاها بفضل ما فيها من مغالطات فلسفية ، وأكاذيب قوية ، تستدر عطف الأب الساذج ، وترغمه على أن يبعث إلى ابنه الغريب فى مدينة قاسية ــ ما يطلب من مال .

وشعر بالجوع يهصر أحشاءه ، فزاد تبرمه ، وهب ضميره يبكته ، ويصيح به أن ما يصل إليه من البلدة يكفيه لولا ذلك الضعف البغيض ، الذى ينتابه عقب وصول النقود إلى يديه ، فقطب جبينه ، وجعل يطمئن نفسه أنه لن يستكين إلى ضعفه إذا بلغه ما طلب من أبيه .

وسار إلى النافذة ، ورمى ببصره ، فرأى ساعى البريد مقبلا ينساب

كثعبان ، فما أن يتجه إلى اليمين ويترك رسالة حتى يعود إلى اليسار ، وسرعان ما يذهب إلى اليمين ليعود إلى اليسار ، وجعل يرصده خافق القلب ، يتجاذبه اليأس والرجاء ، حتى إذا ما بلغ داره ، ودخل من بابها ، هرع إلى السلم وقد أرهفت حواسه ، وداعب أذنيه صوت الرجل وهو يهتف باسمه ، فسرت فى صدره نشوة ، وراح يقفز الدرج قفزا ، وتناول الرسالة وفضها فى لهفة ، وما إن أطلت منها الحوالة المالية حتى انبسطت أساريره ، وانشرح صدره وهدأت نفسه ، فقد خلق اللحظة خلقا آخر .

وانطلق إلى مطعم فاخر ، وتناول طعاما دسما ، وما أن امتلأت معدته حتى نسى جوعه ، وما قاساه فى الأيام الثلاثة الماضية من ضنى شديد ، ونسى وعده لنفسه بأنه لن يستسلم لضعفه ، وأسبل عينيه ، وراح يفكر فى أن يقضى ليلة حمراء صاخبة ، يختزن فيها من المشاعر والإحساسات مايهون عليه جدب الليالى ، ومرارة الأيام ، إذا ما قبع فى داره ولم يبق له إلا الذكريات يجترها فى لذة وسرور .

كان يؤمن فى أعماقه بما قاله أحدهم : حسبت عمرى ، فوجدته أربعة عشر يوما فقط ، هى لحظات حياتى التى تقضت دون كدر أو هموم !! فكان يحاول اغتنام ساعات الصفو ، وأن يجعل حياته أطول من حياة ذلك السعيد . إن كل لحظة من لحظات لذته هى التى يحسبها فى عمره ، أما ما عداها فهى عبث وهباء منثور .

وغادر المطعم وهو مسترسل فى التفكير فيما يفعله فى ليلته ، ففى يده نقود ، وما خطر له على قلب ما اعتزمه فى ساعات جوعه من مقاومة ذلك الضعف الذى تذوب بسببه النقود ، وما هب ضميره ليزجره ، فما يفيق الضمير من سباته العميق إلا بعد وقوع المحظور ، وذهب يضرب فى

الطرقات ، ثم عرج على مكان يتناول فيه كأسا تنعش روحه ، وينظر حتى تذهب طلائع الليل ، فما كان لطالب لهو مثله أن يخرج ليبحث عن صيده إلا بعد أن يهجع الناس الطيبون .

ومضت ساعات ، وهدأت المدينة ، ودقت ساعة معلنة النصف بعد منتصف الليل ، فقام يفرك يديه ، وخرج إلى الطريق .

وسار يتلفت ، حتى إذا ما بلغ تقاطع عماد الدين بشارع فؤاد الأول ، رأى على ناصية الطريق امرأة فى ثوب أحمر بديع ، يبرز مفاتن جسمها ، ورنا إلى صدرها ، فألفاه شامخا بديع التكوين ، ودنا منها ، فراعه دقة تقاطيعها ، وتناسق ملامحها ، وحدجها بنظره ، فلم تجفل ، بل خيل إليه أنها تبتسم وفى عينيها دعوة صريحة ، وعلى الرغم من ذلك لم يتقدم ، فقد أرهبه جمالها ، وأدار عينيه فى المكان ، فألفى على قيد خطوات رجلا فى ثياب نظيفة ، فطاف برأسه أن ذلك الرجل هو رجلها الذى يدفعها لتعرض نفسها على الغادين والرائحين ، وأعاد النظر إلى الرجل ، فوجد أن منظره لا يوحى بأنه من ذلك الطراز الذى ويتعيش من دفع امرأة إلى عرض الطريق ، ولكن فلسفته أقنعته أن المنظر خداع ، وأن حسن البزة ، والتسربل بالوقار وإظهار الأنفه ، أصبحت من مستلزمات الصنعة ، لتعمل فى نفس الزبون عملها . إن جميع القرائن تدل على أنه معها ، فالطريق خال ، وليس هناك غيرهما ، ومع ذلك بقيا مدة كل فى مكانه يرقبان صيدهما ، وأقنع نفسه بأن الرجل قوادها ، فاتجه إليه فى جسارة ، وقد صورت له فلسفته أن من الأصوب أن يحادثه مباشرة فى أمرها ، بدلا من أن يضيع وقته فى مغازلتها دون جدوى .

واقترب من الرجل وحياه وهو يبتسم ، ثم التفت إلى المرأة ، وغمز له بعينه ، فنظر إليه الرجل فى إنكار ، ولكنه لم يأبه لاستنكاره ، إن هو إلا من



لوازم دوره ، وقال له فى بساطة :

ـــ لم بعد هناك ضرورة لاستمرار عرضها وقد جاء الشارى .

فاتسعت حدقتا الرجل ، وامتقع لونه ، وأذهلته المفاجأة ، فلم يجد لسانه ، وقال الشاب :

ـــ أظن أننا نستطيع أن ننهى هذه الصفقة لو دعوتها لتقف معنا .

فقال الرجل فى ثورة :

ـــ اذهب من فضلك .

ومرت سيارة فاخرة ، فرمقها الرجل بنظره ، فقال صاحب الفلسفة فى ثقة :

ـــ لن تجد لها الليلة صيدا أفضل منى ، عصفور على الأرض خير من عشرة فى كريزلر .

ـــ انصرف خير لك .

ـــ هكذا أنتم ، إذا أقبلنا عليكم تدللتم ، وإذا أعرضنا عنكم تهافتم علينا تهافت الذباب .

ـــ اذهب قبل أن أحطم لك وجهك .

ـــ لست مفلسا حتى تحطم لى وجهى ، إنى أعرف كيف أهدىء من ثورتك :

ومد يده فى جيبه ، وأخرج بعض أوراق مالية ، وقال وهو يبتسم :

ـ ما رأيك فى هذه الأوراق ؟

فقال الرجل فى حنق شديد :

ـــ أنت أوقح من رأت عيناى .

فقال الشاب وهو ينحنى :

— متشكر ، وأنت أبرع من امتهن هذه المهنة ، مظهرك قد يخدع كثيرا من الأغرار ، ولكنه لن يخدعنى أبدا .

وأخذ الرجل يتلفت فى غيظ ، فقال له الشاب فى سخرية :

— لا تتعلق بالأوهام . لن يأتى .. وأعدك وأحلف ، ولكن لا بأس . لن تخسر شيئا .. أنا هنا .

ارحمها من تلك الوقفة ، فقد تعبت ساقاها .

— اغرب من وجهى قبل أن ..

— سأنصرف حتما إذا وضعت يدى فى يدها .

ولم يعد الرجل يحتمل أكثر من ذلك ، فراح ينادى فى حدة :

— عسكرى ! . عسكرى !

فصاح الشاب فى استخفاف :

— عسكرى ! عسكرى ! .. ماذا يهمنى ؟ ! لن تفضح إلا نفسك .

وأقبل جندى يهرول ، واقترب من الرجلين ، وما أن وقعت عيناه على الرجل الثائر ، حتى دوى صوت حذائه ، وارتفعت ذراعه بالتحية العسكرية ، فقد كان الرجل من الرجال البارزين ، وقال فى احترام :

— أفندم .

واضطرب الشاب لأول مرة ، وذابت شجاعته ، وتفككت أوصاله ، ودارت الدنيا به ، وما كاد يسمع ما يهدر به الرجل الثائر ، ولكنه شعر بالجندى يدفعه أمامه ، فسار ذليلا ينعى على فلسفته تغريرها به ، وتوريطه فيما قاده إلى القسم ، ليقضى فيه ليلة ، كان يرجو أن يقضيها فى سرور ، لتزيد أيام حياته على أيام ذلك السعيد الذى وجدها أربعة عشر يوما فحسب .

فهرســت

رقم الإيداع ٢٥٦١ الترقيم الدولى ٣ ـ ٢٢٧ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه